
ليلى.. ليلى
والمجنونا
عبد المنعم الصاوى

ليلى.. ليلى..
ولا مجنون

عبد المنعم الصاوى

الغلاف واللوحات الداخلية

بريشة الفنان الأستاذ حسين بيكار

ليلى.. ليلى..
ولا مجنون

عبد المنعم الصاوى

A L A M I A
عالمية
للنشر والإعلان

الإهداء

إلى كل ليلى تبحث عن مجنون!

والى كل مجنون، جن بليلاه!

والى روح العشق، فى قلب الانسان

وهو ما يجعل صحبة ليلى، شيئا يمتع!

... وتسهو ليلى.. عن الزمن..

فيتساوى عندها أن يطول أو أن يقصر،

لكنه فى كل الاحوال يرف كثوب عروس!

أو يثقل ككفن قتيل!!

... ونعدد إنجازات الإنسان، فنرى

أبرع ما أنجبه هو الحب!

وأمتع ثمرات الحب : هى ليلى!

عبد المنعم الصاوى

مقدمة



قالوا : فتش عن المرأة!

ولم يقولوا : أين يكون التفتيش

.. أسهل وأنسب؟

قالوا : تجدها وراء كل عظيم!

وكذلك قالوا : وقد تجدها وراء كل خطيئة!

وحرنا .. وتعبنا!!

.. أهى إلهام، يصبح فى دياجير الظلام، قبسا من نور؟!

أم أنها شيطان، تغرى بارتكاب حماقة؟!

... وتبدو المرأة، كأنها هى لغز، يحار أمامه الناس!

لكن ليلى.. ليلاى وليلاك وليلى

الناس جميعا .. هى الهام لرجل تهواه، وليست شيطانا حتى مع من تكرها!

... أما ليلى هذه القصة، فشئ آخر!

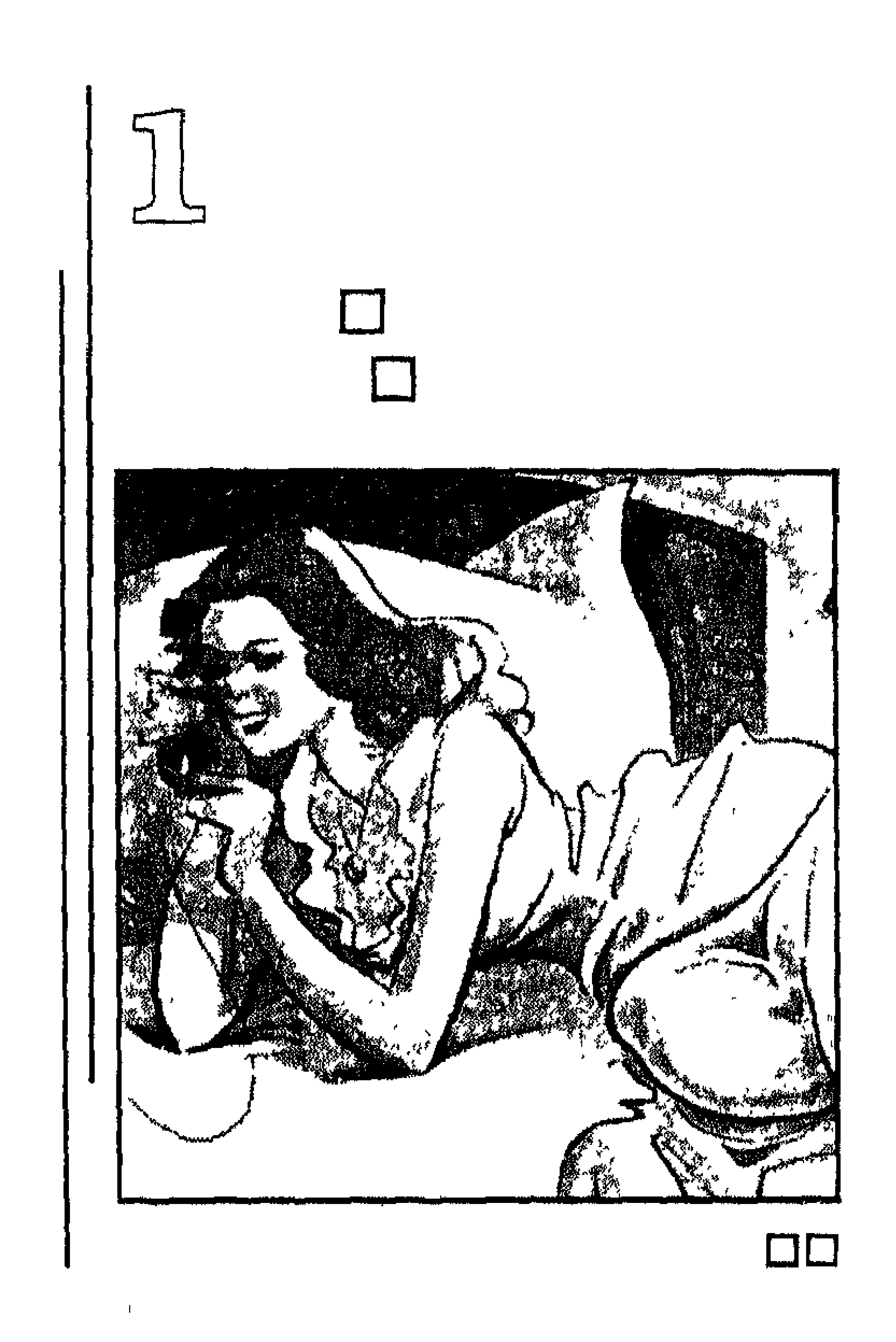
عبدالمنعم الصاوى

□□□

1

□

□



□□

ـ كان الوقت ربيعا، نسماته كأنفاس عذارى.. رقيقة، تتخفى!! وهدوءه كخطو السارى فى الليل، يسير على مشطه، ليبعد عن نفسه، شياطين الليل من المردة!

وكانت ليلى تجلس فى شرفة مسكنها، لا يعزلها عن سحر الليل، إلا.. ليلى أو بعض من ليلى، يمكن داخلها، ولا يفتأ يتذكر أشياء مختلفة، منها ما هو حلو كالشهد، أو مر كالعلقم!

وتتنفس ليلى، فى عمق، وتكاد أن تسمع الأنفاس فى داخلها تتصادم.. أو تتفاهم! أو أن هناك شيئا ينزعها منها، فتتصايح.. أو تتصالح!

وتبرق فى داخلها فكرة، لا تعرف لماذا هذه الفكرة بالتحديد، دون سواها؟! وفى هذا الوقت من الليل الحالك، وهو وقت خصصه الناس للأحلام، فى غسق الليل؟!

وضحكت ليلى من نفسها! وهى تتساءل! أليالى الانسان مقسمة، على أنشطة النوم المختلفة؟ وما عساها تلك الانشطة تكون.. يا ليلى؟ أفحتى النوم يشغل عقل الانسان؟ ولماذا الناس ينامون إذن..؟

أفينامون ليرتاحوا من عقل مشحون، حتى ليكاد الواحد أن ينفجر رأسه؟!

أم أن الناس تنام، لتمارس أثناء النوم أنشطة من نوع آخر، لا تظهر، إلا والعينان مغلقتان، والجسد ممدد، يبعد عن دنيا الناس، إلى دنيا أخرى؟!

لكن ماذا عن هذه الدنيا الاخرى.. يا ليلى؟!

أهى أيضا دنيا، ترهق الاحياء من الناس، ولا تعطى مقودها لكسول أو متعب؟

فإن تكن الدنيا الأخرى، يا ليلى، مصدرا لمتاعب لا تحصى، فلماذا يقبل الناس عليها؟

أمضاعفة الارهاق؟ ألكى يحمل كل الاحياء، ضعف المسئوليات برغم الشكوى منها، وبغير تضاعف.. فى الوقت أو الجهد؟!

أم أن نشاط الحياة الاخرى، هو الدواء الموصوف، لعلاج ما تسفر عنه الأولى؟!

الحياة الاخرى إذاً، ليست راحة بغير حدود، ونشاطها هو نوع من رد الفعل، يخفف من تأثير حياة الناس الأولى المألوفة!

وهزت ليلى رأسها لتبعده عن خواطر ترهقها!

وبينما هى فى طريقها لتنام، شعرت بنداء داخلها، يطلب منها أن تتصل بشخص تعرفه، وتتعامل معه، وتعرف أنه مثلها، يحيا وحده.. لكن أفهذا بالفعل مبرر؟!

وتمهلت عند التليفون لحظة، تقارن بين عدد من معارفها، لتقرر بمن تتصل به منهم، لتبعد بنفسها عن نفسها شبهة تفضيل واحد، دون سواه!

وشعرت أن الوقت قد طال عليها، وهى تتردد : من تطلب؟ ولكم خطر ببالها واحد، فذكرت غيرة امرأته، من أية مكالمة يتلقاها.

وعندما خطر ببالها شخص آخر، مطت شفتيها، لتقرر بحركة كالموضة، أنه شخص، لا شخصية!

وثالث ورابع.. ولم تتخذ قرارا بعد.

حتى الإناث ممن تعرف عزفت عن أن تتصل بواحدة منهن.

وبينما هى قد تسمرت الى جوار التليفون، شعرت أنها هى نفسها، قد صارت أمة تافهة، وعاجزة أيضا!!

ما هذا؟ لقد كان مجرد خاطر، فهل يستبد بها الى هذا الحد؟

وهل يدور بها هذا الخاطر على أسماء مختلفة، وعلى شخصيات متناقضة.. رجال متزوجون، وعزاب، ونساء غيورات، وتافهات!

ما هذا؟ أفبحث هذا عن متاعب مصطنعة؟

وخطر ببالها، أن تتمدد لتنام، لكن لم يكن سهلا عليها أن ينسحب الخاطر اللحوح، هكذا بيسر وسهولة. وظل الخاطران يتصارعان فى داخلها!

.. مثلما تتصارع أجزاء الزمن؟

.. أو مثلما تتصارع إنجازات الإنسان بالنهار، وأنشطة الانسان فى الاحلام؟!

أو.. مثلما..

ووجدت ليلى نفسها، قد أدارت قرص التليفون دون أن تدرى، وبدأ رنين متصل يدوى فى مسمعها، عند الطرف الآخر.

وعجبت مما فعلته؟!

من ذا طلبته يا ليلى؟!

ولم تكن ليلى تعرف، وما كان سهلا عليها أن تتراجع، فتكتم أنفاس التليفون!

وبدأ حوارها مع الطرف الآخر..

●●●

ـ من..؟ من يتكلم؟

ـ أنا.. أنا..

ـ اسمك أنا؟

ـ هل بين الاسماء اسم.. أنا؟

ـ ولم لا؟!

ـ هل تعرف واحدة اسمها "أنا"..

ـ أنت.. أنا!

ـ أنا لست.. أنا.

ـ أما أنا.. فأنا!

ـ شئ غريب!

ـ.. دعينا من الاستغراب، ما اسم أبيك؟

ـ لابد من أن يكون.. نحن! من باب وأنت من باب آخر..

ـ فاسمك إذن.. "أنا بنت نحن"!

ـ يا سلام!! ذكاؤك خارق يا.. ماذا أقول؟

ـ قولى كما كنت تقولين.. أنا..

ـ لا.. الاسماء لها أيضا مشكلات بغير نهاية..

ـ كيف..؟

ـ قد يتهم برئ لتشابه اسمه باسم آخر!

ـ أفلم يعد عندك إلا الاتهام والإنتقام؟

ـ لنعد الى ما كنا فيه من حديث الاسماء.

ـ اسمك لابد من أن يكون.. أنت!

ـ ومن أنت هذه؟

ـ اسمك.. أنت؟

ـ واسم أبى؟

ـ أنتم.. أفهذا غريب..؟!

ـ أنت إذن أنا بنت نحن..

ـ تماما.. تماما. كما أنك أنت ابن لأنتم!

ـ.. وأين موقع أنتن مثلا؟

ـ أمك..

ـ الناس لا تدعى بأمهاتهم..

ـ عندك حق. ما هذا يا ولد؟. أنت إذن أنت..

ـ وأبوك لابد من أن يكون أنتم!

ـ وبهذا أصبح من عائلتك!

ـ نعم.. للأسف..؟

ـ أن أكون قريبك، شئ مؤسف؟

ـ لأنك لست بالقرب الكافى منى!

ـ أفتأسف لى أم أن الأسف لنفسك؟

ـ.. لى ولك!

ـ وما معنى هذا التناقض؟

ـ طالما عرفنا أنه تناقض، فهذا يكفى..

ـ لماذا يكفى؟

ـ لاننا عرفناه، وأدركنا سره.

ـ وما العلاقة بين العجب والمعرفة؟

ـ المرء لا يعجب مما يعرف..

ـ ومتى يعجب؟

ـ من المجهول أو الغامض..

●●●

ومضت المكالمة على هذا النحو من الألغاز، وكأن شيئا لا يمنعها، أو كان طرفى الحديث، خاليا البال من أية مشاغل..

وأخذ كل طرف يفلسف أو يسفسط!! حتى كاد الليل ان ينتصف..

ومع طول المناقشة، بدأ كل طرف من طرفى الحديث، يخرج كلماته، فى إطار تراخت مخارجه، حتى صارت الكلمات ترتدى ثوبا فضفاضا، يتسع معه نبرات الإغراء!

ـ إن صوتك بديع..

ـ الله يجبر بخاطرك..

ـ أنا لا أبالغ.. صوتك أيضا رائع..

ـ.. يا أخى!

ـ ولابد أن جمالك ساحر..

ـ ألا تستحى..؟

ـ مم؟

ـ إن منطقك قد بدأ يخونك!

ـ لا.. يا ستى؟

ـ تجادل! أفيمكن أن تجادل؟

ـ طبعا.. لابد!

ـ إنك تتخيل.. بل وتتخيل ما تتخيله حقيقة..

ـ صوتك هدانى..

ـ.. هداك؟

ـ نعم..

ـ هداك لماذا؟

ـ لشكلك الفتان.

ـ قد يكون الصوت رخيا.. ومعبرا.. رحيما.. لكن ما دخل هذا بالشكل؟

ـ الانسان يا هذى، كل لا يتجزأ.. فالصوت الحلو، لا يخرج عن قبح..

ـ كم من جميلة صوتها كعواء ذئاب، أو كنباح كلاب!

ـ لا لا.. يبدو أننا سنجد أنفسنا، قد دخلنا دون أن ندرى، فى تعريف الجمال.. والفتنة.. والسحر.. وما تظنينه أنت قبحا، قد يكون أشد سحرا مما تعتبرينه جمالا! لا يقبل الجدل..

ـ ربما..!

ـ لا داعى لاستعمال عبارات التشكيك، عندما يدور الحديث، حول ما هو مؤكد..

ـ والمؤكد عندك أن الصوت يدل على الشكل..

ـ طبعا.. هذه تجربتى.. تحدثى طويلا..

ـ لتعرف من صوتى شكلى كما تقول؟

ـ شكلك عرفته تماما..

ـ لا تكن مغرورا يا هذا..

ـ ولم لم تقولى يا "أنت"؟

ـ ليس غرورا أن أعرف.

ـ وماذا عرفت؟

ـ عرفت من صوتك أنك جميلة ممشوقة القوام، وصاحبة تأثير فعال على الرجال..

ـ وماذآ أيضا؟

ـ ذكية.. لابد أن تكونى ذكية.. ذكية جدا..

ـ تحدث.. تحدث طويلا..

ـ لتسمعى الثناء عليك؟

ـ لا.. ليس هذا ما أطلب..

ـ ألست بأنثى..

ـ أظن هذا..

ـ وألا تعرفين أن الغوانى يسرهن الثناء؟

ـ أنا أنثى.. ولست بغانية يا.. أنت..

ـ ولم لا؟

ـ لأن وصف الغانية، لا ينطبق على..

ـ لا تأخذى الوصف بمعنى العصر..

ـ بل إنى آخذه بمعنى اللحظة..

ـ ما هذه الدقة؟

ـ دقة اللفظ، جزء من معناه..

ـ يا سلام!

ـ واللفظ يتغير من لحظة الى لحظة..

ـ فإن يكن المعنى الثابت جميلا..

ـ والاستعمال..؟

ـ لا يهم!

ـ بل يهم كثيرا، فنحن أبناء اللحظة..

ـ وقد تصبح اللحظة عمرا..

ـ أو دهرا!

ـ وقد تكون سريعة كالبرق الخاطف..

ـ ومع ذلك فإنها تترك تأثيرها على الناس لزمن يمتد..

●●●

وسكت الحوار، كأنما قد تعب، ثم عاد يتصل مرهقا، كأنه يتثاءب! ولكن تثاؤبه قد كان مثيرا!

ـ والآن ألا تقولين من تكونين؟

ـ ألم تقل أنت، أننى.. "أنا"..

ـ هذا هو المعنى الكامن فى النفس..

ـ... والمعلن..

ـ اسم كبقية أسماء الناس..

ـ خمن أنت.. من أكون؟

ـ دعينى أستحضر أسماء من أعرف..

ـ أفتعرف أكثر من أنثى؟

ـ أتغارين؟

ـ وهل من حق أنثى لا تعرفها، أن تغار عليك؟

ـ ربما؟

ـ كيف؟

ـ فى أحيان يكون الحب متخفيا فى طيات النفس..

ـ وكيف يبين؟

ـ بطرق شتى..

ـ أو تعرفينها؟

ـ ربما..

ـ إذن فأنت عاشقة محترفة..

ـ وهل فى العشق احتراف؟

ـ هى خطوة، أو درجة، تنبثق عن هواية..

ـ.. تماما والهواية قبل ولادتها.. رغبة!

ـ ما هذا كله؟

ـ هذا شأنى.. ولماذا تدور وتلف وتحاور؟ قل من تعرف.. لنرى كيف تخمن..

ـ أفأنت أسماء؟

ـ لا.. هذا ليس اسمى..

ـ سميرة؟ أنت إذن بكل فتنتها..

ـ ولا هذه يا مغرور..

ـ تحية.. ذات النظرات النفاذة..

ـ ولا هذه أيضا يا زير نساء الارض..

ـ إذن قولى أنت.. من أنت؟

ـ ألم تطلق على "أنا"..

ـ نعم فعلت..

ـ أنا إذن لست إلا.. أنا..

ـ أفتكونين.. ليلى؟!

ـ وهو آخر ما خطر ببالك!

ـ لانك شيخ غفر، فى فستان!

ـ وأنت غفير، تحرس قبرا مهجورا!! فى جبانة!!

ـ لن أعجب من طول لسانك..

ـ لسانى ليس طويلا.. يا هذا!!

ـ أنا أيضا "هذا"..؟

- كما أنك سميتنى "أنا"!

- ورددتها إلى فى جفوة؟

- لنصبح "خالصين" لا دين على أى منا للآخر!

- أو تسمحين لى بكلمة؟

- تستأذن يا مغرور؟ ماذا تنوى قوله؟

- أنك كنت على حق، حين فزعت من علاقة صوت الأنثى بالأنثى..

- أنا لم أفزع..

- أنكرت الفكرة..

- لتتصبر..

- وها أنذا أؤمن على كلماتك..

- تعنى أن الصورة شئ قد يختلف عن صاحبة الصوت..

- ولهذا ناديتك بشيخ غفر..

-.. وأنا أقبل..

●●●

وبعد أن انتهت المكالمة، كان الليل قد أوغل فى ظلماته، وشعرت ليلى بالمأساة، فأخذت تتصايح :

أنا ليلى..! شيخ الغفر ليلى..! صوتى جذاب ولطيف، لكن كجلد القطة ناعم كالحرير، ونعومته لا تمنع أن لكل القطط، أنيابا حادة، وفى أرجلها مخالب لاتتورع عن خدش الجلد، بلا رحمة..

أنا ليلى، قد صارت فى قاموس رجال العصر، مصدرا لمتاعب وفزع، وخوف من مجهول قاس..

أنا ليلى.. لم أعد بعد - ككل ليالى الدنيا - معشوقة! لكن ثمرة، يتعب معها، من يتصور قدرته على ترويض الحيوانات المفترسة!!

لا.. لست بليلى! أنا - كما قال الجلف - على الطرف الآخر - "أنا".. بلا اسم، ولا عنوان، ولا شخصية!

ألنسان هذا الجلف، ليتعامل مع أنثى، بأسلوب يدمر كل صفات الانثى..؟

لماذا يبتهج بحديثى..؟

ولماذا لم يخف مشاعره نحوى؟

ما فى، من أشواق الأنثى، لرجل..

.. وأخذت ليلى تسأل نفسها فى حيرة..

لكن لماذا الغضب عليه؟

إن سواه، قد كان أشرس منه!

هو واحد، لكن أحادا أخرى، سبقته إلى تسفيه وجودك يا ليلى!

تحركت ليلى نحو المرآة لتتطلع فيها، فترى ماذا ينقصها، لتكون امرأة ككل نساء الارض..

وأزاحت منديلا للراس، كان يغطى شعرها الطويل الفاحم، كالليل!

ثم أخذت تعبث بشعرها، وهو ينسدل على كتفيها، وتحركه، مع حركات الرأس، فتجده يتجاوب مع حركتها..

أفهذا الشعر، مما يتجاهله رجل، إنه يتموج كنسيم رق.. ورق، حتى صار نوعا من عطر يخدر أو يسبى؟

ثم الرقبة كقطعة عاج مستوية، تترفع عن معنى الطاعة، لما فى الطاعة من رق، حين تزيد عن الحد..

وعيناك يا ليلى، كعيون مها، تسحر.. ولا تقتل!

والنظرات، واللفتات، والحركات.. وعودك هذا كعود من أبنوس، استقام كعصاة الساحر!

كل هذا يا ليلى، لا يجتذب رجلا فيهيم بحبك؟

وبم تتميز فتيات تعرفهن، وتعرف أن إغراء الفتنة فيهن، لا يصل الى ما فيها.. هى.. ليلى!!

ويعـزى ليلى عن هذا الموقف، أن الحظ هو الحظ، قد يعطى الأبله مالا يعطيه لحكيم عاقل..

وتردد ليلى ما كانت ترويه الأم عما كان يردده أبو ليلى. وكان أبوليلى يقول لامرأته. إن الحظ، ليس عطاء لا تحكمه حكمه، وإنما الحكمة تستخفى عن كل الناس، لتظل عقيدتهم فى الحظ، إنه كالمجنون الابله، له خبطات بلا ترتيب وبلا منطق، والناس لعجز فيهم يعتبرون الحظ.. حظا!! لا أكثر!! يحقق أحدهم ثروة بلا طائل، فيقول الناس إنه.. محظوظ!! وبهذا يصبح هذا الحظ تبريرا للعجز!!

وتمضى ليلى تستحضر ما كانت أمها ترويه عن والدها، فتضحك حين يصل بها الاستعراض، الى أن المسألة بالنسبة

للحظ ، لا تعنى ما يتصوره الناس عن الحظ، إنما الحظ هو فى نظره، تعويض عما يفقده الناس!! فالمجنون ـ مثلا ـ لا يقدر على تدبير اموره، ولو تركوه وحيداً، لمات من الجوع! أو ارتكب جريمة قتل ضد الغير أو ضد النفس، ليتخلص من مسئولياته!

كم كانت أمك يا ليلى تروى عن والدك، أحاديثاً وقصصا وحكايات ونوادر!! لقد مات المرحوم، وأنت جنين فى بطنى يا ليلى"..

وتشعر ليلى أنها لم تكن، حتى وهى جنين صماء، أو خرساء، أو بلهاء، فقد كانت تشارك أمها وأباها، ما كان يدور بينهما من الاحاديث والحكم المختلفة..

يا ليلى : أفيفهم جنين، ما زال قطعة نيئة من لحمك، لحم يستو بعد؟

لكن ليلى تصر على أن الجنين لا يرفع صوته لتسمعه حتى أمه، لكن يكفيه أن يفهم، ثم يختزن المعلومات فى عقله، فان لم يعجبه حوار، بين أمه وأبيه، تململ، وهو فى عالمه المجهول المظلم!! وتصرخ أمه من ضرباته!! لكن ماذا تصنع؟!

وتعود ليلى إلى ما كانت ترويه الام لها، عن آراء الوالد، بالنسبة للحظ وللمحظوظين..

إن أباها كان يقول ان المحظوظين، ليسوا إلا محتاجين!! وعجزة!! وكسالى!! ومنهم سفهاء أو ظرفاء، ومنهم أيضا أفاقون أو دجالون!! وقد يكون بعضهم قتلة أو سفاكين لدماء طاهرة بريئة!!

ولولا ما يطلق الناس عليه الحظ.. لماتوا، قبل أن تلدهم أمهاتهم!! لكن هذا الحظ يعوضهم نقص الإدراك، فيبدون أمام الناس عباقرة، و.. ربما، من أعيان وادى عبقر.

أما العقلاء من الناس، والموهبون، والفنانون، فهم - بحساب الثروة - فى زاوية مظلمة، يسكنها الجن الازرق وعليهم أن يكدحوا ليلا ونهارا، لتذوب الأعمار فى نهر الدمع أو العرق وما يبقى يبذل أقصى الطاقة، ليعيش، من غير ديون تؤرقهم!!

ويلوم الناس الفن!! وقد يتهمون العلماء بأن لهم شطحات، تبعدهم عن الثروة!! والجاه وحياة ناعمة رخوة!

وتهز ليلى رأسها فى عصبية، وهى تقول من داخلها، ولداخلها : ما أتعس أن يهبط ثمن النضج فى الفن وفى الادب وفى العلم، ليرتفع ثمن العجزة..

لكن ليلى تعود لما سمعته من آراء لأبيها..

وأبو ليلى كان يقول : لولا أن الله يجزل عطاءه لنفايات الناس!! لاصبحنا نحيا بين كفايات لا يختلف عليها إثنان..

لكن الله سبحانه صاحب حكمة فى تفريق الناس، بين ذكاء خارق.. لكن منحوس! وغباء مظلم، لكن بالحظ يكون عطاؤهم أكثر، ليتساوى خلق الله! بحسبة المجموع الكلى، لما يملكه كل منهم!! يختلفون فى توزيع المجموع، لكن يبقى المجموع، آخر الأمر متساويا!.. أو كالمتساوى!

وكانت أمك يا ليلى تقول لك، أنها لم تكن تتصور هذا.. فكثيرون من الأعيان.. مثلا، جمعوا بين الثروة والسلطة والصحة والذكاء.. فكان أبو ليلى يجيب امرأته، بأن الناس أسرار، ومن يدرى ماذا يقاسيه الأعيان، فى داخلهم!!

●●●

وتشرد ليلى فى واقعها هى، لترى أى القوالب يليق بها! لكنها فى جو الوحدة، وفراغ يحيط بها، ورنين التليفون، يذكرها بأجراس كنيسة تنعى شابا فى عز صباه، وشجر وارف حيث تعيش، يزهر مرة زهرا بلون أبيض أو أحمر، وهى مقطوعة عما يحيط بها!

ما أقسى الوحدة يا ليلى!!

وأنت فى بيتك تتوهمين!!

.. لكن.. أفهذا بيت.. هذا؟

الجدران الصماء.. أهى بيت؟!

الاصـداء المردودة إليك، كمـا يرتد السـهم لمن صـوبه.. أفهذا بيت؟

الأبواب المغلقة، كقبور الموتى! لا تجد حتى من يسرقها ليبيعها لأستاذ أو طالب طب يعنى بالتشريح، أما ما فى الجثة من روح، فهذا شئ لا يغرى السارق!!

.. لأنه سارق، وأفاق، ومدمر، لا يهتم إلا بالجسد البالى!! أما الروح فلا تشغله!! الروح وهى حياة الناس، لا تشغله!!

وشعرت ليلى بأن رأسها يتمزق.. يتمزق.. ليتناثر!!

.. وارتمت ليلى على أقرب مقعد لتنام عليه!

.. أو لتموت عليه!!

ما كانت تدرى!! بل وما كان يهم!

●●●

ومضت ليلى فى إغفاءتها، ثم الاغفاءة صارت نوما، ثم النوم يصبح.. ماذا؟.. موتا؟. أو كالموت!؟

وتحلم ليلى بالجنة.. والجنة مطلب لا يتحقق فى دنيانا.. والجنة لمن قالوا! لكن لا شئ يمكن أن يمنع أن تكون الجنة للأحياء.. أحلى حلم يراودهم! وفى الحلم ـ كما فى الموت ـ لا من يمنع هذا الحلم، من أن يصبح حياة خصبة، فيها دمعات وبسمات! وقفز نحو السحب الداكنة، ليطير الحالم فوق هضاب وسهول وناس تأكل اللحم البشرى! أو ناس، يعيشون على فاكهة الموسم والبحر أمامهم يرحب بهم، حتى لو تعروا من ملبسهم!

ونعم وفى الحلم ـ كما فى الموت ـ يجد الحالم نفسه يحكم كل الدنيا! وتتحقق رغباته، بمجرد خاطر يمر على ذهنه، ليصبح هذا الخاطر فى قدرة من يحلم.. كحمامة بيضاء، تنعم بنسمات ربيع دائم، ويملك كل خزائن مملوءة بالذهب. والماس، واللؤلؤ! ويفكر فى أكلة، فإذا المائدة أمامه مبسوطة، وعليها أنواع يعرفها النائم، وقد لا يعرفها، لكنه فى كل الأحوال، يستمتع بالاصناف المختلفة! ويلبس حريرا يتماوج فوق الصدر، أو الأفخاذ، أو فوق الاذرع، وهى تتألق بحركات لا تعرفها البشرية!

كذلك ففى الحلم ـ كما فى الموت ـ لا من يمنع أحدا من شئ يتمناه. حتى لو رفضه عرف الأحياء، اذا ما صحوا، وصحت معهم مقاييس اليقظة!! الحالم يقفز من فوق جبل، ويصعد إلى قمم الكون، ويرى حوله ما يحلو له، أو يتمناه، لمتاع بغير نهاية!

والحالم ـ كالميت ـ يحاصر أشرارا، بغير ضمير وبضرية من كفه، يرديهم! أو يدفنهم تحت تراب أسود!! وهو يسافر من أول دنياه الى آخرهم، فى لحظة، ويلاقى من يرغب فى رؤيته، أو يتمنى أن يحيا معه فى خلوة!

وكم من حالم، زرع الارض.. بالورد!

وكم من حالم، قطف ثمارا لفاكهة لم يذقها فى دنياه!

.. وقد ركب ـ فى الحلم ـ سيارة، تقطع المسافات، كبساط الريح! وقد يجد أمامه بئرا، أو منخفضا مملوءا بالأشواك، أو الحيات، فيجز على أضراسه من الخوف من المجهول، لكن القدرات عند الحالم، تعتمد على أخيلة لا أول لها ولا آخر! لهذا ينجو من أى شرك ينصب له!

ومرت ليلى طوال الليل. بعوالم مختلفة.

ورأت أباها . وتعرفت على قمساته، وألقت بنفسها بين ذراعيه، فلما أرادت تقبيله، اكتشفت أن أباها قد صار فتى من أقوى الفتيان، يطوقها بذراعيه، ويقبلها قبلات متصلة، بل ويمتص رحيقا حلوا من بين شفاه عطشى، وتتخدر ليلى من قبلاته، وتتمنى لو طالت هذه القبلات، لتملأ قلوب العشاق برحيق كالشهد، مخلوط "بالقشطة" مغموس فى السكر!

وتغمض ليلى عينيها، فإذا فتحت نافذة البصر، لتتمتع بجماله، وجدت شابا آخر، أقوى منه! وأكثر رغبة فى أن يعتصر أنوثتها، لتصبح أسيرته وحده!

ويدق جرس التليفون.. فترد عليه فى الحلم، لتجد الصوت، هو نفس الصوت، الذى أغفت بعد حديثه، وتعاتبه ليلى، وهو الآخر يعاتب ليلى، ويدور حوار بين الميت والحى.. أو بين الحالم واليقظان! لا الحالم يرغب فى أن يفيق من الحلم، ولا اليقظان يقدر على أن يتحول إلى حالم!!

وتشعر ليلى أنها ردت على المجنون، وهى فى عالمها السحرى، لكن المجنون، رد عليها ولسانه مغموس فى وحل الارض!

أفتصحو ليلى؟!

لينغمس لسانها هى الأخرى فى عفن الارض؟!

وكيف؟ ومن ذا يقبل أن يخرج من جنته هذى، إلى واقع مؤلم؟

لكن أفى الموت.. رنين جرس؟

أفى الموت، خطوط للتليفون؟

واذا كان الحلم ـ كالموت ـ فلا عليها إن ردت، ولا عليها كذلك إن أقفلت أذنيها، ليرن التليفون.. ويرن.. وما من جواب!!

وتصورت ليلى أن رنين الجرس هذا، قد يكون رنينا آخر!! ناقوس للاسعاف مثلا؟ أو ناقوس سيارات الأمن أو الحريق؟ أو رنين آخر؟!

.. تماما كذبابة تقتحم مكان الحالم لتداعب أنفه فيصحو ـ وهو الحالم ـ ليهش الذبابة عن أنفه أو أذنه، وتظل الذبابة مع ذلك فى إصرار دائم، تود أن توقظ هذا النائم؟

ويدور فى خاطر ليلى، أن الذبابة الملعونة..أو الناموسة العذراء! جزء من أحلام النائم! وليس على النائم أن يقطع أحلامه، بشئ من حلمه، يحاول إيقاظه..

ويمضى الخاطر فى هواجس ليلى يقول لها : لابد أن هذه الذبابة أو الناموسة، أو الهاموش، تدبير من شرير أو حاقد، استكثر أن يحيا كأسعد ما تحيا الفتيات فى أحلام النوم أو اليقظة..

.. لهذا ، فقد كان قرار ليلى حاسما ومؤكدا : ألا تسمح للأشرار بأن يتلفوا ما يسعدها وهى تمرح، فى أحلام عروس، لم يتحدد بعد موعد دخلتها!

وطال رنين مزعج، وليلى فى عالمها، تأكل أرزا مع الملائكة! كما تقول جميع الأمهات والجدات!

●●●

لكن الرنين الاحمق يتطور، فيصبح رنين جرس ملهوف ومتصل!!

أفهذا جرس الباب؟

وتلك الخبطات على الباب.. ماذا تعنى؟

إن تكن مؤامرة خسيسة، فلتظل فى أحلام شفافة، لا تسمع ولا تعطى أية فرصة لحقود!!

.. وظلت ليلى تحلم! وتسير فوق بساط أحمر تذهب به هنا وهناك، وتلاقى من تعرف ومن لا تعرف، وكل رجال الحلم البارع، أشداء، أقوياء، مفتولو العضلات! ومنهم.. لا.. لا يا ليلى!.. لكن لم لا.. بعض رجال الحلم، كانوا ـ من حرارة وجدهم بها ـ عراى!!

وخفضت ليلى نظرتها، حتى لايجرح، مشاعر أنثى كامنة فيها! لكن خفض النظرات شئ، واختلاس النظر الى المحظور، شئ آخر!!

وتمنت ليلى أن تقضى بقية عمرها، فى هذه الجنة..

ـ أفهى جنة؟

ـ هى أقرب إلى ما أعرف من جنة..

ـ ويخدعك خيالك؟

ـ بل يصدقنى..

ـ كيف وأنت ليلى.. شيخ الغفر كما قالوا عنك؟

ـ أنا يكفينى زمنا أحيا فيه سعيدة..

ـ وهل حياة الحلم هى مطلب أنثى؟

ـ... هى مطلب ليلى؟

ـ وليلى.. أنثى؟

ـ وأين الانثى فى ليلى، طوال الايام؟

ـ الايام ليست وحدها هى زمن الناس..

ـ وكيف إذاً تنظرين إلى زمن الناس..

ـ الزمن بلا أحلام، أتعس ما يحياه الناس..

ـ لكن الأحلام خيالات!

ـ وأجمل ما يحياه الانسان.. خيال واسع!

ـ لكن أمتع من هذا، واقع مقنع!

ـ ومن لا يقنع؟

ـ يصبح مسئولا عن مطامع لا تتحقق..

ـ لسنا فى قفص اتهام، والمحكمة منعقدة..

ـ كيف؟

ـ لانها داخل عقل الانسان ووجدانه..

ـ كالأحلام إذن!

ـ هه.. نعم..

ـ طالما سلمنا بالمبدأ، والتفصيلات لا تعنى شيئا..

ـ تعنى أشياء..

ـ ما هى؟

ـ يكفى أننا بسواها.. نفقد بعض حياة نرجوها..

ـ يا ليلى..!!

ـ يا من تستهدف، أن تفقد ليلى أهم ما ترغب فيه..

ـ أنا..؟

ـ هل أنت أنا؟..

ـ لا أفهم..

ـ أنا فقط.. أنا!!

ـ ومن أكون.. أنا؟

ـ أنت.. هو اسمك..

ـ تخريف!

ـ بل لطيف.. ومخدر!

●●●

وفتحت ليلى عينيها رغما عنها!

.. لقد كسروا باب المسكن، ليدخل "أنت" هذا، ومعه ناس، فيهم من يرتدى ملبس ضابط أو أمين للشرطة، وفيهم من يحمل حقيبته الصغيرة، وفيها سماعة، تتصنت على دقات القلب، وجهاز لقياس الضغط، ومجموعة من أدوية مختلفة..

ولماذا لم يتلطف ويتظرف، ليستخرج أعمق..

وصاحت ليلى :

ـ ما هذا؟ من أنتم؟

وقال لها "أنت"؟

ـ ساعة ونحن ندق على الباب، ولا فائدة!!

قالت ليلى مستنكرة :

ـ أفكنت..؟

قالت ليلى، وهى مكسورة الخاطر والقلب معا :

ـ وأنا التى ظننت صوت الباب، ورنين التليفون، جزءا من حلمى؟

ما أتعسنى!!

قال الضابط :

ـ تحلمين أنت، وننشغل نحن عليك؟!

قالت فى حيرة :

ـ "نحن" هذا وارد.. ما علينا!

ومضى الطبيب يؤدى عمله!!

وصبرت ليلى، وهى ترقب المعطف الأبيض والسماعة، والحيرة تبدو على وجه من أقبل ليعالجها، فصار هو نفسه، فى حاجة لعلاج، مما فوجئ به!!

لقد كانت ليلى تحفة!

كانت أجمل من أفروديت أو فينوس!

بل كانت أجمل، من أجمل من عرف التاريخ الفرعونى!

ـ من؟ نفرتيتى؟ بل الإلهة موت، وعلى شفتيها بسمة، أجمل من كل البسمات حتى الموناليزا، ومع ذلك فالإلهة موت

من حـجـر والموناليـزا مـرسـومـة بالزيت والألـوان على ورق، محاط بإطار..

كانت ليلى تشرد فى هذا كله، وتقول لنفسها فى صمت :

ـ جاء الرجل يعالجنى، فأصبح على أن أعالجه.. أنا؟!

وقالت ليلى تخاطب إله الطب المحدث هذا :

ـ ماذا وجدت عندى؟.. هل سأموت؟

أم أنك تنوى أن تحمينى من ملك الموت؟

وأخـذ الطبـيب، يبلع ريقـه، ثم.. يبلع ثم يعـود فـلا يجـد، حتى ريقـا يبلعـه! وبعـد عـذاب قـال، فى صـوت يتـأرجح على أرجوحة عجوز وعاقر :

ـ تمـوتين؟.. هـل أنت؟.. لا.. لا.. أنت حـيـاة خـصـبـة.. وموحية..

واستندت ليلى الى مسند مقعدها. وأشارت لـه ليقـترب منها، فأسـرع ليرمى بنفسـه بين ذراعيها ومـدت ليلى يدها الى جبينه، لتقول له:

ـ الله.. خسـارة!.. إنك تغلى! أفهذا مـا تسـمـونه فى علم الطب.. حمى؟!

ولم يستطع الطبيب أن يجيب!

فمدت يدها تشد المعطف الأبيض والسماعة، فلما صار الطبيب بغير المعطف، أصبح محتاجا الى من يكشف عليه، ليصف له العلاج الناجح..

ووقفت ليلى لتضع المعطف الابيض فوق ملابسها، وتترك السماعة تتدلى من حول الرقبة، وهى قطعة عاج تحمل هذا الرأس، وتربطها بسائر أجزاء الجسم..

وصاحت ليلى، تقول لمريضها :

ـ اجلس هنا، وأكشف صدرك..

وأخذت تفحصه، وتتسمع لنبضات قلبه، وتضع كفها فوق جبينه، وتقترب منه فيشم رائحة عطرها تملأ أنفه، فاذا ما ابتعدت عنه، تراخى وذبل، وبدأ يطلب من طبيبته الحسناء، أن تتقذه!!

وقالت ليلى لنفسها، وهى تبتسم :

أفكان ضـــــروريا أن ألبس هذا المعطف، وأن أترك السماعة تتدلى حول الرقبة، لأنتقل من مكان مريض، الى مكان طبيب، يستنجد به المرضى؟!

أفهذا ما تعلمه كليات الطب لطلبتها؟

ما أسهل يا ليلى، أن تصيرى طبيبة، يجل الناس مكانتها!

ما أسهل يا ليلى، أن ينتقل شخص من السجن، من مكان سجين، الى مكان السجان.

لان الناس يا ليلى طيبون وسذج! يرون الشمسية البيضاء تمر بحقول الناحية، فتصبح هذه الشمسية، مهندس رى يحكم مياه النيل، ويحدد مواعيد النوبات، ويحنى الفلاحون جباههم له!

الشمسية إذاً هى المهندس!.. والمعطف الأبيض، هو الطبيب!

لكنها عادت تستنكر هذا اللعب بالألفاظ! واللعب كذلك بمعانيها :

.. أفكل عمامة بيضاء لولى؟!

..أفكل رجل فوق حصان، خيال ممتاز وشجاع؟!

وبينما ليلى تمارس، وكانت المجموعة التى وفدت إليها، قد تركتها مع الطبيب ليفحصها..

وصاحت أصوات متداخلة من هنا وهناك :

ـ ماذا.. ما هذا؟ من فيكما هو الطبيب، وأين مريضه؟!

يا ليلى قولى لهم وفسرى هذا الموقف!

لكن ليلى لم تهتم، ولم يزعجها أن يتراص الناس كما يتراصون فى طابور الجمعية!

ومضت تقلب عينيها فى الرجل المريض، وقد غلب على أمره!

ومضت تشد ذراعيه، وتطالبه بأن يسعل! ثم لم تتوان عن شد جلد الوجه، وتوسيع فتحتى الأذن أو الأنف أو العينين!

ونظر الضابط، وهو حائر..

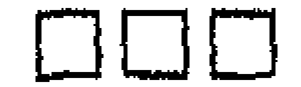
والتصق بمن بلغ عن الاشتباه، أن تكون ليلى قد ماتت، فلم تعد تسمع رنين التليفون، ولا جرس الباب، ولا الخبط العشوائى على خشبه، من فرط الخوف..

وهمس الضابط فى أذنه :

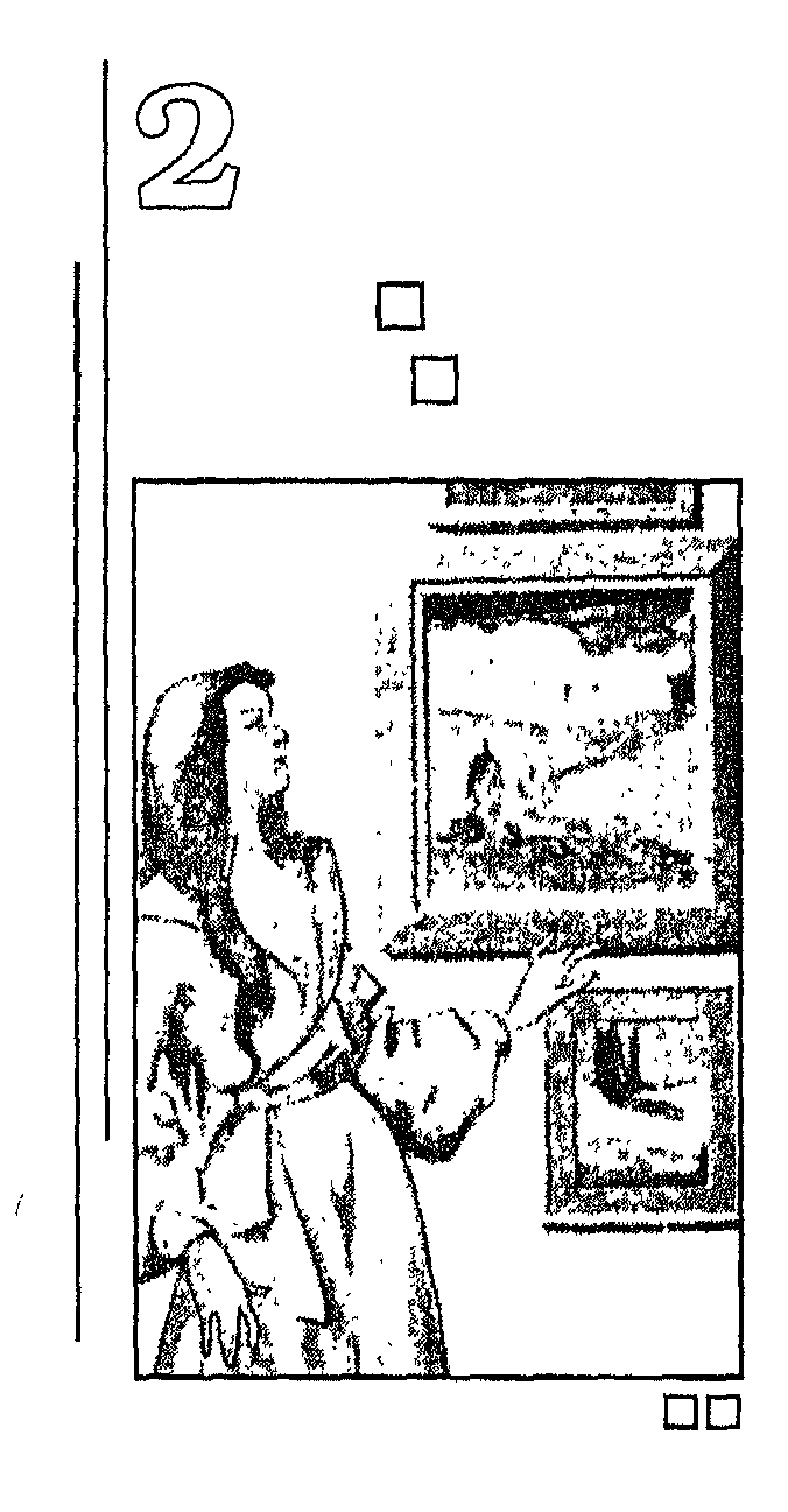
ـ أتفهم هذا الذى تراه؟.. وتفسيره؟!

ورد الرجل فى همس، كهمسه وهو الآخر يقرر عن نفسه.

ـ إنى مثلك؟ أطرش فى الزفة!



2



.. وأخذ الضابط وأمين الشرطة يتطلعان إلى المسكن، وكان فريدا، يتميز بالذوق والرقة والتعبير عن الإنسان..

●●●

وتنهد أمين الشرطة، وهو يقول للضابط : أين الجدران؟ إنى لا أعرف أن هناك بيتا بلا جدران!!

وضحك الضابط وهو يقول : الجدران غطتها لوحات تكاد من دقتها تنطق!

وأخذ - الضابط وأمين الشرطة - يدوران هنا وهناك، والإعجاب فى عيونهما ظاهر!

- أرأيت هذا اللون؟ آه.. تشعر بأنه لون يغرى يفتح شهية جائع!!

- وبل صدى عطشان!

- وهذه اللوحة.. لنجوم ترقص!

ـ وما أعجب ما هن عليه، من الرقة..

ـ أتلاحظ؟ كـان المنظر، يطل علينا من خلف سـتـارة شفافة.

ـ وهنا نجد الخطوات تتلاحق!

ـ من ذا صور هذا، لابد أنه شاعر!

ـ بل هو رسام..

ـ الشاعر أيضا رسام..

ـ.. أهو..؟ من إيطاليا أو من باريس عاصمة الفن؟

.. وفجأة ارتفع صوت حاسم، من شدة ثقته فيما يعلن. وكانت ليلى تقول بغير تردد :

ـ لا هو من إيطاليـا ولا من بارى، هو مـصـرى من بولاق يعبر عن تراب الأرض المصرية، والعشب الاخضر وأشجار الجميز، ولم ير أبدا الا أهله، وجيرانه، وأصدقاء أحبهم وأحبوه..

ووقف الضابط وأمين الشرطة.. يتطلعان، كل منهما نحو الآخر، ويتطلعان كلاهما إلى ليلى!.. ثم يعودان فيتطلعان

كلاهما نحو الجدران المكسوة بالفن، يتدفق فى قوة، وفى نفس الوقت، يحرك ما فى الانسان من الوجدان، من فرط الرقة..

شخصيات اللوحات هنا تتحرك.. أفهذا هو ما نسمع عنه، ويقولون لنا عنها، أنها صور تتحرك على شاشة سينما؟

وضحكت ليلى، وكانت عيناها تبرقان بأعلى ما تملك، من تقدير الفن، وحب الفنانين، بينما كان الضابط وأمين الشرطة صامتين، كأنهما فى المحراب!

●●●

ووجمت ليلى، والضابط يرجوها، أن تتفضل معه إلى قسم الشرطة، لأخذ بعض الأقوال، ثم حفظ المحضر :

ووجم الضابط، وهو يرقب وجوم ليلى! فما كان ليدرى ماذا يفعل، ولليلى نظرات، تخترق الصلب وتلينه!

ونطق الضابط، وألفاظه تخذله، فتنفرط كعقد قطعوا حبله :

ـ هيه.. يعنى.. دول كلمتين والسلام.. هه.. إيه؟ بتضايقك إجراءات البوليس؟!

ولم تردا ليلى لم تردا لكنها فتحت باب المسكن، وتقدمت الركب الى قسم الشرطة..

وقبل أن تغادر قسم الشرطة، قال لها أمين الشرطة :

- من الرسام البارع الذى ملأ حياتك فنا وجمالا..؟

لقد حول مسكنك الى جنة..

وقالت ليلى وهى ترفع قامتها فى إشراقة من تعتز :

- هذا الفنان.. أبى..

وقال الضابط :

- أبوك! أحقا..؟ وهل لا يزال ينتج هذا الفن الرائع؟

قالت ليلى فى صوت يتحشرج كلوح زجاج مشروخ :

- لم يعد قادرا على أن ينتج..

قال الضابط :

- خسارة.. خسارة للفن ولنا ولك.. بل ولحركة الابداع فى كل الدنيا..

قالت ليلى :

- هى بالفعل خسارة.. كبرى..

قال الضابط :

ـ هل تقاعد مثلا؟

قالت ليلى :

ـ ولماذا يتقاعد؟ إن الفنان بطبعه يرفض أن يتقاعد! أو تعرف؟ للشيخوخة تعبير تنفرد به، ولمرحلة الشباب أسلوب يميزها.. فكيف الفنان إذن يتقاعد؟ ثم.. يتقاعد عم؟ عن التعبير عن نفسه، وخفاياه، بين ضلوعه؟ أفيخون الفنان ملكاته؟! أو قدراته؟ إنه لا يقبل.. أبدا لا يقبل..

وقال الضابط فى رجاء من يرغب فى أن يعرف :

ـ إذن لماذا لا ينتج؟ لماذا يقف عن التعبير؟

قالت ليلى وعيناها فى قدميها :

ـ لأنه مات!

وهبطت عيون المستمعين لليلى تتخفى عن نظرات الإبنة..! فى أرض الحجرة! أو بين الاقدام من قسوة ما قالت ليلى!

●●●

وعادت ليلى إلى الجنة! أفلم يصفوا مسكنها بأنه.. جنة؟

وأخذت ليلى تدور بين اللوحات، وتطيل النظر إليها، وكأنما تراها لأول مرة!

ورددت ليلى ما روته أمها عما كان يقوله والدها.

ـ الروعة فى الفن، إنه يمثل قيمة فنية، لا تفقد جدتها بمرور الوقت! فأنت تراه، حين تراه، وكأنما تراه، لأول مرة.

ـ والقيمة فى الفن، أنه قادر على السيطرة على الناس، بمعان مختلفة، تراه حين تجوع، فتشبع! تراه عند الشبع، دواء يهضم ما تأكل!

ـ فى الصبح له طعم ومذاق، وعند الظهر، يتغير، بمثل ما يتغير الجو فى بيتك! وفى الليل، تحت النور الساطع، يختلف عنه إذا سلط عليه نور خافت، أو أخفت بعضه ظلال، قد تأخذ منه، أو تضيف إليه، حسب الأنوار والألوان، ومزاجك نفسه!

ـ ينحرف مزاجك، فينحرف تذوقك لفن تهواه، ولا يعنى هذا أن الفن يضايق حسك، فالفن إن لم يصبح دواء النفس، فلن يكون أبدا هو الداء، أو عونا للداء عليك!

ولكم عـايش بعض الناس الفن، فـرأوه والعـمـر يمـر بهم، كأنما هو ورق نتيجة، تحـصر أيام العام، وتسقط منها مع كل يوم ورقة، لكن سقوط الأوراق، لا يختصر حياة الناس، ولا يؤثر فيها.

- وحـيـاة الناس بالفن، تتـأثر بمضى الايام، لكن الفن يضمد جروح الشيخوخة.. فيظل لحياة الإنسان طعم، يتطور مع مرور الايام، فتخف القسوة من كبر السن، ويموت الميت، وقد كسب حياة أخرى، لا يمكن أن تحصر. فحياة الانسان بعمره غيب لا يعرفه غير الله، لكن حياته بالفن، فهى إضافة ما يتذوقه الناس من لا يبلى!

وأغمضت ليلى عينيها، لتعيش مع ماضيها.

لقد هبطت إلى الدنيا، يتيمة الأب، لكن عوض عنها اليتم، ما خلفه الوالد من أعمال ملأت حياة الناس بالبهجة، أو بالحزن، كل بسبب.

وكانت أم ليلى هى الحلقة التى ربطت ماضيها بالحاضر، بحكم معايشتها للزوج الفنان، وأمومتها لليلى.

●●●

وتذكر أم ليلى عن والد ليلى، أنه كان شديد الاحساس بأن حياته صارت معدودة!! ولولا ما كان يعرفه أن جنينا من صلبه، يتأهب لهبوط فوق الأرض.. لولا هذا لمات، بلا إنجاب!

لكن وجود جنين فى الطريق إليه، أعطاه بعضا من أمل.. فمن ذا يدرى، ماذا سيكون الجنين يتكون!!

أن يكن الجنين ولدا، فقد راهن نفسه، أنه سيصبح امتدادا له على وجه الارض.. فان تك أنثى، فلا ضير! الفن كذلك ينضج فى الأنثى.

لكن أبا ليلى، كان يساوره الشك فى أن يعيش ليصبح أبا لصبى أو لصبية.

وليلى تزعم أنها ـ وهى بعد جنين ـ كانت تتسمع كل حوار بين الأم والزوج الفنان! ولم تك قد ألفت بعد لغة الأحياء من الناس. لكنها تتصور أن الأصوات كانت ترتفع فى أذنيها، بغير دلالات تؤكد معناها.

وتشرد ليلى فى الانسان وقدراته! كيف بدأ يفهم ألفاظ الناس. ومن ذا شكل لغة لكل فريق من خلق الله؟! أليست اللغة صوتا أو مجموعة أصوات، فيها الجاف.. وفيها اللين؟

وهل كانت تلك الأصوات هى الأصل، وصار على الانسان أن يلبسها معانيها؟ هل الصوت سبق؟ المعنى قد كان أسبق؟

وكيف اقتحم المعنى الأصوات، لتصبح الأصوات بمعانيها ذات دلالات؟ بقواعدها وقوانينها؟

ذلك.. لأن المعنى بلا صوت، أخرس!!

والصوت بلا معنى، صراخ مجنون!! أو همس لا يفهم!

إنما اللغة هى الصوت مقترنا بمعنى الصوت!!

واللغة ـ إلى جوار ذلك ـ شكل يتفق الناس عليه، ليحدد الصوت معناه، بالرسم..

أليست الكتابة رسما؟! فقد الصفة الفنية فيه، بالتكرار وشمول العلم به؟ حتى للأطفال الرضع فهو رسم، يصعب أن يتسع لفنان موهوب ليجعله فنا، إلا فى النادر.

أما القاعدة فى هذا النوع من الفن، فهى شيوعه بمختلف الصور، وبين مختلف جماعات من الناس، وهنا يقف الفرق بين الفن والتدوين. الفن ينفرد بشخصية تميزه! أما التدوين، فهو أنماط تتكرر، وقد تخرج سيئة لا تقرأ.

●●●

وذكرت ليلى عن والدها أنه كان يؤكد، كما قالت أم ليلى لليلى أن الانسان غير الفنان، يموت يوم يموت ويدفن! أما الإنسان الفنان، فهو يبقى فيما ينتج! يدفن جسده، لكن لا تدفن أعماله، ويقدر ما فى فنه من قيم لا تبلى، ليعيش بين الأحياء، أطول مما يعيش الأحياء أنفسهم!

من قبل التاريخ، أعمال يحفظها تاريخ الفن، ويدرسها تلاميذ الفن.

وعلى امتداد العصور التاريخية، نجد ألوانا فنية، تبهر أجيالا تتعاقب، وقد يبلى اسم الفنان نفسه، أو ترغمه السلطات على أن يترك عمله بلا توقيع، فلا ينافس عباقرة الحكم، لأنهم وحدهم هم السادة وعباقرة الحرب والسلم، والفن كذلك.

وكانت أم ليلى تقول ليلى : لقد كان أبوك يا بنتى يطرب حين يوغل فى مدارس الفن المختلفة! فى زمن قديم ولى وفيه كان على الفنان أن يقترب الى ملكيه ومولاه بالفن، وكان عليه أن يضع الملك فوق الناس، قويا مفتول العضلات، لا يعرف الهزال طريقا له وملامح وجهه يجب أن تجذب عذارى الأمة، ليحلمن بالملك القوى الجميل الطلعة، فاذا ما

اختار واحدة منهن، لتصبح زوجته أو محظيته، لم تسعها ساعتها دنيا!!

ويكون الملك الفرعون هزيلا، أو معتل الصحة، ومع ذلك فتماثليه وصوره، عليها أن تعالج تأثير الزمن عليه، ليبدو أكثر أبناء الدولة شبابا وقوة، وقدرة.

وكان أبوك يا ليلى يستحسن ألا يشوه اسم الفنان، وكفاه أنه قد شوه عقله!! وقبل التزوير بالفن، ليمسح آثار الشيخوخة والعلة على الحاكم!

وكان يا بنتى يقول لنفسه ولى، أنه كان يتمنى، لولا هذا الاستهتار بعقول الناس، أن يعيش فى عصور فنية ممتازة، إذن لأبدع وأجاد، لكن هل يمكن أن يسخر من الناس، فيعطيهم سلعة لا فنا؟!

قالت ليلى لأمها، وهما تجلسان فى دفء الشمس، فلا طوبة ولا أمشير، يبطل هذا الدفء، فيلتحف الناس أثقل ما عندهم من ملبس! وقد لا ينفع!

وكانت ليلى طفلة.. لكنها كانت طفلة عجوزا!!

أفلم يبدأ عمرها وهى جنين؟!

أفلا تزعم أنها كانت تتلصص على أبيها الفنان، وأمها المكدودة، من كثرة ما تبذل فى البيت من أعمال، تستهدف منها أن يتوفر للفنان ما يطلبه، حتى قبل أن يطلبه؟

ثم هى فنانة.. بالقوة، لا بالفعل! ويتيح لها هذا أن تشتغل بالفن، دون أن تذهب فى قنواته، عمرا يضيع عليها!! بينما تدور حياتها دورات تتكرر فى اليقظة وفى الاحلام. وهى لا تحتاج لتحلم، أن تنزل فى فندق فاخر، فالحلم لا يتطلب هذا. وبسطاء الناس قد يحلمون وهم ينامون فى الجرن، أمام حصاد القمح، أو جمع القطن، فاذا تصادف أن نزلوا فى أحلى أو أغلى فندق صار الحلم كابوسا، لأن الكابوس ـ كالحلم ـ لا يستأذن! يقتحم على الناس غفوتهم أو رقدتهم، وهم يعيشون حياتهم الأخرى، متجردين من قيود العقل أو القلب أو الوجدان، لتصير حياتهم مضاعفة، دون تضاعف زمنهم الموقوت أو منقوصة بالكابوس وراء الكابوس، فتبدو هذه الحياة الاخرى، بعض معالم حياتهم الاولى.

وتسأل ليلى أمها، وقد أسندت رأسها الى ساقيها.

ـ لكن كيف مات أبى يا أماه؟.. هل كان عليلا؟ وهل أمراض العصر قد اخترقت صدره، أو نفذت إلى القلب؟

قالت أم ليلى لليلى :

ـ ما زلت صغيرة يا ليلى.

لكن ليلى لم تستسلم :

ـ أهنالك سر يا أماه؟ هل قتل أبى مثلا؟ هل غرق؟

وتجيب أم ليلى بأن المسألة تحتاج لشرح سيطول على وعليك، وسأحكى لك كل القصة، عندما أتبين أنك قادرة على استيعابها، وتبين ما فيها من عبر يا ليلى.

ونظرت ليلى، تستجدى أم ليلى، أن تطفئ نار الشغف والفضول فى قلبها بحكاية والدها.

كيف مات أبى يا أماه!

لقد قلت لى مرة، أنه لم يمرض أبدا!

إذن لا علة يا أماه!! ومع ذلك مات وهو سيد سادة فنون الارض فى كل زمان ومكان.

ـ كان مصورا ممتازا يا أماه، وكانت ريشته وألوانه، معجزة فنية بكل مقاييس الإعجاز.. فكيف اذن مات؟ ستقولين عنى أنى جننت، لأن العالم، ليس حياة كله، ولا هو

موتا كله، لكن له وجهين!! بدونهما مجتمعين، يفقد هذا العالم نصف كيانه.

وأخذت ليلى تقبل أم ليلى، فى وجنتيها، وتقبل أيضا كفيها وتتمنى لو باحت لها بما تعرفه عن مقتل والدها.

وبادلت أم ليلى، ليلى قبلة بقبلة، فتراخت ليلى، ثم غفت لتحلم أو لتضاعف عمرا، دون تضاعف سنواته..

ولم تتحرك أم ليلى، لتتيح لليلى أكبر قدر من الراحة والاسترخاء.

لكنها سمعتها تكلم نفسها، وهى تحلم!!

وعادت أم ليلى لتصحح ما قالته، وهى تحلم!! لأن الحالم لايكلم فى العادة نفسه، فالشخوص من حوله، كثر بغير عدد! وحديث النفس، هو تفسير اليقظان لما يسمعه، أما الحالم، فهو نائم. والنائم ميت، وحواره مع أفراد من عالمه الواسع، لا يعرفهم وهو يقظان.

لكن حديث ليلى وهى تحلم، بدا لام ليلى، أنه حديث أكبر منها.

●●●

قالت ليلى :

ـ لكن ماذا كان المجرم يقصد؟

ثم أجابت ليلى.. ليلى :

ـ كان يعنى أن يتخلص منه.

ـ ولماذا؟.. لماذا الناس هكذا.. صرعى؟

ـ صرعى ماذا؟

ـ صرعى الحقد ومرارة غل يأكل صدر المغلول!

ـ استر يا رب! ابعد شر عبيدك!

ـ عبيدى!! عبيدى ليسوا أشرارا يأكلهم صرع الغل أو صرع الحقد.

ـ لكنك يا ربى أقدر على وقف الاحقاد.

يا ربى!.. قتلوا أبى يا ربى! ونقلوه بالقتال الى ساحة عدلك.

لكنى فى الدنيا.. وحدى! أعيش حياتى كل حياتى وحدى؟

وذئاب الغاب يا ربى؟.. الا يتربصون لواحدة مثلى.. لاذهب كما ذهب أبى؟!

اعرف يا ربى أن أبى قد دفع حياته، ليفتدى فنه..

- ويفتدى صدقه يا ليلى! حساده قد قتلوه لعجزهم عن أن يكونوا مثله!

- الصبر على هفوات النفس نعمة، يحسد صاحبها من لا يملكها..

- والقادر على محن الايام، أقوى من الايام..

- ولهذا يصبح هدفا لكل ضعيف متخاذل..

●●●

ومضت ليلى تتحاور مع.. من؟ مع ليلى!

وعجبت أم ليلى من ليلاها . والحلم قد كشف أنها أكبر من أية مأساة.. لكن الأم خشيت عليها من هذا الحوار، فقد تكبر وتشيخ من عمق حوار ليلى مع ليلى..

وتقول أم ليلى لنفسها :

أفيكبر الناس، نياما؟! أم أن النوم أجازة يتجمد فيها عمر الحالم، حتى يستيقظ..

- ويكبر فى الحلم؟

ـ طالما أن الحلم حياة.. يكبر..

ـ وبلا أكل أو شرب يكبر؟

ـ الأكل والشرب ليسا وحدهما سببا للشيخوخة!

وقالت أم ليلى لليلى وهى توقظها..

ـ ليلى.. أفيقى من نومك ومن أحلامك..

ليلى.. وسأحكى لك. كيف مات أبوك..

●●●

وقفزت ليلى من حضن الأم، لتواجهها وتصبح قدرتها على السمع أكبر..

وأخذت أم ليلى تروى لليلى، أن أباها ما كان ليستسلم أمام عصابات تتخذ من الفن تجارة! تزيف. وتزيف، حتى يصبح عدم التزييف هو الأمر الشاذ! أما التزييف، فسيصبح هو.. القاعدة يا ليلى.. وهزت ليلى رأسها الصغيرة، وهى تسمع!.. ثم قالت ليلى لأم ليلى :

ـ حتى الفن قد صار تجارة؟ هل تتكون عصابات تتجر فى الفن يا أمى؟ وهل يلجأ أفراد العصابات، لما يلجأ إليه

لصوص محترفون.. يستبيحون القتل.. وشرب دم الفنان، وهو برئ.. صادق؟ وكيف يكون الفن وسيلة كل الناس، ليرتفعوا عن واقعهم، إلى عالم آخر، يهبط بالنفس إلى أحط غرائزها؟! كيف يصبح الدواء هو الداء يا أمى ؟ ومشرط جراح متمكن.. هل يصبح هو الآخر خنجرا يذبح به الأحياء، برغم الصحة، ليصبحوا ماذا..؟ قتلى!! أو شهداء؟! وهل يحيا الشهداء، فى عالم يختلف عن عالم قتلى الثأر، أو الغش أو تزييف الفن..؟

قالت أم ليلى.. لليلى :

ـ يا بنتى.. صبرك.. اسمعينى، إن لكل شئ وجهين.. حتى لو أن هذا الشئ فضيلة.. وواحد من الوجهين نضر ومشرق وعظيم، أما الوجه الآخر، فهو ملون بلون الدم، وجزاروه، لا يهتمون الا بالكسب، والنهب وتكوين الثروات بالباطل..

وصاحت ليلى تواجه هذا المنطق :

ـ إنى أدرك يا أمى أن الآلة قد تستعمل لشئ يتناقض مع غايتها!! يصلح لاقامة صناعات شتى، تخدم حاجة إنسان

يتمتع بثمراته، لكن الحديد نفسه، يتحول فى يد مجرم إلى مدفع أو دبابة، أو طلقات تهدد أمن الناس، وتغرس فيهم خوفا بغير نهاية.. لكنى يا أمى لا أتصور أن يصبح شعر الشاعر سلعة! ولوحات الفنان، وهى مصنوعة لترقى بأخيلة الناس، أهى أيضا تهوى إلى القاع، لتصبح نقمة؟ بينما قصد الفنان أن تؤدى دور النعمة.. تريح النفس، وتجدد شباب المرهق؟ وتزود حتى الأطفال بأمل واسع وعريض؟

قالت أم ليلى.. لليلى :

ـ لم تصبرى على يا بنتى.. إن أروج تجارة فى هذا العالم هى تجارة التاريخ.. والذين يبيعون العاديات هم أغنى التجار فليست للتاريخ أو العاديات تسعيرة! ثم ما مصدرها قطع التاريخ والعاديات المعروضة؟

من أين تأتى قطع التاريخ؟ إنها قطع لا صاحب لها!!

إن الزمن هو وحده صاحبها! والزمن يمر، فيرتفع ثمن السلعة لطول ما عاشته مدفوعة، لا تراها الأنظار! ثم من ذا يملك زمنا ليحرسه وليحميه؟ إن الزمن يمتلك وجدان الناس، وخيالها الخصب، لكن الناس لا تملك إلا الزمن الذى

تحيا فيه، ومع ذلك فان الزمن الراهن قد يسفر عن بعض الأعمال ذات الصيت! ويتميز فيه إنتاج العصر، بقيم تمتد من جيل أبدعها، إلى أجيال تتلقاها.. لتبهرها! وتجار التاريخ، هم تجار زمن ولى، أو زمن راهن!.. وتجارة أخيلة الناس، هى أيضا مما يعنيهم، ليحقق لهم الكسب أو المنفعة، فتتقل الأعمال الفنية، من هنا لهناك، أو من هناك لهنا، لتحقق مع كل نقلة، أرباحا لا تحصى.. ألا يتجر بعض الناس فى الدم؟!

وهبت ليلى تصرخ :

ـ تقولين الدم؟ يتجرون فى الدم؟! ما هذا يا أماه؟!

ـ تعجبين! لكنها حقيقة.. فالتجار أذكى من أن يتخلفوا عن ركب العلم! فاذا علموا أن الطب تقدم، وأن لدماء الناس فصائل مختلفة، وأن بعض اصابات الناس، تستهلك منهم ما يجرى فى عروقهم من دم، وأن وسيلة الطب ليتغلب على ما فقد المصاب من دم سال، حتى أصبح على حافة الهلاك، أن يعطوه من دم يتفق وفصيلة دمه المهدر! عندئذ تتكون للدم بنوك، ويضطر المحتاج لبيع دمه! لتمتد أعمار مهددة بالموت!

قالت ليلى :

ـ هذا يا أماه إذن، عمل إنسانى.

قالت أم ليلى :

ـ عندى وعندك تعتبر بنوك الدم، بنوكا انسانية، لكن لا من باع دمه قد فكر فى إنسان ينقذه، ولا من جمع الدم، قد جمعه لإنقاذ المحتاج.. إنما هى تجاة.. تجارة!! ودماء الناس فى بنك الدم رصيد كرصيد البنك، يكسب، وبقدر إصابات الناس، يصبح هذا الدم، تلا من الأموال، تزيد ولا تنقص، والمساكين الذين باعوا دمهم، محتاجون إلى العيش، ولو فى أدنى مستوياته!!

●●●

وأخذت ليلى تفكر فى هذا العالم!.. أهو شرير إلى هذا الحد؟ وهل ناسه من الأشرار، السفاحين؟ وتجارته وأرباحه، تتحدد من واقع كل زمان، وتساير كل خطى حققها العلم أو الفن أو كلمات الشعراء؟! ورأت أنها تدور فى حلقة فرغوها من عناصر الجمال، وزيفوها، ليستغلوا الموقف لصالحهم ، ولا أكثر!! وطالما أن هدفهم الربح، فكل التفصيلات تهون، وتؤدى كل الطرق.. إلى روما!

لكن ليلى كانت تريد أن تقف على مصرع والدها الفنان المبدع، وترى أن مناقشتها مع أمها ـ وهى أرمل ـ قد شعبت آثام العالم، فلم تعد ليلى أمام موضوع واحد، تناقشه.. لتفهمه!

العلم صار تجارة، وثمرات العلم، قد بدأت للإنسان وصالحه، ثم انقلبت على عقبيها، لتصبح شرا يشوه حتى العلم!

والحرية ـ حتى الحرية! ـ خضعت لما خضع له العلم! وخيال الناس زوره الأشرار ليصبح أداة من أدوات التخريب.

وحتى الدم.. قد صار بدوره سلعة تباع وتشترى!

وأبوك يا ليلى، قد دفع حياته، ثمنا للشر وللأشرار ولتجار بضاعتهم الفضائل والقيم والاخلاق واستغلال الخير والرحمة، بحساب الخسائر والارباح.

لكن كيف ذهب؟ ومن ذا قتله؟

قولى يا أمى، كيف ذهب أبى الى عالم آخر؟ ستقولين أن عمر أبيك ممتد، بامتداد ما أبدع من أعمال!! لكنى ـ مع ذلك ـ أريد أن أعرف!

قالت أم ليلى.. لليلى :

ـ لقد أقنعوا أباك يا ليلى، أن يطوف بأعماله عواصم العالم، ليعرض ما أعطاه الله من موهبة، فى دنيا تدرك ما أنتجه الفنان المارد.. وذهب أبوك فى رحلة متشعبة الاتجاهات، ليعرض فنه على عشاق الفن، وغزا بإنتاجه عقول الناس، وملأ أخيلة المجتمعات، بمفهوم رائع عن فنه، وهو كما قال ـ مقياس لا يخطئ لحضارة هذا الوادى.

وفجأة كشف مؤامرة تستهدفه هو نفسه! طلبوا أن يبيع ما أبدعه من الفن، لتجار الفن.. وهيأوا له فرصا مختلفة ليتحدث عن عمله ويناقش نقاد الفن، ولينشر فى أكبر صحف الدنيا، أن انتاج المارد ، هو أبدع ما شهد العصر من انتاج الفن! لكن أباك يا ليلى، لم يقبل أن تصبح لوحاته، كعلب السردين الممتاز، أو حتى كالكافيار!! فقد كان أبوك يا ليلى نقيا وشريفا، وقانعا بحياته، وما هيأه الله له من رزق. ورد على التجار، أن فنه هذا لا يعرض ليباع، وأن على من يقدم له هذا العرض، أن يأتى الى مرسمه فى بلده، فقد تعرضه بلاده فى متاحفها الفنية، ليضاف الى تراث الانسان، فى بلاده وهى معشوقته بغير منافس.

وسألت ليلى أم ليلى :

ـ وأنت وأنا .. ألم يكن يعشقنا .

وأجابت أم ليلى .. ليلى :

ـ أنت كنت جنينا فى بطنى، وكان يحبك وينتظرك، كنا ـ أنا وأنت ـ جزءا من معشوقته الكبرى، وهى أرض بلاده.

ثم مضت أم ليلى تروى لليلى :

ـ لقد عاد أبوك يا ليلى بمعرضه الرائع الى أرض بلاده، وكانت معه أعداد كثيرة .. كثيرة جدا، من أقوال النقاد وأساتذة الفن، كذلك حمل معه وهو عائد أفلاما صورت كل نجاح حققه .. وكان يظن أن كل شئ فى بلده، سيرقص فرحا بنجاحه، فقد رفع هناك اسم الفن فى بلده، ولم يقبل أن يفرط فيه . وعندما سألته عما عرضوه عليه من أثمان قال فى رفض قاطع، إن أموال سليمان لا تساوى خطا خطه، مستوحى من نسمات بلاده، ومن نهر النيل يجرى بالخير بين أراضيها، ومن بسمات الاطفال السذج فى طرقات القرية .

ولما حاولت يا بنتى أن أثنيه عما اعتزم عليه صاح يقول فى عصبية : إن هذا الفن يا زوجة روحى، هو علم بلادى!

أفيبيع العلم المصرى بأى ثمن؟ أفيرضينى أن أثرى، على حساب الفن الذى أنتجه؟ وقلت له أن كل الفنانين يبيعون انتاجهم الفنى، فصاح يقول: ومن يدرى ماذا يصبح فى غد! كثيرون باعوا قطع الآثار فصارت هذه القطع بندرتها، فى متاحف كل الدنيا ثروة، يمتز بها الناس. وأنا لا أرضى أن أفعل مثلما فعل تجار التاريخ، وقلت له يا بنتى أنه إن يفعل ذلك فمن أجلك.. ليؤمن مستقبلك بمال تعود عليك ثماره.. وهز أبوك رأسه وهو يقول : لا يمكن لمولود من صلبى أن يختلف معى فى تقدير الفن، وحمايته من التجار، فهو كما قلت لك علم يرفرف فوق صوارينا.

ومضى أبوك يا ليلى ينتظر تقدير النقاد الوطنيين لأعماله، لكن أحدا لم يتحرك، أو يتقدم له بتحية. وظن أن لا كرامة للإنسان فى بلده. لكنه اكتشف يا ليلى أن تجار الفن، أو كما قال المسكين عصابات الفن، ضربت حوله نطاقا من الصمت والإهمال، لييأس! فلما صمد وتأبى، بدأت هذه العصابات تدبر مصرعه يا ليلى.

وصاحت ليلى تسأل :

ـ أفقتلوه؟

قالت أم ليلى لليلى :

- نعم قتلوه، لا برصاص، ولكن بقهر الفنان من داخل نفسه! قتلوه بالصمت وبالحرمان! قتلوه بالصدمة!

قالت ليلى :

- وسكت أبى، وهم يتآمرون عليه؟

قالت أم ليلى.. لليلى :

- فقد سكينته يا بنتى ، وصحا من نومه يوما مفزوعا، وانتهز ظلام الليل، ليفتك بلوحاته.. أرادوا قتل أعمال أنتجها، فأراد هو ألا يتم مقتل قطعة فن أبدعها الا بارادته هو.. وكان يقول أنا صاحبها، ولى وحدى حق التصرف فيما أبدعت.

لكنى يا بنتى استيقظت، فمنعته.

وكان يصيح، وأنا أبكى!

وكان يثور، وأنا أشهق من فرط بكائى.

وقلت له، إنك بهذا يا فنان العصر، تقتل نفسك!! إن هذا الذى صنعته، لم يعد ملكا لك. هو ملك التاريخ.. يا زوجى!!

وارتمى الرجل محموما، وأخذت قسماته تهتز، ونبراته تتهدج وخطوه يثقل عن حمله.

وعاد التجار يا بنتى! وعصابات الفن أخذت تساوم الرجل المنهار. وقد ظنوا أنه قد فقد مقاومته.

لكنه ـ بدلا من التسليم ـ قاوم، وثار، وطردهم ككلاب مسعورة.

●●●

ولن أنسى يا ليلى حواره مع أمك.

ـ إنك يا زوجى تتمسك بالازمة..

ـ بل إنى أرفض أزمة.. أكبر!

ـ يا سيد فنانى عصرك.. ترفق!

ـ يا زوجة فنان العصر.. افهمى زوجك.

ـ أحاول جهدى يا زوجى.

ـ أتريديننى أن أفرط فى إنتاجى؟

ـ لا.. لا تفريط. لكن تتعامل مثل الناس.

ـ.. من الفنانين أو التجار؟

ـ الفنانون يا زوجى ناس..

ـ والفنان لا يصدر وحى بلاده، إلى غير بلاده.

ـ أفهذا حكر يا زوجى؟

ـ أبدا.. لكنها المسئولية عما أنتج.

ـ سيتآمرون عليك.

ـ.. أعلى ميت، يكون تآمرهم؟

ـ إنك حى يا زوجى، وستعيش لفنك.

ـ أشعر أنى ميت يا حبة عينى.

ـ بل تعيش، لترعى من فى بطنى.

ـ هى أنثى.. سميها ليلى، من أجلى.

ـ فان يكن صبيا يا زوجى.

ـ أنى أشعر بأنها أنثى.

ـ لا يعرف ذلك إلا الله.

ـ ولقد صرت قريبا منه سبحانه.

ـ وهب هذا.. أتشاركه علم الغيب.

ـ سبحانه.. بغير شريك.

ـ إذن فشعورك وهم.

ـ صدقينى إنى ميت، ولست بنادم.

ـ وتتركنا..؟

ـ هل يترك الميت أقرب الناس إليه؟

ـ وأبعدهم.. أيضا!

ـ أبدا.. وسأعيش معك وليلى، روحا، بلا مادة.

ـ لكنا لن نراك يا زوجى.

ـ سترينني فى ليلى.

ـ ومن أدراك أن ابنتك ستكون على شاكلتك.. فنانة.

ـ أنا لا أريدها فنانة يا روح زوجك.

ـ إذن..؟

ـ أريدها أن تعمل فى دنيا الفن، لتكشف عصابات الفن، وتقاوم الزيف والتدليس، باسم الفن.

ـ.. كيف يا زوجى؟

ـ ثقى فيها ودعيها تعمل ما أتمناه.

ـ وأعمالك..؟

ـ هى طوع إرادتها، وستصون إنتاج أبيها.

ـ تصونه.. مم؟

ـ من عصابات الفن.

ـ انى أسمع منك ألفاظا لا أدرى معناها.

ـ... وتتصورين أنى مجنون؟

ـ عفوا.. لكن.

ـ.. ويصعب عليك أن تصدقى أى كلام عن عصابات الفن؟

ـ نعم يا زوجى.. هذا شئ يصعب على فهمه.

ـ.. انى سأسلم روحى لله، وليس عليك يا زوجى، الا أن تبلغى رسالة فنان العصر، إن كنت لا تزالين تضعيننى فى هذا الموقع إسرافا فى حبى.. فبلغيها الى بنتى.

ـ أو ابنتك.

ـ.. صدقينى ستكون أنثى..

ـ والأنثى يا زوجى ضعيفة. أمام غابة، يتصارع فيها أسود ونمور.

ـ لكن فئران الغابة، قد يهزمون أسودا مفترسة.

ـ فئران الغابة!!

ـ على أن ليلى لن تكون واحدة من فئران الغابة، وأنا أبالغ لاطمئنك عليها.

ـ لكنا نحتاج إليك.

ـ حين يؤدى الفنان رسالته، فموته يصبح أجدى.

ـ لمن..؟ لمن أجدى؟

ـ للفنان وللإنسانية، ولك.. ولليلى.

ـ لا يا زوجى، سنحتاج إليك، لتحمينى، ولتحمى بنتك!

ـ الله هو الحامى يا زوجى.

●●●

وتمضى الأيام يا بنتى، وأبوك يقترب من الموت، فى كل دقيقة.. فقد السمع، وكاد يفقد القدرة على أن ينطق، لكن بريق عينيه، لم يذهب عن بصره..

وفى يوم صحا الرجل المسكين، وهو ثائر.

وأخذ ينادينى، ثم طلب أن أسنده، لأطوف به جنبات البيت.. هذا البيت نفسه يا بنتى.

وصاح أبوك يشير إلى لوحة من لوحاته.

وطلب إلى أن أدقق فيها.

ولم أفهم! ولا هو ـ فى حالته تلك ـ قد بيّن.

لكنه أصر على أن أدرس وأحلل، لأصل إلى فهم المسكين.

وبعد تأمل فى كل زاوية من زوايا اللوحة، أدركت ما كان يريد! اللوحة يا بنتى كانت زيفا!!

وسألت ليلى :

ـ كيف كانت زيفا؟! أفبدلوا لوحة أبى، بلوحة أخرى يا أمى؟

قالت أم ليلى لليلى :

ـ وكانت اللوحة فى نفس مقاس اللوحة!

قالت ليلى :

ـ وبنفس الألوان؟

قالت أم ليلى :

ـ وبنفس الألوان يا ليلى.

قالت ليلى :

ـ وبنفس التعبير؟

قالت أم ليلى :

ـ بفرق واسع وعريض..

قالت ليلى :

ـ ماذا كان الفرق؟

قالت أم ليلى :

ـ اختفى الأصل، ووضعوا فى نفس المكان صورة!!

قالت ليلى :

ـ هذا إجرام.. إجرام.!

قالت أم ليلى :

ـ والأدهى يا بنتى. لم تكن تلك اللوحة هى اللوحة الوحيدة. لقد مضى أبوك، يأمرنى لأدور به فى جنبات البيت، ليشير إلى أكثر من لوحة، تمكن رجال العصابات من تزويرها!

وصاحت ليلى تسأل :

ـ وماذا فعل.؟

قالت أم ليلى لليلى!

ـ مات يا بنتى مقهورا من الغيظ ومن الكمد!

قالت ليلى :

ـ وماذا قال وهو يموت يا أمى؟

قالت أم ليلى لليلى :

ـ أوصانى بك يا ليلى، وأعاد ما سبق أن قاله ليكون وصيته.. اليك. وانكفأت ليلى على نفسها، ووجهها فى كفيها، ودموع حزينة تخيم على ليلى، وعلى أم ليلى!

وبين دموع تنحدر. رأت ليلى أنها قد صارت طائرا بغير جناح! ماذا تفعل؟ وكيف تواجه وحدها، عصابات تحت الأرض، تتاجر فى التاريخ، وانجازات الانسان، ولا تتردد فى القتل، وسفك الدم، لتكسب!!

ورأت فيما يراه النائم، أنها قد صارت وحيدة فى هذا العالم!

وأنها تواجه دنيا الأشرار، بغير سلاح!

وعجبت من الرؤية، وصاحت تنادى أمها، لتقف إلى جوارها، تحميها من وحوش الغابة!

لكن أمها لم تجبها.

لقد رأتها فى حلم مزعج، روحا ترفرف فوق رؤوس الأحياء، كحمامة بيضاء، فما إن تعدو ليلى لتلحقها، اذا هى طارت.. طارت تبعد عن دائرة تحيط بها.

وتنادى ليلى : أماه، أماه.

ولا تسمع ليلى شيئا!

وتقول : ما هذا؟ أماتت أيضا أمك يا مسكينة؟ هل لحقت بأبيك؟ أم أن أباك أرادها لتكون معه، تحفظ وحدته فى عالم لا يعرفه إلا الله.

هى إذن ـ أمك ـ لا تسمع صوتك. فكيف إذن تجيب نداءك؟!

وبدأت ليلى، تنتقل فى عالم مجهول، لم تره من قبل.

أفهذا جبل؟! وهذا؟. واد مبسوط؟! والناس هنا أقزام. بلا قامة ترتفع بهم، ليصيروا مثل الأحياء؟

أفى الآخـرة يتـضـاءل حـجم النـاس، لتـتـسـع لـهم أرض الجنة؟

لقـد جـاءوا الى الدنيا على دفعـات، فـاتسعت لهم الـدنيا! وقـد تضـيق بزحـام الناس، لكن توالى الأجـيـال خـفف عنهم لتتسع الدنيا لملايين أخرى، أما الآخرة، فكلهم ينتظرون! حتى اذا مـا كـان البـعث، بعـثـوا كلهم.. مـن كل الأزمـان، والأجـيـال، وأصناف المخلوقات على أرض حياة أخرى، وفى وقت واحد!

وأخذت تعجب!

الدنيا ضاقت بالأحياء، فلم تتسع لهم إلا دفعات. وعندما كـانت دفـعـة تزيد، كـانت أصـوات المسـئولين، ترتفع لتنادى بتحديد الإنجاب، أمـا فى الآخـرة، فـهم جميعـا على الأرض، وفى وقت واحد.

- أفأرض الآخرة إذن أفسح؟

- أم أن الضيق هو فى فكر الناس، فى إدراكهم؟

- أم أن المخلوقات تصغر، لتتسع لها أماكن فى أخراها؟

- وأين أبى؟

- هل صار هو الآخر صغير الحجم؟..

ـ إن أبى لا يمكن أن يصبح قزما ..

ـ ولم لا ، إن كانت هذه هى إرادة من خلقه، ليجد فى العالم الآخر مكانا له؟!

●●●

وأخذت ليلى تصيح : يا أبت.. يا أبت.. هأنذا.. عندك.. خذنى بين ذراعيك وقبلنى.

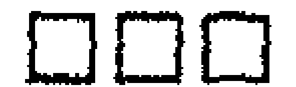
وبدأت ليلى تنادى أيضا، لتجد أمها، فيتجمع شمل الأسرة.

ـ أماه.. أين أنت يا أماه؟ أفأنت هنا، فى دنيا البعث؟ أم أنك لا تزالين تنتظرين الدور، حتى يصل إليك؟

أماه.. أماه.. يا أماه.

وأفاقت ليلى، وأمها تربت على خديها، وتمسح لها شعرها الأسود، وقد تهدل فوق الوجه الحزين الدامع.

وارتمت ليلى فى أحضان الأم، لتتقى بحرارة قلب الأم.. مخاوفها!!



3

□
□



□□

.. ليلى سلخت أياما وأسابيع وشهورا، هى تحيا حياتين :
الأولى وهى يقظى مفتوحة العينين، ترى الاشياء تحيط بها، فتفطن ماذا يعنى هذا أو ذاك، أما الثانية، فكانت حياة أكثر حرية! تجرى فيها أسرع مما يجرى بساط الريح! وتدور حول الأفلاك كالجن الأزرق! وتغطس فى ماء بارد، عميق كالبئر! ثم تخرج وملابسها لم تبتل، تطير على جسم ممشوق، كالحوريات، فى أساطير الريف! وهى تدور حول الترع أو آبار سواقى القرية!

وكانت ليلى تطيل من ساعات النوم، لتحلم وتتحرر بالحلم من العقل، ومن التقاليد التى تخنقها!

وتقول أم ليلى لليلى، وهى ملتاعة :

الناس يا ليلى خلقوا ليكدوا! ولا كد يا بنتى وجفناك مطبقتان لا تريان طريق الكد أو المجد، أو الانتاج! وأنت

تعكسين الآية، فتنامين أطول مما تتيقظين! وبهذا يذهب عمرك هدرا!

ولم تقل ليلى شيئا! تركت أمها تتحدث، ولا تتوقف عما تقول الا عندما أغلقت ليلى جفنيها لتغفو، ثم تنام!

.. وتواتيها فرصتها، أثناء النوم، فتقفز من قمة جبل! أو تركب سيارة لا يركبها الا ملك مفتون بحراسه وبسلطانه! وقد تقع السيارة، إذا اصطدمت بعود ثقاب! وقد تتخطى قنوات الريف، وهى تلف وتدور، حول حقول الحلبة والبرسيم وخضراوات صارت تتدلل! ليعرف خلق الله، أن لأرض الله كرامتها! وأن المحصول لا يأتى مصادفة!.. كالصدفة!

ليلى فى الحلم أكثر منها، وهى مستيقظة، تنظر لترى، وتأكل لتعيش.. فقط لتعيش! وتشرب لتروى جسمها قبل أن يتشقق كالأرض، حين تطلب ماء، وما من ماء!

إن حياة الحلم، متحررة من أى رباط!

.. لا عقل يقول لها هذا محظور، وذاك مباح!

ولا حدود لطاقة من يغفو ثم ينام!

.. والحالم لا يصبح فى كل الحالات، كالميت!.. فهذا شكل من أشكال النوم، لكن للنوم أشكالا أخرى، فقد يصبح النائم مجنونا! والمجنون أقوى من كل العقلاء، بلا استثناء! هو جسد فيه من القوة، قدر هائل، بغير حدود! ثم المجنون إن دخل معركة، حتى مع نفسه، فلن يجد العقل، ليلفته نحو المحظور.. مثلا! أو يوضح له حدود القانون، وما يحويه من الجزاء أو العقاب..!! أو ينذره بحبل المشنقة، فيراجع نفسه! المجنون مجنون، لأنه فقد المنطق، وفقد التقدير، وفقد حساسية تمنعه من أن يتحرك فى مجال يسمح له فيه بالحركة! المجنون أقوى من كل العقلاء قد ينوى تأديب سخيف أبله، لكن ذراعه لا تتحرك ليضربه، إلا إن أذن العقل! فان غاب هذا العقل، فإن الغاضب حينئذ يضرب بحماسة تخيف منه الناس، ولكماته لا يحكمها حذر من قتل خصومه، ورجلاه وأقدامه أسلحة يحشدها ليطيح بمن يكره!.. أفيكره مجنون شيئا؟ أو شخصا؟! إن الحب والكره، يقومان على أسباب، أما المجنون، فقد يطيح حتى بحبيبه!

النائم مجنون، والمجنون فيه خطورة! ولولا أن خطورته محبوسة فى سجن النوم، لأصبح كارثة كبرى لنفسه وللناس معه.

وليلى كانت تحب النوم وتعشق أن تتحرر فى الأحلام.
وما كانت تقتنع بما تقوله الام لها، فهى ليست مسئولة عن أن تسعى فى الارض، أو تضرب فى مناكبها، فتلك لم تصبح بعد مهمتها!

ولكم كانت ليلى تضيق بالناس، وبنفاق الناس، وبخبث الناس، وبسوء المقصد من بعض الناس..

نعم وتضيق ليلى من كذاب يكذب، ويسب الكذابين!

أو من لص يسرق، ويسخط على كل لصوص الأرض!

ومنافق ينافق، ويبدى أسوأ رأى فيمن نافق!

وتسمع ليلى رجلا يقسم بأغلظ الأيمان، أن لوحة من أجمل ما رأت العين معروضة بنصف الثمن الذى تطلبه الأم، عن تحفة لأبيها! تعرضها لتعيش، هى وابنتها!

ويدور بين الرجل والأم حوار :

- طيب لماذا لم تشتر اللوحة الاخرى؟

- لانى أفضل هذه اللوحة.

- لماذا ولوحتك التى تتحدث عنها، من أجمل ما رأت العين؟ ألم يكن هذا هو قولك؟

ـ كنت أعبر عن سماسرة الفن، لا عن رأيى.

ـ معاذ الله. أنا أدفع من أجل الفن، لا لأتاجر!

ـ لهذا فانى أوثر أن تبقى اللوحة.

ـ... تبقى؟!.. أين؟

ـ هنا، حيث ترفرف روح الفنان صاحبها، فقد وضعها هنا بنفسه، فلم تعد روحه تضل لتصل إليها!

ـ لكن مكانك هذا لم يعد يسمح بكل ما خلفه المرحوم.

ـ.. هذا شأنى.

ـ وأنا.. من طول معاملتى صرت صديقك، فى تقديرى.

ـ صديقى!!.. وأنت؟!

ـ نعم أنا.

ـ غريبة!. إن الصداقة تبدأ بالقربى..

ـ أبدا.. أبدا.. غير صحيح.

ـ لماذا تتعجل فى الرد؟ أنا لم أكمل بعد.

ـ تفضل...

ـ كنت أقول أن الصداقة لا تقوم بغير القربى..

ـ نعم.. هذا سمعته ووددت لو ناقشته.

ـ لكنك ـ على عادتك ـ تريد أن تثب إلى هدفك.

ـ أبدا أبدا.. مستحيل.

ـ اسمعنى من فضلك. أنا لا أسعى لقرباك، إلا فى الفكر وفى تقدير الفن.

ـ تماما... عندك حق.

ـ لكن هذا لم يتوافر بعد لا عندك، ولا عندى، فعلام تقوم صداقتنا؟

ـ وما المانع؟ وماذا يمنع قربانا؟

ـ أنت زبون لا تقبل أبدا أن تغلب.

ـ... إنى برئ من هذا يا سيدتى.

ـ... من إذن تتهمه؟

ـ زبون ثقيل جدا، وغنى جدا.. ولحوح جدا.

ـ.... ويدفع جدا... أو يدفع الآخرون له.. جدا.

ـ لا.. هذا عيبه.

ـ أفلا يدفع؟

ـ بالكاد!

ـ تعنى أنك تخسر لو دفعت ما أطلبه؟

ـ صدقينى أخسر.

ـ إذن تترك هذه اللوحة لى فهى واحدة من حلقات العمر، والعمر يمر بغير تمهل..!

ـ أو ترضين أن أخذل زبونا، عاملته أكثر من نصف العمر؟!

ـ آه لو ذكر الأفراد ما قالوه!!

ـ ماذا يحدث؟

ـ ينهارون من الخجل مما قالوه ولم تجف بعد شفاه نطقته!

ـ ياه!! هذه مبالغة يا سيدتى!

ـ أفلم تك تسخر منذ قليل من تجار الفن؟! أفلم يحدث هذا؟

ـ هناك تجار شرفاء، لا يستهدفون قتل زبائنهم.

ـ وأنت تريد التيسير على من تتعامل معهم!

ـ طبعا .. أفهذا سيئ؟

ـ.. أبدا . أنت تريد أن تخدمهم، ليظلوا محتاجين إليك.

ـ وتستفيدين معى من هذا النوع من الناس!

ـ دعنى فى حالى، وتكلم عن نفسك!

ـ ألست مصدرا هاما للوحاتى الفنية؟

ـ نعم هى من عمل الفنان الشامخ : زوجى.

ـ وأنا ... أسوقها لك.

ـ بالسعر المقبول.. يا ... دعنى أقلها لك.. أنا!

ـ ماذا ..؟

ـ.. يا صديقى!

ـ الله... إذن رضيت. عنى يا خازنة أجمل ما فى الدنيا من إنتاج.

ـ ان زبونك يريد اللوحة، ليستكمل نقصه؟ يضعها فى حجرة الاستقبال ليبهر زواره!! أليس كذلك؟

ـ وقد يضعها فى بهو واسع.

ـ لترفع من شأنه عند الناس!

ـ فان استقرت فى حجرة مائدته؟

ـ فتحت شهيته، وشهية زواره.

ـ عذبتنى..! فان صحبها إلى أوربا!

ـ لتقضى الصيف معه.. أو لتتعامل فى كارلسبد مثلا، ثم تعود!

ـ أفهذا منطق؟

ـ أعلم يا صاحبى أنه يدفع عنها بضعة مليمات، ليتقاضى عنها هناك ثمنا ضخما وسخيا، وبالعملات الحرة!!

ـ وهبى هذا.. فهل هو عيب؟

ـ لا أبدا. كل المطلوب منك سعر يتناسب وجمال اللوحة.

ـ قد لا يملك ما هو مطلوب!

ـ... تدفع أنت الفرق، لتبقى عليه زبونا لك.

ـ أنت تاجرة موهوبة.

ـ وأنت كذلك تاجر، صارت موهبتك طبعا فيك.

ـ أنا... تاجر؟ تاجر ماذا؟

ـ.. تاجر فن؟ أو تاجر ذوق؟ أو تاجر عصارة أعصاب الفنانين؟

ـ وهل أنا وحدى التاجر؟

ـ لا.. لست فى هذا وحدك... كلكم تجار! ومكسبكم يزداد بنسبة نقص الأعمار بين الفنانين! فالفنان يدفع عمره فى فنه، ثم يعز عليه الحصول على لقمة.. مجرد لقمة! جافة، لتجرح حلقه!

ـ من ذا علمك هذا كله؟

ـ الزمن... والحاجة... وبنتى ليلى.

وشعرت ليلى بدوار!

وشعرت بحنين إلى النوم، لتحلم.

وكانت ليلى قد بدأت تتحكم فى قدرتها على النوم، لتهرب من الواقع الذى يحيط بها، ويحاول أن يخنقها!

.. ونامت لترى نفسها أمام أبيها، فعدت تجرى نحوه، وتناديه فلا يسمع! وتعود الحالمة المرهقة بما سمعت تنادى: أبتاه! يا أبتاه! أنا ليلى!

ولم يسمع! أبوها الفنان الشامخ.. لم يسمع!

وأخذت ليلى تعجب!.. أفى الآخرة سياج يحمى النزلاء من الضوضاء؟ وقد يسلبهم، من باب الأخذ بالأحوط، بعض حواس استعملها الانسان فى دنياه؟

هل يفقد سكان الآخرة السمع؟ حتى لا يضطربوا بأصوات أغلبها نافر؟! أو شاذ؟!

أم أن الزوار من أمثالى - أنا ليلى - يفقدون الكلام؛ ليصبح كل منهم أخرس! ينادى، فتموت الكلمات فى حلقه! ويصيح لترتد الصيحات إلى حلقه! فهذه هى آخرة الناس؟ خرساء لا تنطق؟! صماء لا تسمع؟!

صحيح.. كثير من الأصوات، تلوث مجال النطق والسمع معا، ومن الحكمة، أن يحتمى منها الناس بالصم وبالصمت! لكن كيف يعز على سكان الآخرة، أن ينصتوا للموسيقى، وهى لغة أخرى أجمل من كل لغات الأحياء؟ ثم قراء القرآن، وما تحمله بعض الأصوات من دفء الإيمان، وشفافية الروح.. أفهذا أيضا يمتنع على النزلاء هنا؟

وأخذت ليلى - الحالمة ليلى - تتعمق ما يدور فى عقلها - وهو مثلها حالم - لتصل فى نهاية جولتها الى أن تسأل :

أفتنسين يا ليلى، أنك فى حلم؟ إنك لم تصبرى بعد، من نزلاء الآخرة، لتحكى عن النزلاء بها! إنك زائرة للنزلاء.. وليس من حق الزوار أن يتعمقوا حياة النزلاء! هذا شئ مرفوض يا ليلى!

الله! ما هذا؟ ومضت ليلى - الحالمة ليلى - تعقد مقارنة بين زوار النزلاء بالآخرة، وزوار النزلاء، فى سجن الاشقياء بالقناطر مثلا! إن الزوار يحكمهم منطق وعرق وقواعد وكلها تختلف عما يحكم النزلاء أنفسهم. قد يتكلم زائر، فلا يرد نزيل! ولا هذا يفهم، ولا ذاك يفسر! وقد يتأزم بينهما الموقف، لاختلاف الموازين بين الزائر ونزيل السجن! أما الزائر فسيعود إلى بيته، فلا يكدره أحد، لكن نزيل السجن خاضع لقوى أخرى، تملك أن تؤذيه، ولو بالحرمان من شئ يرغب فيه ويحبه!

وفجأة صاحت ليلى - الحالمة ليلى - تقول لليلى : ما هذا؟ أفجننت يا ليلى؟ ألكى تقتنعى، تعقدين مقارنة بين الآخرة، وسجن الأشقياء؟!

أفهذا عدل أو إنصاف، أم هى مقارنة تعسة، خالية حتى من الذوق يا ليلى؟!

السجن "للتأديب والتهذيب والاصلاح" ، أما حياة آلآخرة، فهى المثوبة عن التأديب والتهذيب والإصلاح.. فإن تكن المثوبة إيجابية، نال نزيل الآخرة ثوابه، فان كانت سلبية، نال عقوبته عنها، وبعدها يصل إلى الجزاء العادل والباقى الى ما شاء الله له أن يبقى.

السجن قيد! أما الآخرة فهى تحطيم القيد!

السجن عقوبة! أما الآخرة فهى تحطيم القيد!

السجن عقوبة! أما الآخرة، فالعقوبة فيها، طريق لمثوبة.. متصلة وبغير نهاية.

السجن عذاب يدمى القلب! والآخرة تحرير يشجى الخاطر.

السجن دموع المظلوم، يشكو لله من ظلمه! والآخرة ضحكات وسعادة حتى لو كانت خرساء!

وعادت ليلى ـ الحالمة ليلى ـ تجرى خلف أبيها، فلم يسمع ما نادته به، لكنه مع ذلك وقف وتلطف معها، وربت على خديها، وقبلها.. أبوها فى آخرته قبلها! أهناك فتاة قبلها والدها، بينما هو من نزلاء الجنة؟

ـ وكيف عرفت أنه لقيك فى الجنة.

ـ لابد أن أبى فى الجنة.

ـ أفأنت القاضى، الذى حاكمه؟

ـ أنا لست بقاضية، ثم إن الله أقدر من يحكم ويحاكم عباده.

ـ وحين يجد واحدا من خلقه. ملأ الدنيا تعبيرا عن نعمة..ألا يرضى؟

ـ ويكافئه بأن يجزل له.. عطاءه!

ـ وأقل جزاء لأبى، أن يدخل جنة رضوان.

ـ بحكم الفن؟

ـ ولم لا؟

ـ الجنة يا ليلى. ليست مسابقة بين الفنانين.

ـ فرق بين مسابقة فى معرض، ومكافأة لنزلاء الجنة! تمنح لفنان متفوق.

ـ الجنة ليست لكل عباقرة الدنيا.. وحدهم!

ـ لكن للعباقرة مكانا متميزا فيها.

ـ أغلب نزلاء الجنة ممن ذاقوا مر العيش.. وصبروا..

ـ وعباقرة الفن والعلم والشعر والموسيقى، ذاقوا المر كذلك.

ـ لكنهم لقوا عوضا عما قاسوه.

ـ.. جاعوا واضطهدوا.. أية مكافأة تمسح سنوات عذاب؟

ـ كل مكافأة رهن ظروف. نعجز عن تفسير الحكمة منها.

ـ وأصدق ما يدل على هذا أن مكافأة من صبروا، تمت بالقضاء عليهم!

ـ غيرة! وأخس صنوف الغيرة عجز العاجز عن أن يصبر وحياته علقم.

ـ أيغار المتخم، من فرد جائع؟

ـ طبعا، لعجزه عن أن يتحمل مثله.. فيغار، وتأكل نار الحقد قلبه!

ـ حتى الصبر على الحاجة يصبح سبب الغيرة؟!

ـ.. والصبر على الحاجة يصبح أيضا سبب الحقد!!

ـ ومن احتكروا المال. يغارون من المتسول، يغارون من المتسول؟

ـ... لان المتسول لم يلجأ لما لجأ له عباد المال!!

ـ ولان حصالات المال بشر سذج، لا من يجرؤ عل أن يتسول، فيغارون، لانهم بذلوا فى جمع المال كل مواهبهم وثقل النفس. بينما المتسول لم يشغل نفسه بألاعيب عباد المال، ومؤامرات أصحاب رءوس الاموال، ومظاهر قلق تملأهم خوفا على ما جمعوا من مال.

ـ المتسول اذن فى وضع أفضل، فهو ينام فى عرض الطريق وهو آمن، والناس تمر عليه، لتضع نقودا فى كفه، أو تتخطاه حين تعز الفكة. لكن ما من أحد يحاول قتله مثلا! أو سرقة ما عنده!

وتشعر ليلى ، أن أباها يهزها من كتفيها! وتعجب ليلى من موقف والدها! انه لم يقترب منها، ولم يتحدث اليها، ويبدو أن معاملة الناس فى الجنة تختلف تماما عن معاملات أهل الدنيا.

لقد خطر بخاطر والدها خاطر، فانتقل إليها.

... قومى..أفيقى.. عودى لأمك يا ليلى.

هذه كانت رسالة والدها بغير كلام. وعندئذ فركت ليلى

جفنيها، لترى ماذا حدث فى الجنة التى خلفها أبوها من موهبته.

عندئذ رأت ما لم تكن تتوقعه.. أبدا.

إن الرجل الذى نامت لتسد منافذ رؤيتها له، وتسد منافذ تنطق بهوى مشبوب، بأبخس الأثمان! ومع ذلك فهو يحاول أن يسمعها عن كلماته الملتوية، وهو يساوم أمها، لينال قطعة فن.. يبدو متذوق فن. لا تاجر فن، يروج بضاعته، ولو فى السوق السوداء!

.. كانت اللوحة كنزا.. تحرك حتى عاطفة القتلة والسفاحين! لونها الأحمر يختلف فى تفسيره الناس، فيراه المنحوس دما يقطر! ويراه السعداء، وردا، تفوح منه روائح تكاد أن ترفع الواحد إلى علياء الله، ليدعوه سبحانه، وهو منه قريب، أن يجعل حياته ورودا نضرة، وأن يجعل أحبابه، زهورا تختلف بينها الألوان، وتقرب بينها الرائحة العطرة، وأريج يتضوع فى كل مكان، حتى بين قبور الموتى!

لقد نامت على عبارات مساومة قذرة.. ولم تكن أمها راضية عن الثمن الذى يعرضه الرجل، لبيع اللوحة لسواه،

وسواه يبيعها لسواه!.. ويظل "سواه" هذا هو الزبون الغامض الذى لا يعرف أحد من يكون!

لكن ليلى لبث طلب أبيها فصحت لترى المسألة قد انتقلت من المساومة إلى التهديد! وأم ليلى غير قانعة بما يعرضه عليها من ثمن وزائر أم ليلى، يزيد العرض بضعه جنيهات، كأنما هى "شروة" ترمس أو بطاطة، أو ذرة مشوى!

وتسمع ليلى أم ليلى تقول لزائرها :

- يا سيدى قالوها أهل زمان. بين البائع والشارى، يفتح الله.

قال الرجل فى سماحة :

- بس المسألة هنا موش صفقة؟ "ولا هيه بيعة ولا شروة"!

قالت أم ليلى!

- "أمال إيه؟"

قال الرجل وقد بدأ صوته يعلو على صوتها :

- دفن، وله معجبون، وينتظره ناس كبار..

قالت أم ليلى فى بساطة :

- أهم زبائن زى كل الزبائن "الثانيين".

قال الرجل وهو يبدى لها العين الحمراء :

- يعنى يبقى المليونير الكبير مثلا.. زى الصعلوك؟

قالت أم ليلى :

- ويمكن الصعلوك أولى.

ووقف الرجل يواجهها بوجه مكشوف ثم قال لها :

- الصعلوك أولى؟ طب أفهم!..أفهم بس!

قالت أم ليلى :

- كان زوجى رحمة الله يهدى لوحة من لوحاته لفنان مبتدئ يختزن موهبة كبرى، ولا يبيعها لغانية، لا يهمها منها، الا أن تثير بها إعجاب المفتونين!

قال الرجل فى قسوة :

- دا احنا يظهر حنلبخ بقة. أنا بقول مليونير، مش غانية.

قالت أم ليلى فى سخرية :

- وما الفرق بين الغانية والمليونير؟

وأخذ الرجل يصفق بيديه، منكرا هذا الموقف منها. بينما أخذت أم ليلى تواصل حديثها مع هذا السمسار!

ـ قل أنت ما الفرق؟

ـ قولى أنت، وما الشبه بين الغانية والمليونير؟

ـ كل منهما يملك شيئا يتحكم به فى الناس. الغانية فتنتها المطروحة فى سوق المال كالأسهم والسندات!

ـ والمليونير؟

ـ يتحكم فى الناس بأمواله... أبدا، ولا حتى هذا يفعله! هو يتحكم فى الناس بالسمعة! ومن ذا يقدر على عدم ممالأة المليونير؟

ـ الممالأة ليست نوعا من القيد المفروض على الناس. ثم إن المليونير لا يلام اذا مالأه ضعفاء!

ـ أفيدفع مليونير ثمنا لسلعة يطلبها؟ كما يدفع عنها سائر خلق الله؟

ـ طبعا.. هو يقدر؟

ـ يقدر بالثلث! لكن البائع يجامل هذا القادر. ولا يسمح بالتخفيض لعاجز يجهز بنته، من ذوب فؤاده!

ـ لا لا.. هذه مبالغة يا سيدتى!

ـ وهى ـ مع ذلك ـ حقيقة.

ـ.. ثم ألا يربح بائع من مليونير؟

ـ يربح بأسلوب آخر. فهو ليس من البلاهة ليعطى بغير مقابل!

ـ أى أسلوب تظنين يا سيدتى؟

ـ كثير كثير جدا، وأبسطه أن يلجأ للمليونير لتخفيض جمرك عن صفقة سيطرحها للناس.

ـ ولماذا يرضى المسئولون؟ أيرغمهم على ذلك أحد؟

ـ لانهم إن رفضوا، جاء الأمر.. من أعلى!

ـ يرفضون ما يتنافى والقانون!

ـ ليجوعوا!! أليس كذلك؟

●●●

وبدأت عينا الرجل تجحظان، ويبدو الشرر يتطاير من عينيه وشردت ليلى فى عالم آخر! كان وجه السمسار قد أصبح أسود كقلبه، ومن عينيه أطل المخزون فى نفسه! وأخذ يجز على ضروسه كمن فقد السيطرة على نفسه! ولم تفكر

ليلى فيما يمكن أن يفعله هذا المحتال، إنما انصرف تفكير الصبية فى لوحة تصور هذا الغل فى وجه رجل! وتصور هذا الغل فى أصابع يديه، وفى وجهه،وهو يجز على أسنانه كمن يقضم الفراغ القاتل حوله؟

وقالت ليلى لنفسها :

ـ لو كنت حيا يا أبتاه، لقدمت هذا الرجل فى لوحة رائعة تظهره فى صور شتى.. وهو أملس كجلد القطة! وهو خشن كسنفرة النجار!.. وهو مديب كالتين الشوكى!.. ثم وهو يهدد حتى بالقتل، كسفاح مأجور! أين أنت يا أبتاه لتقدم لنا هذه الصورة وهى تتلاحق، لتوضح حركات الانسان حين يتصاغر فيصغر لحساب سواه!

لم تفكر ليلى فيما تصنع، للمسكينة أم ليلى. لكن روح الفن، وقد سرت اليها من صلب الفنان الوالد، حملتها لتعيش فى عالم آخر!

ويبدو أنها غفت، لتنام! فليلى قد أعتادت على أن تعيش فى الاحلام، لتتحرر من قيد الحس، فلا تشعر بشئ يقفها، عند حد، لا تتجاوزه.

وفى الغفوة كان أبوها معها، يصور لها أبعاد الصورة للرجل حين يقامر، فيغامر!! وهو فى كل الحالات مجنون بالمكسب! حراما كان الكسب أو غير مباح!

ولقد كان الشرير، كالكلب المسعور، يهاجم حتى صاحبه! أو كالذئب، حين ينفرد الذئب بشاه!

أو كالحوت، يقضم بطلا من أبطال جبل الأولمب، فيخفى أثره من الدنيا!.. وكانت ليلى تحب أباها، وتحب الحب من أجل أبيها! وتحب الفن تنفيذا لوصيته، وقد وصلتها من أم ليلى المسكينة.

وعندما رأت أباها فى الحلم، لم تجده كما عهدته!

كان يصيح بها بلا صوت : ليلى .. عودى لأمك يا ليلى. انها تحتاج إليك!

ولم تكن ليلى تحتاج لشئ!.. تفتح عينيها الساحرتين تهز رقبتها العاج، لتعود فتتنبه إلى ما يجرى فى المسكن. لكن ما يجرى قد كان فوق تصور ليلى. إنها حالمة تتحرر بالأحلام من ضغط الأحداث عليها، فكيف اذن تجد الواقع الذى تشهده، أكبر حتى من الاحلام التى تعيش بها ولها؟

لقد وجدت ليلى منظرا لا تنساه على الإطلاق.

أمها ـ أم ليلى ـ كانت فى محنة، والرجل السمسار، يحاول أن يسلبها اللوحة وقد وعد بأن يرسلها إلى واحد من أصحاب الملايين ممن يتعامل معهم. لكن أم ليلى ترفض، وتقف أمام اللوحة لتحميها من أن تسرق!

وتطلعت ليلى لترى أمها فى صورة لم تشهدها من قبل.

ولم تكن أم ليلى، مجرد أم، فقد كانت للصغيرة ليلى، أما وأبا وصديقا فى آن واحد. هى ولدتها، وأبوها قد مات، وهى جنين فى بطن الأم، وما عرفته عن والدها الفنان، عرفته من خلال الأم، وهى تروى عنه حكايات يندر أن تحدث من فنان يعتبر ما ينتجه من لوحات ـ علم بلاده ـ لا يقبل تفريطا فيه أو مساومة عنه، مهما يكن الثمن الذى يتقرر له.

وظل الرجل يحاول أن يزحزح الأم عن موقفها، لكن محاولته كانت يائسة، ولم تجد.

وبدلا من أن يتحدث برقة وليونة وخداع، فقد سمعته ليلى يتحدى، ويتجبر! وفى هذا الجو المشحون بالغدر،

اختارت أن تنضم إلى الأم المسكينة، لتحمى اللوحة من طمع التاجر والسمسار.

وأحبت ليلى أمها، كما لم تحب بنت أما ولدتها.

رأت أمها جنديا، يدافع عن شرف بلاده، واستعادت ما سمعته من رأى أبيها فى الفن، وكيف اعتبر الفن علما فى أعلى صارية. يرفرف فى زهو بجلاله! ويكاد هذا العلم، أن يتحول، ليصبح سيفا أو ليصبح مدفعا، يقصف أعداءه! وتحسرت ليلى، وهى تشهد الرجل السمسار، يحاول أن يلوث شرف بلاده، فينهب أعمالا انسانية، لتخلو مصر من عباقرة التعبير، ويتوه المصريون، بين التاريخ المسطور فى كتب يقرأها الناس، وخلاء الساحة من تراث يؤكد عظمة ماضينا كله! ومع هذا فالرجل السمسار، مصرى بالجنسية والمولد، لكنه ينسى تاريخه ويقبل أن يركع تحت أقدام التاريخ فى ذلة، ليكسب!!

وقالت ليلى، وهى تشد الرجل من الخلف :

ـ أترك أمى. إنك مجرم. تبيح لنفسك عدوانا على واحدة أضعف منك!

لكن لا ليلى استطاعت أن تبعده عن محاولات المجرمين المرتزقة ولا هو سمع نداء صبية، من أجمل من عرف الناس، وأطهر من أسفر عنها سوق الفن.

ولقد بلغ الحنق، أنه اقترب من أم ليلى، ليزيحها عن موقفها، لكن الأم كانت كجدار المسكن، لا يهدمه هذا الدجال اللص، الا بقنبلة تنسفه!

وبدأت أطراف حوار بين الام وهذا الثعلب، تطرق أذنيها :

- سآخذ اللوحة، برضاك، أو رغما عنك.

- وسأموت أنا. قبل أن أفرط فيها.

- أو تظنين نفسك قائدة فى حرب، تدك القلاع، وتبيد البشر؟ إنك واهمة يا زوجة فنان، صارت أرملة، وهى فى عز صباها! أتركى اللوحة أيتها الأرمل!

- أبدا لن يحدث هذا... أبدا. أفتسمع؟

- نحن نقدر على مئات مثلك.. ولدينا فى سوق الفن عشرات من انتاج المرحوم زوجك! وهى الآن تنسب لكبار الرسامين فى العالم!

ـ إنك تكذب!.. تكذب!

ـ أنا أعرف ما أقوله يا سيدتى!

ـ لو صدق كلامك، فسأبلغ السلطات المسئولة لتقدمك الى السجن، تدفع فيه بقية عمرك.

ـ كلام.. كلام.. ها أنذا أعرض عليك ثمنا لم أدفعه من قبل لأحد، لكنك ترفضين النعمة.

ـ أتريدها لتزيفها يا دجال أفتتسب إنتاج الفنان، وقد مات، إلى احياء من الفنانين لم يحققوا لأنفسهم مكانة مرموقة، فلجأوا للميت، ينهبون أعماله، ليشتهروا فى غفلة زمن منحوس!!

ـ أيا كان التفسير، افهذا واقع.

ثم بدأ الرجل، يخرج من جيبه خنجرا كقرن غزال، ليهدد أم ليلى ويستولى على اللوحة.

والتصقت ليلى بأمها. لتعيش معها، أو تموتا معا.

وصاح الرجل الخنزير :

ـ ابعدى أنت أيتها الطفلة. إنى سأذبحك كشاة، إذا لم تنفذى أمرى.

قالت ليلى، ودموعها تجرى فوق مآقيها :

- إنى أفضل أن أموت مع أمى، لنذهب إلى الجنة، نلقى الفنان أبى، ونعيش فى عالم بلا أحقاد، لا يدخله أمثالك.

وهجم الرجل الإبليس على اللوحة، لينزعها من حيث اختار لها صاحبها، مكانها هذا. وارتمت أم ليلى لتحميها منه، وقد أخذت كلماته تهز كيانها كله.

وظهرت صورة زوجها الفنان، وهو يدور بها فى بيته، ليراجع لوحاته، ويكشف تزوير أعمال أفنى فيها عمره.

وتحققت أم ليلى، من أن الزوج كان يحس، أن مؤامرة قد حيكت ضده، وأن بعض الاعمال التى أنتجها قد زيفها لصوص الفن.

إذن كنت على حق يا زوجى، وكنت تشعر بأن الطريق طويل لكشف التزوير الآثم. ولهذا تركت وصيتك لليلى بنتك.

ولكن ماذا تصنع ليلى؟.. صغيرة وبريئة، فكيف تواجه هذا الإجرام باسم الفن، وكيف تحول بين عصابات الفن ومآربهم. إن الدائرة أوسع من طاقتها يا زوجى.

ومع ذلك، فلترتح نفسك، فها أنذا أؤدى بعض ولاء الزوجة لزوج بلغ الذروة فى التعبير، ولم يخرج من دنياه، إلا

بالاسم وبأسلوب يعــز على زمــلائه، فى أية أرض تكون إقامتهم فيها .وخطر للزوجة أن تسأل هذا الأفاق عن سوق التزييف.. أين يكون! ولم تك تتوقع ما قاله.

ـ السوق فى أغنى عواصم الدنيا! كل عواصم هذا العالم فيها سوق للتزييف! وكل بلاد ادعت العدل وحماية شرف التعامل فى الفن وأشاعت بين جماهير الفنانين، أنها تحمى الإنتاج من الدجالين، كانت فى الواقع تخدع الرأى العام وتضلله، ليصبح تاريخ الفن، هو فى حقيقته تاريخا زيفه أناس لا قبل لاحد بهم، لأنهم لا يقفون حيارى أمام الابداع الرائع، ولديهم جواسيس وسماسرة وأموال، وسلاح بتار عند الحاجة!

وصاحت ليلى فى وجه العفريت الأغبر :

ـ تخوفنا؟ إذهب لتخيف بكلماتك، من يدفع شرفه ليعيش، أما أمى وأنا، فالحياة لدينا كالموت وهو حقيقة.

وقال الرجل المسعور وهو يزيح الطفلة :

ـ إذن تموتين وأمك، وأنال اللوحة، لأفعل بها ما أشاء! أفهمت؟ أغربى عن وجهى، قبل أن أذبحك ثم أذبح أمك.

وعندما هجم الكلب المسعور، يشد إليه ليلى، ارتمت أم ليلى على وحيدتها، لتمنع عنها الشر أو الموت أو الأذى، باسم حرية تداول أعمال الفنانين.

وعندئذ اخترق الخنجر جسم الأم، لتبقى ليلى!

وترنحت المرأة، وهى تقع على أرض المسكن، والدم يسيل فى غير تراخ! وكانت تلك فرصة القاتل، ليرتكب جريمته، ينزع اللوحة عن موضعها، وترك الأم تواجه المصير الأسود الذى قد تلقاه.

وبينما كان الرجل يهم بالإفلات باللوحة، كانت ليلى تعدو خلفه، لتمسك به، فلا يختفى عن عينيها!

وسمعت ليلى أمها تناديها، بصوت خافت :

- ليلى. تعالى يا ليلى.. سيذبحك يا بنتى فهو مجرم! وهو ليس مجرد تاجر! إنه أيضا قاتل! أفاق! لا يهمه غير الربح، وحياة الناس لديه عقبات يحطمها بالقتل أو الخطف أو التعذيب.

وأخذت ليلى تبكى وعيناها حائرتان، واحدة خلف الكلب الفار من جرمه، وأخرى تلف الأم بحنان وحب ورغبة فى أن تنقذها، حتى لو دفعت حياتها ثمنا لتعيش!

وسمعت ليلى أمها فى صوت يتهاوى من ضعفه :

ـ عيشى أنت يا ليلى. عيشى من أجل أبيك. إنه يطلب منك أن تعيشى، يا أجمل فتيات الدنيا.

قالت ليلى :

ـ أفبعدك يا أماه.. أعيش أنا؟

قالت أمها تتوسل :

ـ حققى رغبتى ورغبة أبيك الفنان، وعيشى للفن، ولكشف التزييف، والمحافظة على تراث كان أبوك يصفه، بأنه علم بلاده.

واختلطت فى هذه الأثناء، شهقات الموت، وشهقات الحزن على الميتة المسكينة ولم يعد بين ليلى وأمها، إلا الدمع والدم، والروح التى تشهد آخر شكل لابنتها الحلوة.

ومضت الدقائق سريعة كالومض.

وأسلمت أم ليلى الروح ويداها، بين يدى ليلى!

وظلت ليلى فى نفس الموضوع، تحت جدار خلا مما كان يشغله! ليلى قتلت هى الاخرى قتلت، فظهر مكانها على جدار المسكن بلون آخر.

ولم تعرف ليلى ماذا تفعل!

هى تعرف كيف تسكب الدمع على الأم، وقد ماتت.

ماتت يا ليلى أمك، وهى تحاول أن تدفع عنك الشر.

ماتت لتعيشى أنت يا ليلى.

ولم تستطع ليلى أن تنسى كلمات الأم، وهى تحذرها من أشرار قتله، لا يهتمون إلا بالربح، فان جاء الربح من إهدار حياة، فلا بأس أما حياة الناس، فلا تساوى شيئا.

- احذرى يا ليلى، من رجال أشرار.

وسألت ليلى وكلماتها تغوص فى قلب مفعم بالمحنة :

- هل الرجال فقط هم الأشرار؟!

- وهل كل الرجال.. أشرار وخونة؟!

ولم تشغل ليلى نفسها لتجيب، لكنها ابتلعت كل الاحزان، لتواجه مصيرا لم تعد قادرة على أن تصدر عنه الأحكام.

كان مكان اللوحة قد خلا من شاغلته، فبدا هذا الجزء من الحائط.. أجرب! وكانت أم ليلى تتمدد أمام مكان اللوحة، فقد تستطيع بجثتها، أن تملأ فراغ اللوحة، بالدم، ودموع تغلى، وآهات مغلوبة.

وبدأت ليلى فى جلستها، تحت أقدام الأم، تسعى لدخول الجنة فالجنة كما سمعت من كل الناس، تحت أقدام الأمهات.

إن الجنة وحدها هى الساحة التى تتلاقى فيها، مع الفنان الرائع وزوجته التى سقطت خلال الصراع، بين طرفين لا يتكافأ طرفاه.

ولم تشعر ليلى، أنها تركت الأمر على ما صار إليه! فباب المسكن مفتوح، وصاحبه الشقة مقتولة، وليلى حائرة ماذا تفعل.

ولم تسمع ليلى أصوات أناس وقفوا يطلون عليها، وباب المسكن مفتوح! كل الجيران كانوا فى مدخل هذا المحراب، ولا شئ يوضح لهم.. حتى للا شئ!

ماذا حدث؟ من قتل سيدة المسكن؟ أفهرب السفاح؟ أم أنها ليلى، هى من قتلت أم ليلى؟!

وأتى رجال الشرطة، فحاصروا المسكن من كل جوانبه، وسدوا مداخله ومخارجه بالعسكر وهو مسلح ومتأهب ليقبض على من تدور حولهم شبهة.

وسأل المسكينة ليلى عما حدث، وأخذت هى تجيب سؤالا وتسكت عن أسئلة أخرى.

- أو تعرفينها يا "شاطرة"؟

- نعم أعرفها.

- وهل لكِ صلة بها؟

- أمى.. هى أمى.

- ومن ذا قتل المسكينة بطعنة خنجر.

- رجل... رجل...

- وأى رجل؟

- رجل.. أى رجل.

- رجل بلا اسم؟

- شرير... رجل شرير.

- أفهذا اسمه؟

- ومالى أنا بالاسم؟

- نحن نريد الاسم، لنحاول أن نجده.

- إنى لا أعرف، إلا حقيقته، وهو يخفيها عن الناس!

- يخفيها .. كيف؟

- بطلاء زائف، كالفن الزائف.

- وضحى بقدر ما تستطيعين التوضيح.

- أنا وضحت حقيقته لك، فابحث عن إسمه.

- وكيف يكون البحث، وأنت ضنينه، لا تبوحين به.

- ليكن اسمه ما يكون، ابحثوا عن شخص شرير، يتاجر فى الفن، كما يتاجر فى ترويج مخدر، تسلل فى صمت، يزحف فى ظلمات الليل..

- وماذا .. أيضا؟ تكلمى!

- أتكلم عن ماذا يا ضابط شرطة هذا الحى!

- أنا المأمور لمعلوماتك!!

- لكنك ضابط شرطة..

- مأمور القسم الذى تسكنين فيه!

- وهل يتغير شئ فيك، لو أنك مأمور؟! أفتلك هى مشكلتك؟ أنت المأمور، على عينى يا سيدى المأمور! أهم من مأموريتك يا مأمور أن تضبط الجانى! أن تهتم بجثة ممددة على أرض الحجرة؟

وبواحدة مثلى تعيش فى عالم بلا سقف يحميها؟ وهذا العالم حولك ينقلك الى الجنة، أفهذا أيضا أدنى فى دائرة اهتمامات المأمور، أو عن صفة المأمور؟ أين أنت يا أبى؟!

ـ أهو حى؟.. أبوك؟

ـ قتلوه هو الآخر!

ـ من ذا قتله؟

ـ الهم والغم والكرب ونكد الأيام، وقـــراصنة فى ثوب ملائكة الرحمة!

ـ وماذا كان أبوك يعمل؟

ـ ماذا كان عمله؟

وصاحت ليلى كمن تزأر فى غضب عاصف، وهى تشير الى اللوحات وقد ملأت كل مكان فى البيت :

ـ هذا كله بعض من عمل أبى.

ـ كان أبوك إذن.. فنانا!

ـ ما أذكى المأمور! لقد أدركها.. وحدها!

ـ لكنك كنت تنادين أباك.

ـ وسأظل أناديه حتى ألقاه.

ـ فى الجنة!

ـ وسكتت ليلى لتلاحظ وقع الكلمات على وجه المأمور، وكان المأمور بدوره قد حار.. ما هذا الصنف من الناس.؟

ومر الوقت بطيئا.. بطيئا.. وثقيلا.

ثم عاد المأمور ليسأل ليلى :

ـ وفيم كان نداؤك لأبيك، وهو ميت؟!

ـ كنت أنادى فيه الفنان، ليعبر عن هذا الموقف.

ـ يرسم القتيلة مثلا.. والقاتل.

ـ ويصور مأمور المركز، وهو "يتكعبل" فى ظله!!

ـ حتى المأمور يصوره؟!

ـ ليهديك الصورة.

ـ لكنك قلت أنه..

ـ.. مات! نعم مات.

ـ وكيف الميت يرسم؟

ـ فى يوم البعث يا مأمور.. سيرسم!!

ـ يا ...! هذا يوم لن يشهده المأمور، ولا أنت.

ـ اذن تذهب أنت اليه، قبل البعث!

ـ أين..؟

ـ فى الجنة!!

ـ آ.. فى الجنة، لكن حتى من فى الجنة ماتوا، قبل دخول الجنة!

ـ ولم لا تموت؟ أفأنت فوق الموت يا مأمور؟

ـ يا شيخة فضيها سيرة.

وأخذت ليلى تبكى فى حرقة وندم! كانت تتصور أن واجبها نحو الام، أن تفتديها هى ـ ليلى ـ فلا تتركها وحيدة تتحمل عبئا فوق الطاقة.

وبدأ يفد على مسكن ليلى وكلاء النائب العام.

وجلس كبيرهم إلى جوار ليلى، ليكون له معها حديث.

ـ من قتلها؟

ـ رجل.. رجل.

ـ وكيف قتلها؟

ـ بخنجر على شكل قرن غزال.

ـ ولماذا..؟

ـ لانه رجل.. رجل.

ـ وهل الرجال جميعا سفاحون؟

ـ لا أدرى!

ـ إذن فلماذا تتسرعين بإصدار الاحكام؟

ـ أنا أعرف شيئا واحدا أوصتنى به أمى.

ـ ما هو؟

ـ الا أثق فى أى رجل!!

ـ الأنهم جميعا قتله؟

ـ وكذابون.. غشاشون.. مزيفون!

ـ وما من أحد من الرجال برئ.

ـ.. العاجز.

ـ ولا سواه برئ؟!

ـ.. الغر الأبله!!

ـ إنك قاسية.. ما اسمك لأناديك به.

ـ ليلى.

ـ وبقية اسمك؟

ـ.. ليلى تكفي!!

□□□

4

□

□



□□

.. ولم يجد التحقيق مع ليلى.. شيئا!

إنها تعلم أن الذى قتل أمها رجل..! قتلها، وهى تدافع عن لوحة عايشتها يوما بيوم، وسهرت معها ليالى عدة، وكانت طوال المدة، تخاف على اللوحة... حتى صارت منها كابنتها ليلى، وهى بعد جنين، يتكون داخلها، ويتحرك.. فى قسوة حينا، وفى لين حينا آخر! فلما استوت أطلت على الدنيا، يسبقها صراخ المتخوف مما ينتظره!

تماما مثلما كانت لوحة زوجها الفنان تؤرقها وتؤرق مبدعها نفسه، ولكم لمعت عينا الزوج بالأمل فى لحظة، ثم انطفأت عيناه فخبا بريقها فى لحظة! ومع ذلك فقد ظل الزوج مشغولا بتشكيل اللوحة، بنبض فؤاده، وفيض من وجدانه ودمه كدفعه، يتدفق تارة، ويتدفق تارة أخرى، وهو مصر لا يكل ولا ييأس، حتى تمس الفكرة..لوحة من أروع إنتاجه!

أما القاتل الذى تسألها عنه السلطات.. فهو رجل تجرد من إحساسه!

.. رجل! ويكفى هذا، ليزور ويزيف.. وليقتل!

.. رجل! ككل رجل، غير جدير بثقة فيه!

.. رجل! وهذا يكفيه، ليصبح فى العقل الباطن من ليلى، حامل جرثومة سوء وغلظة وبغضاء!

.. رجل! أشعل كل حروب صدعت التاريخ وراح ضحيتها ملايين، من الأبرياء السذج!

.. رجل! وعلى الدوام رجل، قلب كيان العالم، ليخضع أو يركع!

وحاول المحقق أن تفسح له ليلى، مجالا ليؤدى عمله، لكن ليلى ظلت تتكلم، وتصب جام الغضب على الرجل.. بمعناه، لا بشخصه!

وصاح المحقق يقاطع ليلى :

ـ إنك لا تساعدين العدالة بعنادك هذا يا ليلى.

قالت ليلى :

- أعناد أن أتبع نصائح أمى؟

قال المحقق :

- وهل قصدت أمك كل رجال الدنيا، حتى ولو كان منهم ملائكة للرحمة؟

- ما هذا الذى أسمعه؟ إن ملائكة الرحمة يتبرأون من الرجل.. أى رجل!

قال المحقق :

- هأنذا رجل، وبودى أن أصل إلى العدل، ففى ظل العدل مصلحتك! ومصلحة الناس!

قالت ليلى وهى تشيح بوجهها عنه :

- رجل..! أنت أيضا رجل..!! وهذا فى ذاته يمنعنى من الاطمئنان إليك!

وهز الرجل رأسه يائسا منها.. ثم قال :

- أو تعرفين أن موقفك هذا، يهدر حقك فى أى دفاع عن نفسك؟ وفى هذه الحالة، لا يملك مثلى، الا أن يحجزك.. وهو آسف!!

قالت ليلى، فى كبرياء صبية كالبدر، وكالشهد تعلم أن جمالها يسبى:

ـ ما معنى تحجزنى؟ قل تسجننى، ولا تلف حول المعنى.. كأى رجل!

قال المحقق :

ـ إذن أؤدى الواجب، لأرضى عن نفسى!

قالت ليلى وهى تسخر :

ـ لست أخاف، تهديد رجل! كذلك فان السجن أحب الى، مما...

قال المحقق :

ـ كفاك.. أنا أعلم بقية ما فى نفسك.

قالت ليلى :

ـ إفعل ما تشاء، وهأنذا أمامك، ولن أهرب.. لا منك، ولا من سجنك!

وفى السجن جلست ليلى، فى حجرة غليظة الجدران، كئيبة!

وعادت إلى ماضيها كله، تستعرض ما حدث لها، ووجه حبيب يؤنس وحشتها، هو وجه الام، وقد جردها رجل وحش، من أن تحيا كسائر خلق الله... وتحب ليلى السجن، فقد أعطاها الفرصة لتلاقى أمها، وتحاورها، وتسمع منها، وتكاد أن تشعر بأنفاسها تمر على خديها، وهى تقبلها، وتمسح بيديها الحانيتين، جبينا ملأته تجاعيد المحنة!

وشعرت ليلى أنها لم تعد تحتاج لأن تغفو، أو أن تلجأ للنوم، ليأخذها إلى أحلام، تضاعف سنوات العمر، حين تصبح الأحلام، حياة أخرى.

وابتسمت لظلام السجن، وجدران السجن فقد أعطتها الفرصة، لتعيش فى دنيا، صنعتها بيديها!

ـ أفنصنع نحن حياتنا يا أماه؟

ـ طبعا يا ليلى.

ـ لكن كيف؟

ـ إن سعادة كل منا، من صنعه!

ـ وبؤسه..؟

ـ أيضا من صنعه.

ـ.. يا أماه!! سأكرر سؤالى أفنصنع نحن.. أنفسنا؟

ـ.. لا يا ليلى.. إن الله سبحانه هو خالقنا.

ـ ألم يخلق لكل منا.. ظروفه؟

ـ الله جل جلاله، خلق الخير كما خلق الشر.. وخلق الجنة كما خلق النار.

ـ.. والسعادة والبؤس؟

ـ.. أيضا من خلقه

ـ إذن هو ـ جل جلاله ـ وزع على كل منا نصيبه.

ـ لا يا ليلى.

ـ كيف يا أماه؟

ـ هو قد خلق لنا عقلا لنفكر، وقلبا لنحس ولنشعر..

ـ وحدد أنصبه الناس من الرزق أو السعد أو النحس...

ـ حاشا لله يا ليلى... أنصبه الناس تتوقف على كل منهم.

ـ كيف يا أماه؟ أفيقدر واحد منا على أن يكنز أكوام السعد مثلا، ليوزعها على من يرضى عنهم... صدقة؟!

ـ... تضحكيننى يا ملعونة! إنى لم أسمع من قبل أن فلانا تصدق على علان بالبسمات! أو بالدمعات!!

ـ يا أماه.. لا أفهم.

ـ ما دمت على هذا القدر من العجلة، فمن الصعب على أن أشرح... وأوضح! ثم... لماذا أنت عجول يا ليلى؟

ـ حظى.. أو فلتسمحى لى، إرادة ربى!

ـ أبدا. هذا هو ما تصنعينه. أنت بنفسك ولنفسك.. يا ليلى.

ـ تعنين يا أماه أنى حرة فى اختيار طريقى؟

ـ طبعا أنت حرة، وأنت كذلك مسئولة، عما ينتهى إليه مصيرك. إن الله خلقك، وخلق أباك، وخلقنى، وخلق لنا عالما فسيحا بغير حدود، ودنيا واسعة، فيها الجيد والردئ، وفيها الحلو والمر، وفيها الخير والشر، وفيها الحق والباطل، وفيها أيضا الحرية والاستعباد، لكنه خلق لنا فيما خلقه، فكرا يهدينا، وضميرا يرقبنا حتى لو لم ندر!

ـ.. وتركنا نختار مصائرنا، بسلوك يسلكه كل منا.

ـ ها أنت ذى يا ليلى قد فهمت.

ـ ولهذا يصبح كل منا مسئولا عما يختاره لنفسه.

ـ ولهذا وجب على كل منا، أن يتحمل مسئولية ما يعمل.

ـ ولهذا خلق الله الجنة، لمن أحسن اختيار طريقه، كما خلق النار لمن يعصى.

.. ولقد رأت ليلى فى السجن أباها الفنان!!

فى يوم من أيام السجن، وكانت شاردة تفكر، فى لا شئ، رأته... طيفا كالنور يحيط بها، ويأخذها فى حضنه، ويقبلها فوق جبين متعرج، وفوق الخدين، ويمسك كفيها لتصل اليه براءتها، ويصل اليها منه، الإصرار على الحق حتى الموت!

وأخذت تتحدث مع... والدها!!

وعجبت.. كيف؟

إن أبى لم يسجن، بل مات... ليتحرر من سجن الجسم وسجن الرغبة وسجن محاربة الآثام، وسجن مقاومة التزييف، والتضليل وشراء ذمة من يعصى!

أبى لم يسجن، فكيف أراه هنا، بين الجدران الصماء والصمت والتعذيب والرهبة؟ أفأبى هو المسجون، أم أكون أنا قد انتقلت اليه فى الجنة؟

أفيمكن أن يكون السجن، طريقا يقود إلى الجنة؟!

لكن لم لا؟ بل وكيف لا؟

الجنة غاية، أما السجن فوسيلة.

والذين يعانون فى الدنيا، سجناء الحاجة!

والعشاق فى مجتمع مغلق، من صبية وعذارى، سجناء الحرمان والمرضى، إن طالت علتهم صاروا سجناء الضعف!

وحتى من يستمتع بالصحة، سجين غرور أحمق!

ومن يملك أكثر مما يحتاج اليه ومئات من أهله، سجين الكبر والزهو والخيلاء!

والحكام ممن يتولون الأمر بالإرهاب، سجناء الخوف! بل هم من خوف الخوف، يخيفون الغير، ليعم الخوف نزلاء زمن منحوس!!

والمحكومون حين يضجون من الهول، سجناء الفزع ممن يحكمهم!

دنيا . والدنيا فوق سطح الكرة الأرضية تدور مع دوران الأرض، فيعلو من هو فى القاع، ويهبط من وقف على القمة!. لا هذا يرضى، ولا ذلك يقبل!!

وتبدأ صراعات لا أول لها ولا آخر!

ونسمع من فى القاع يتهم من هو أعلى بالجهل، ومنافقة الحاكم والرشوة، وفساد الذمة!

فاذا انقلب الموقف، مع دوران الارض، انقلبت كل النغمات!

وبدأت أصوات أخرى تعلو!

من هذا الذى يتحكم فينا؟ أفنسى ما كان فيه من الفاقة والعسر!

لكن زمانا قد يأتى، لتصبح فيه المزايا المطلوبة للشهرة والثروة احتلال القاع! أو قاع القاع! زمنا أطول! ومعاناة الفقر! والمشى حفاة فوق الأسفلت فى عز الظهر!

ومن يدرى ماذا يسفر عنه ما بعد غد؟! هل ترتفع مزايا الناس الى أدنى مثلا؟! فلا يوصف بالنبل إلا من تهب الناس، وأكل حقوق الأيتام، وقامر أو غامر، وأستحل لنفسه ما لا حق له فيه، واستعمل عصا التأديب، ليرتعد المذبون على وجه الأرض، من الخوف؟!

وتقول ليلى، بيقين قاطع، أنها تسمع ذلك كله من الاب الفنان :

امض يا أبتاه. امض بنا، فى مناقشة قضايا الأخلاق، فإنك أنت، أقوى من يتحدث عنها، أنت الفنان، وقد أبدعت بريشتك أجمل ما يعتز به الفن. ثم إنك لم تهمل ما أبدعته، ولم تفرط فيه، ولم تتكسب منه، ولم تسمح لأحد، بتزويره، أو تقليده، أو نسبته الى غير أبيه وعائلته.

قل لى يا أبى ما تريد أن تقوله، أو ما كنت تتمنى أن تقوله لو عشت لترانى.

قل لى ما لم تستطع أن تقوله لى، فقد كنت عندما ودعت الدنيا سرا فى ضمير الغيب، لم أهبط بعد إلى الدنيا، فلما أصبحت قادرة على الفهم، لم أجدك لتعلمنى، ووضعونى فى هذا السجن ولم يقدروا أن أعز ما صادقته طوال حياتى، هو أنى ألقاك اليوم، فى سجن مظلم! غليظ الجدران، بلا لمسة فن، تخفف حياة السجن على نزلائه!

وهانذا أراك وأسمع صوتك.

فماذا.. بعد؟! هل يقودنى هذا السجن إلى الجنة، سجناء الرغبة دخلوا الجنة، وسجناء المحنة دخلوا الجنة. وأنا؟.. من أنا؟ وهل أنا فى الطريق الى الجنة؟!

وشعرت ليلى، أن عليها أن تمر عن طريق الموت، لتصل إلى الجنة.

لكن كيف؟ أمها ذهبت ضحية وحش مسعور ومغرور! وقبلها ذهب أبوها، من ثقل الهم على قلبه! أما هى، فكيف يدير القدر نهايتها!

أتموت ضحية هم قاتل.. كأبيها؟

أم تذهب الى رحمة مولاها ضحية صعلوك يحترف القتل.. كما حدث للأم المسكينة.

.. ولم يكن عل ليلى أن تمد البصر، أكثر مما يجب عليها!

وأخذت ليلى تتفحص وجه أبيها..

إنه وجه رجل، فى سمته أنفة. وفى صوته رجولة. وقسماته حادة وواضحة، لا تتخفى ولا يختلف أحد مع أحد عليها فى التفسير ولا فى التأويل!

ثم.. هذا الأنف أشم.. لكنه لا يستعلى! أو يتعالى!!

وهذا الفم تحوطه شفتان مطبقتان، كمن يتكتم سرا، لا يريده ليذاع، فتعرفه عنه.. دنيا الفن.

وهذا الشعر الكثيف الأسود يدل على القوة والجبروت والإصرار.

.. وما أحلى ابتسامتك يا أبتاه! إنها تسبى، حتى عذارى البندر!

وما أجمل خطوات الواثق، حين تسير، فلا تتسلل كاللص!

ولا تتفادى أن تسمع! فانك لا تحتاج الى شئ من هذا أو ذاك!

يا أبتاه.. إنك قصة، ولست مجرد بطل من أبطال القصة، فكل الأبطال حولك أتباع، وأنت بينهم عملاق مارد! تؤدى دور الفتى الاول.

وقالت ليلى :

لكن أين أنت يا أماه؟ يبدو أن القتل فتح لك الباب، لتلقى أبى. وهذا أبى يحنو على، وكنت أنت الاولى منه بهذا.

أفيمكن أن تكونى مثلى، محجوزة تحت التحقيق؟

إذن ما فرق الآخرة من الأولى؟

إن كانت هذه هى تلك، فما معنى الجنة..؟

آ..ه! لا..!!.. لا يمكن، ومن غير أن تكونى فى النار!

النار عما نحن نعانيه.. يا أماه!

وسمعت ليلى طرقا عنيفا على باب الزنزانة، ثم انفتح الباب فى حذر وتمهل!!. وامتدت يد تلقى برغيف جاف وغموس لا تعرفه، على أرض الزنزانة، ثم عاد ستار الظلام يغطى جو الغرفة!! لتعود الى ما كانته!

ولم تحفل ليلى، بالاصناف التى وردت فى قائمة الدعوة!

إن الذى ألقى اليها بالطعام أو بالطعم.. رجل! وهذا فى ذاته سبب يسد النفس!

.. رجل يطعمنى!.. كما يضع الصياد الطعم فى السنارة!

.. رجل!.. يكفيه اسمه لتعاف النفس طعامه!

.. رجل! وهل يتصور رجل أنى أنتظر الرحمة من بين يديه!

... لا.. يا هذا..!!

ويمر بخاطر ليلى خاطر. أفكانت تلبى دعوة هذا السجن، لو أن الدعوة له، أتت من أنثى؟

لكن أية أنثى؟ ومن عساها تكون؟

سجانة؟! طبعا لابد من أن تكون سجانة!! فليس فى السجن إلا سجانون ومسجونون ، وكل من النوعين يشكو الآخر! أو يسخر منه! أو يكره هذا الآخر!

وقالت ليلى فى داخلها!

سجانة!! إن المرأة إذا عملت سجانة، لم تعد بعد أنثى!

سجانة!! فى طبعها غلظة، وفى تصرفاتها عنف.. وتسمى مع ذلك.. أنثى!! هى رجل تخفى فى ملبس أنثى؟!

●●●

وعاشت ليلى فترة، لا تحفل بالزمن يمر أو بالساعات.. تتوالى! لا تهتم. لا بطلوع الشمس، ولا بليال فضية، يملأها بدر مكتمل يزهو على الاجرام بنور شفاف حالم، تميز به.

وأدكت ليلى فلسفة الزمن بشكل لم يخطر لها من قبل على بال.

.. ومن ذا قسم اليوم إلى ساعات ودقائق؟ ومن ذا يحركنا لنتوه بين الأوقات المختلفة؟ أفليس خضوع الناس لعقارب ساعة، سجنا؟ وهل الزمن هو الساعة! ومرور

الزمن، هل يتقيد بعقارب تلف وتلف، فإن تقطعت منها الأنفاس، ملأوا صدر الساعة بالأكسجين! لتعود تلف وتلف، حتى تتلف! فان تلفت، فهل يقف الزمن أمامها فى حيرة؟ وماذا يصبح مصير الانسانية؟ أفتقف وتتجمد حتى يجدوا ساعة أو ساعات أخرى؟ وقد لا يجدون الا ساعة معطوبة، أو مجنونة.. تجرى، فلا يلحقها الناس! أو تغفو فلا يتعجل أحد، يقظتها!

●●●

.. نقلوها الى مستشفى السجن، لتعالج، فقد سقطت الصبية الحلوة والفتانة، فاقدة الوعى، منهكة القوة، تقف فلا تسندها ساقاها! وتتمدد، فلا ترضى بالتسليم بالامر الواقع!

وتجمعت عند أطباء المستشفى حكايات كالفوازير، تحتاج لحل، والحل لا يتأتى، إلا بذكاء خارق!

- ليلى لا تأكل!

- ولماذا لا تأكل؟

- لأن الطعام، يوزعه على المحتجزين.. رجل!

- وليلى لا تغمض جفنيها، بليل أو بنهار!

- غريب هذا، فبعض المسجونين يتحايل لينام لينسى هم السجن.

- لكن ليلى لم تعد قادرة على أن تتبين مرور الأوقات عليها.

- وهل هذا سبب يدفعها إلى عدم النوم؟

- ما دام الليل لا يأتى، أو لا تراه هى من زنزانتها قد خيم على الكائنات، فكيف تنام؟

- الناس تنام فى عز الظهر.

- لكن ليلى أيضا ترفض أن تنام بميقات.

- إذن ماذا تفعل؟

- ما دامت فى السجن، وهى تقول قد فقد الزمن مكانته فى النفس، فلماذا نصطنعه؟ لماذا نحن نصطنعه؟

- وليلى دائمة الحديث.. مع أوهام.

- أوهام؟ ومن أدراكم أنها أوهام؟

- حين تحدث ليلى أمها، وقد قتلت! بل هى نفسها.. هنا، بسبب مقتلها.. فهى تتحدث إذن مع أوهام!

- أو آلام.

- لكن الآلام، خفية، داخل نفس الانسان فى ليلى.

- وماذا أيضا؟

- تحدث أباها الفنان العملاق، وقد مات وهى بعد جنين.

- مسكينة.. يا ليلى!

- مسكينة وخسارة أيضا.

-.. أخسارة لانها أحلى وأجمل من حملت أرض الناس؟

- هى فعلا أجمل من رأينا من فتيات.

- وما علة ليلى.. يا دكتور؟

- علة ليلى، ألا علة!!

- غريبة..!

- إن المرض الذى تمر به ليلى، هو فى الواقع من صنع يديها.

- وكيف تعالج؟

- بيديها! فكما مرضت بيديها، فبنفس يديها هى.. تشفى!

ـ فان لم تفعل؟

ـ ولماذا لا تفعل؟

ـ لان الرغبة فى أن تشفى، لتعيش عمرها المكتوب.. مفقودة.

ـ هذا هو!.. والمطلوب أن تعود إليها هذه الرغبة.

ـ وكيف تعود؟

ـ بفتح شهيتها المسدودة.

ـ هذه كلمات كاللغز يا دكتور.

ـ لا لغز ولا ألغاز. نسأل أنفسنا عما يقنعها بحياة تطلبها.

ـ هى تطلب أن تكشف دنيا تزييف الفن، وسرقة أعمال الفنانين، لتتصف أعمال أبيها، وتحمى اسمه، فلا يغدو هو بين الموتى، وتجار الفن سعداء بما كسبوه من لوحاته، وبما ينوون أن يزيدوا لكسبهم، من أعمال أخرى، أنتجها بدمه وخفقات فؤاده، وصبره على المحن وهى وتتوالى، فيدوس المحنة بعد المحنة بقدميه.. ويمضى ينتج.

ـ إذن لا فائدة ترجى منها، ما لم تشعر بأنها فى الطريق إلى غايتها.

●●●

وفجأة حدثت معجزة كبرى! كأن القدر قد كان ينصت للتحليل الطبى عنها، فأراد أن ينصفها!

وثار فى عقل كل محقق، أن القدر يحالف ليلى!

وقال واحد منهم.. ما أعجب قدر الانسان.

وقال زميل آخر.. قدر الانسان، ترجمة لقدرته سبحانه.

وثالثهم قال.. صحيح ما قالوه.. فكل شئ بقدر.

.. ومضوا كل بكلام.

ـ إن الحب. كالكره.. قدر!

ـ وتردى إنسان العصر، وقدراته فى مواجهة الغدر.. قدر!

ـ وعقول الناس ـ حتى ونحن نحقق لنصل إلى العدل ـ بحكمها.. قدر!

ـ وليلى المسكينة، لا تتصرف أو تتحدى.. إلا.. بقدر!

ـ وهذا التحقيق بما يحمله من تحديد موقف ليلى.. قدر!

ـ حتى تحديد الطب لأمراض أصابت ليلى، من داخلها.. هى بالمثل.. قدر!

●●●

.. فجأة هبط على التحقيق عنصر هام، جعل رجال النيابة يشردون عن أنفسهم.

وصاح كبيرهم وهو يقول : أفلم تدر أحاديثنا جميعا.. عن ليلى، وعن القدر!!

هذا هو يأتى ليؤكد أن لكل منا.. قدرا..

وصاح كبير مساعديه يقول : وأين إرادة الإنسان، وهذا القدر؟

ورد كبير محققى حالة ليلى : لا تكمل، حتى لا تخطئ! إن القدر ليس بسجن! القدر يخلقه الله، لكن الإنسان يملك أن يستعمله.

وتدور أحاديث المحققين، ليختلط، كل حديث منها بالآخر.

- أفمن يخلق شيئا لا يملكه؟

- ومن يستعمل شيئا؟

- يصبح هذا الشئ من حقه.

- يعنى ذلك أن تئول الملكية له.

- الله خلق الكون، لكن للإنسان.. يعمره ليعيش على ثمراته.

- هذا ما لا يختلف عليه أحد.

- لكن هذا الكون مخلوق لمصلحة الإنسان.

-.. وبالفعل فان الإنسان يستعمله.

- ويعمر ويبنى ويشيد، وفقا لقوانين يضعها هذا الانسان لنفسه.

- وقد يغير فريق على أرض فريق آخر.

- وقد يبذل فريق جهدا أكبر، ليتم التطور أسرع.

- ومع هذا فالكون كله من خلق الله.

- وبهذا تصبح ملكيته لله.. وحده.

- ومن يعيشون على الأرض؟

ـ.... يعيشون عليها.

ـ وعند الغزو؟!

ـ يتحملون الوزر، لأنهم لم يصونوا نعمة الله عليهم.

ـ.. وليلى!

ـ وافاها قدر لم يحسبه أى منا.

ـ.. أفقدر عادل؟

ـ إن القدر على الدوام.. عادل

ـ لكن نتائجه تختلف فى حالة عنها فى حالة.

ـ لتفريط الانسان فيما يسره له مولاه.

●●●

وبدأ المحققون فى تهمة ليلى يستمعون، ويروى لهم رجال المباحث عما وجدوه.

لقد أستطاعت ليلى بالإصرار، أن تؤثر فى ضباط الشرطة.. وهم رجال!! وليلى لا تطيق رجلا، حتى لو كان ملاكا!

لكن ليلى كانت واثقة مما ترويه عن مقتل أمها، وهى تدافع عن عمل رائع، من أعمال الزوج الفنان. وكانت ليلى

تؤكد أن القاتل قد انتزع اللوحة، بعد جريمته الشنعاء، وهرب بها.

ولاحظ المحققون ورجال الشرطة، أن ليلى لم تغير حرفا قالته، ولم تبدل لفظا أو كلمة. أما إسرافها فيما كونته عن الرجل، وكل رجال الكون، فهذا رأى تبديه بكامل حريتها، وليس للآراء، حتى الشاذة، من تأثير على الحادث! وصمت ليلى لا يقوم دليلا بإدانتها.

قال كبير رجال التحقيق لمجموعة ضباط المباحث :

ـ خير.. ماذا وجدتموه من أدلة؟

وروى رجال الشرطة أنهم، وهم يستمعون لليلى، عرفوا أن الجانى كان قد ارتبط على بيع اللوحة لثرى كبير، يهوى الفن.. ومن يدرى فقد يهواه ويتاجر فيه مع ذلك.

إذن فاللوحة انتزعت لتسافر، والجريمة وقعت لتنتزع اللوحة! والفنان وقد مات، وليلى جنين، قد أوصى زوجته، بأن ترضع ليلى حب الفن والدفاع عن الفنان! وسيكون عليها أن تواجه عالما يحيا تحت الارض، يحارب بعض فيه، البعض الآخر! ويستعملون أخس أساليب التزييف، لتروج بضاعة تضليل الناس والكذب عليهم!

وبقدر ما يكون التزييف أفضل، بقدر ما يصبح المكسب أكبر!

وبقدر ما ينجح الجناة فى تشويه الفنان وفنه، بقدر ما يقبل المخدوعون على اقتناء هذا المسخ المدسوس، على الإبداع الفنى والتفوق فيه!

ويثور فضول بعض رجال التحقيق فيسألون عن هذا العالم، وهو يبدو زاهيا وجميلا، ألوانه تنطق بالطهر! وتشكيلاته فيها نبل وترفع! وتأثير الفن على الناس، يحملهم على الصمت! ليصبح كل اهتمام بالفن، فى أبصارهم.. ليروا ما عساه قد خفى عن الناس، وربما الزمن، يرونه يعطى للانسان حياة تتجدد، لا تتجمد!

وللتجارة فى هذا الفن، أساليب وحيل.

اما العنف، واستعمال أسلحة دمار الكون، والقتل، فشئ معتاد، لا يتضرر منه التجار، ولا يخافون.. أن يستشرى!

ويهز رجال المباحث رؤوسهم وهم يقولون :

عالم غريب ومثير، كأجهزة مخابرات الدول الكبرى، وهى تتحرك تحت الارض، لتسرق سر سلاح! أو تتعقب

زعيما يشعل الثورة ضد الظلم! أو يروج للشائعات لتصل إلى تضليل مقصود، يردى أمما وشعوبا!

هذا العالم فى دنيا الفن هو كالعالم فى دنيا السياسة أو دنيا الحرب، كل منها يلعب لعبة، والويل لمن يخرج على قواعد اللعبة، أو يتجاهل أمر الحكم ولديه صلاحيات شتى!

ويستعمل هذا الحشد من تجار التزييف أو زبانية التجسس، أفخر وسائل النقد، كما يقيمون فى أفخر فنادق الدنيا وفى ثانية تجدهم قد هبطوا الى أقذر الأحياء يتخفون فيها من حقائقهم ويرتكبون فيها جرائمهم!

ويقتل من قتل، ويذبح من يذبح، ويسير المجنون فى بحر من دم، وبعد ثوان، يصبح شابا وسيم الوجه رشيقا يرقص مع واحدة، قد تكون من عصابته السوداء! وقد تكون سيدة ذات براءة، فلا تتصور أن ذراع شريك فى الحلبة هو فى الواقع، ثعبان سام يبحث عن مكان ينفث سمه.

... وأخرى قد تؤخذ بلباقة واحد من أبناء هذا العالم المسحور، وتبدى الإعجاب.. بواحد ولا تدرى أنه الإعجاب بقاتل، فظ، عنيف، يعيش على المكر والغدر والدهاء.

... لعبة مثيرة، أهم أسلحة تملكها، الذكاء المتوقد، والجرأة والإقدام بغير تردد، وبيع النفس، ولو للشيطان.. وكل شئ بثمن!

قال واحد ممن يتولون التحقيق : وماذا يكسب واحد يضع رقبته على سن الرمح، فيجيبه خبراء العالم المسحور، أن المسألة لا تعدو أن تكون مقامرة بالنفس وبالروح، فان أفلت مقامر من خطر يتعقبه، ملك الدنيا! فان خسر فقد تعثر حظه! كما يتعثر حظ الانسان العادى، لسبب أو لغير سبب.

وأخذ كبير المحققين يسمع ويتخيل أن كثيرا من مدن العالم تعيش حياتها المعتادة، وتجرى فى شوارعها السيارات العامة، ودكاكين البيع مفتوحة وفيها آلاف الآلاف، يفحصون الأنواع والأصناف المختلفة، ويساومون الباعة، ويفكرون فيما ينقصهم!

وبينما الدنيا تسير فى صخب أو ضوضاء، والعشاق يختارون حدائق هادئة الطبع أليفة، ليهمس كل فى أذن فتاته، كلمات الحب، والشوق، والنار المتقدة تحرق ضلوع المحرومين!

...هذا كله شئ مألوف فوق الارض، فى أية بقعة.

وفى نفس اللحظة، تكون حياة أخرى تحت الارض، تجرى فى سرعة مجنونة تتشابك فيها مصالح الدول والجبهات، ويتسابق كل ليؤدى دورا، وعليه أن ينجح فيه، ولو على أشلاء ضحايا!! وقد يكون الثمن حياته، لانه ان عاش فقد يقتله زملاؤه!!

وتنفصل حياة الناس فوق الأرض، عما هى تحت الارض!

فوق الارض سباق للكسب، المشروع أو غير المشروع.. وتحت الأرض سباق على سرقة سر غامض، إن نجح السارق فى أن يسرقه، أصاب الهلع قلوبا سوداء، وبدأت حرب تحاول أن تتخفى، لكن ضحاياها من قتلى أو جرحى، يدلون عليها.

هذه هى صورة هذا العالم.

نكون فى مطعم فوق الأرض لننتقى أفضل طعام فيه!

ويكون من هم تحت الارض يتراشقون بالطلقات لينتقوا أكبر سر، من أسرار العدوان ليطعنوهم عند الحاجة، بسلاح من صنع أيديهم!

●●●

قال المحقق :

ـ دعونا اذن نتعرف على ما وصلتم اليه.

قال رجل المباحث :

ـ كان لابد لمن قتل الأم وانتزع اللوحة أن يغادر مصر على الفور ليتلاقى مع من اتفق معهم على شراء اللوحة.

قال المحقق :

ـ... ثم ماذا؟

قال رجل المباحث :

ـ ولم يكن فى الامكان، أن يذهب باللوحة دون الاحتياط الواجب ليخرج باللوحة فى الوضع المطلوب وإلا هبطت قيمتها.

قال المحقق :

ـ... كيف تهبط قيمتها؟

قال رجل المباحث :

ـ إن تزوير الفن كتزوير الآثار كلما نسبوا قطعا أثرية لعهد اخناتون أو رمسيس أو توت عنخ آمون، فذلك يرفع

قيمتها أضعافا، كذلك الحال فى الفن الحديث، كلما نسبوا العمل لرافائيل أو دافنشى، أو شاجال، أو بيكاسو، تضاعف أثمان اللوحات.

قال المحقق :

ـ تضاعف؟.. كم ضعفا مثلا؟

قال رجل المباحث :

ـ قد أحكى لك عن أرقام فلكية، لا يصدقها عقل.

قال المحقق :

ـ مثلا..

قال رجل المباحث :

ـ القطعة الاثرية من عهد فرعونى مشهور. قد تصل الى عشرة ملايين من الدولارات!

وفتح المحقق فمه، وأخذ يتصور أن ذلك مبلغ يغطى مرتبه ومرتب مساعديه، والإداريين معه، لعدة أجيال.. لكنه طرد الفكرة من ذهنه حين وسوس إليه شيطان سافل، أن قطعة أثرية واحدة تغنية عن كل ما هو فيه، من إرهاق، وضيق ذات يده.

قال المحقق :

- شئ يغرى أصحاب النفوس الصغيرة.

إن المحقق يريد أن يسفه العمل، ويهبط بقيمته لطرد الوسواس الخناس، الذى وسوس له وسوسة.. مستحيلة!

قال رجل المباحث :

- طبعا يغرى، حى أثرياء الناس.

قال المحقق :

- وفى سوق الفن الحديث...

قال رجل المباحث :

- نفس الوضع، ونفس القيمة، ولقد ترتفع لوحة لبيكاسو عن أثر من آثار إخناتون!. كل ذلك يحكمه ذوق البائع والشارى، والمناسبة التى تتم بها الصفقة.

قال المحقق:

- طيب فهمت.

قال رجل المباحث :

- إن الثروات التى تدير هذا النوع من الإتجار بالفن، ضخمة وبلا حد وهى تنقسم الى أكثر من نوع، كل يختص بشئ.

قال المحقق :

ـ حدثنى عن الآثار وعن لوحات الفن.

قال رجل المباحث :

ـ الجواهر النادرة، ذات الاحجار غالية القيمة، وفيها قطع لا تتكرر! لأنها تصنع خصيصا لملك أو أمير وبشرط أن يكون فريدا، وأن يسجل عند كبار تجار الجواهر ليعرف كل المتعاملين فى هذه الاسواق، إن جواهر الملكة أوجينى مثلا، تتميز بمزايا لا تتكرر! أو أن جواهر بونابرت لعشيقاته تنفرد بأحجار لم تستعمل من قبل، أو أن ولى عهد ايران، قد قدم أغلى جوهرة فى الدنيا لأميرة مصرية كانت زوجته الأولى!

قال المحقق :

ـ إن الكلام فى هذا يا صاحبى، يدير الرأس، حتى لأتصور أن هذه الأسواق، تربح أكثر مما تحققه تجارة المخدرات مثلا.

قال رجل المباحث :

ـ أخطر! فتاجر المخدرات يعلم أنه مخالف للقانون، أما تجارة التحف الفنية والآثار، والجواهر ذات القيمة، فهى تتم

بوسائل متقنة وذكية، فلا يستطيع رجال الشرطة أو القانون أن يقيموا الدعوة على مرتكبيها.

قال المحقق وهو يهز رأسه على أثر صداع :

ـ كيف؟ لا أحد فوق القانون أو المساءلة!

قال رجل الشرطة :

ـ نعم!الحق معك. لكن علام يسأل، من يتجر فى هذه المواد ذات القيمة غير المحدودة؟

قال المحقق :

ـ على أى حال هذا شأن يختص برجال القانون لا بالشرطة..

قال رجل الشرطة :

ـ الشرطة جزء من السلطات القانونية. نحن ننفذ لك، ولولا الشرطة لظلت أحكام القضاء حبرا على ورق..!

●●●

ـ... وأتت ليلى من السجن المظلم! أتت لتجلس أمام المحققين رافعة الرأس أبية، تترفع عن كل الموجودين..

أفليسوا رجالا! وما دام المحقق رجلا، فالمتهمة عند الرجل هى الانثى! ودار رأس ليلى، وهى تنظر فى كبرياء وتعال نحو هذا الطوق من الرجال، وهو يحيط بها!

أحصار هذا؟ أم نوع من حماية أنثى؟

ان كان حصارا.. فليلى قادرة على تحطيمه، وإن كل حماية أنثى.. فمن من؟ أمن أنثى أخرى، وليس بين هذا الطوق أنثيات؟ أم من رجل غادر فاجر، صفيق الوجه، كالح التعبير؟ وفى نفسها قالت لنفسها : انى بعون الله قادرة على مواجهة الدنيا وحدى وسيدفع من يعادينى أو يحاول أن يعتدى على ليلى.. عمره!!

قالت ليلى فى حدة :

ـ أفنحن هنا ليتأمل كل منا الآخر؟ عن نفسى أنا لا أرى فى أى وجه من وجوهكم الصفراء، الا ضعفا أو خوفا أو ذلا استبد بكم.

قال كبير المحققين :

ـ يا ليلى لا تسيئى الظن بنا. إننا نحرص على مصلحتك.

قالت ليلى فى استنكار :

ـ مصلحتى أنا أعرفها، وأحرص عليها أكثر مما تفعل.

وقدم كبير المحققين، سلسلة فضية، رقيقة الذوق تدل على من قدمها، وقد علقت فيها قطعة فضية بيضاوية، أرق من السلسة التى تحملها، وعليها توقيع، بدا وكأنه خرطوشة فرعونية!

ووثبت ليلى، وهى ترى ما يعرضه النائب، الذى يحقق القضية، ومدت يدها تخطف السلسلة الفضية، وهى تصيح، ودموعها تنحدر على خديها :

ـ هذه سلسلة أمى!

وضمت ليلى السلسلة الى صدرها، ثم قالت :

ـ هدية أبى الى زوجته وحبيبة روحه، وضحية الدفاع عن أعماله.

وأخذت ليلى تتحسس السلسلة، وتتحسس مع ذلك القطعة البيضاوية، التى تتدلى منها.. ثم تقول كطفلة :

ـ وهذا توقيع أبى. اختاره الفنان المبدع، ليدل عليه هو دون سواه، وقالوا له :

لماذا لا تختار شعارا عربيا، أو إسلاميا.. لكن أمى روت عنه، أنه أراد أن يزداد ارتباطه ببلاده، ليغور فى أعماق

التاريخ إلى العصر الذى لا يختلط بعصر آخر أو يتشابه معه، ولو أنه وجد فيما يعرفه عن عصر ما قبل التاريخ، ما يتخذه شعارا لأعماله، لما تردد فى أن يسبق بسنوات ما قبل التاريخ، العصر التاريخى.

وعادت ليلى طفلة، وجدت فجأة لعبة ضاعت منها، فأخذتها لتحيطها بالأشواق، وبالدمع، وبالضحكات، وبكل ما تنفعل به صبية، فى فصل ربيع، وربيع الأنثى الحلوة.. لا ينفذ! وهو.. دائم! أما ليلى، فلها ربيع تفوح منه رائحة الزهو معا. وسيم ليس له شبيه.

قال المحقق :

ـ أفتذكرين يا ليلى أن أمك المسكينة كانت تلبسها؟

وأجابت ليلى :

ـ.. بل ولم تخلعها يوما.

قال المحقق :

ـ وفى يوم الحادث المشئوم..

قالت ليلى :

- كانت تتدلى هذه السلسة حول رقبتها، فى ذلك اليوم، كما كانت تتدلى.. كل يوم.

قال المحقق :

- أفأنت واثقة يا ليلى؟

قالت ليلى :

- إن نساء الدنيا يخلعن السلاسل حول الرقبة، أو الحلقان فى الأذنين، أو الاساور حول المعصم، لينمن مرتاحات.

قال المحقق :

-.... اذن...

قالت ليلى تقاطعه :

- إلا أمى، ما رأيتها قط خلعت هذه السلسة من حول رقبتها.

قال المحقق :

- وهل تذكرين أن السلسلة كانت حول رقبتها يوم الحادث؟

قالت ليلى :

ـكل يوم، وكل ساعة، وكل دقيقة، كانت تتمسك بالسلسلة حول رقبتها.

قال المحقق :

ـ كيف إذن ضاعت منها؟

قالت ليلى :

ـ ضاعت!! هذا كلام ساذج!! لابد أن القاتل الشرير، قد اضطر الى نزع السلسلة من رقبتها، فى محاولة ليخنق أمى! أو فى القليل ليضعف مقاومتها!

وأضافت ليلى :

ـ لكنى مع ذلك أقطع بأن هذه السلسلة هى سلسلة أمى، وأنها لم تخلعها أبدا، قط طوال حياتهما معها.

قال المحقق :

ـ ولماذا كانت ترتديها ولا تخلعها أبدا؟

قالت ليلى تسخر :

ـ اسألها هى يا سعادة النائب!

قال المحقق ليجاريها :

ـ الميت لا يجيب على السؤال يا جناب المتهمة!

قالت ليلى :

ـ فإن سألتها أنا .. فهل تظن أنها ستجيب؟

قال المحقق :

ـ وبعد معك..؟

قالت ليلى :

ـ لابد هناك، ولا قبل! أنا فى السجن، وفى وسعك أن تقتلنى! فلماذا لا تفعل؟ أرجو أن تفعل، لترتاح.. وأرتاح معك.

قال المحقق :

ـ فى أحيان تكونين كالنسيم.. رقيقة! وفى أحيان أخرى تكونين كالعاصفة هوجاء!

قالت ليلى :

ـ كذلك أنت تبدو فى أحيان أشهم رجل فى الدنيا، ولكن فى أحيان أخرى تبدو.. هل أكمل؟

قال المحقق :

ـ لا لا . هذا يكفى ويزيد

قالت ليلى :

ـ ومع ذلك فسأريحك. اعلم يا سعادة النائب، أن علاقة أمى بأبى، لم تكن علاقة زوجة بزوج فنان.إنما نشأت هذه العلاقة من مشاركة وجدانية وعقلية ونفسية وفنية.. نمت.. ثم نمت.. ثم نمت، حتى صارت هذه العلاقة أعمق من علاقة زوجين، تزوجها، ليأنس إليها، ويحقق سكينة نفسه بين يديها.

هى تتصور أنهما كانا يشتاقان، كل للآخر، وهما جالسان متجاوران، فى المحراب، ومحراب الفن يا سعادة النائب هو عند الفنان كقدس الأقداس! فهو يلقى فيه الله، ليزوده بالقدرة والرؤية وبمعرفة الأشياء من داخلها، أو معرفة ما بعد طبائعها.

لهذا فان طبيعة هذا العشق، لا تخضع لمقاييس زواج، أتمته خاطبة مأجورة! إن السلسلة كانت هدية أبى الى أمى، وتوقيعه يتدلى منها، أفلا تعرف معنى التوقيع؟ إن التوقيع

هو الشخصية.. ومن التوقيع تتعرف على أخلاق صاحب هذا التوقيع، ولو تأملت التوقيعات، وتعمقت معانيها، لوجدتها أشخاصا تنطق بما يعكس شخصية كل منهم.

أمى يا سعادة المحقق، كانت تعلق توقيع أبى على أقرب مكان من قلبها.

أمى يا سعادة المحقق، كانت تشعر أن أبى معها، ما دام هذا التوقيع يؤنس وحشتها.. أفهمت.

●●●

واعتدل المحقق، وهو يرى فى ليلى نموذجا آخر من الناس وكان عليه أن يسألها، كيف تفسر العثور على السلسلة فى مطار القاهرة الدولى، تحت أحد الكراسى، كأنما عمد من وضعها إلى أن يداريها.

قالت ليلى :

ـ.. إيه؟ ما هذا؟ تحت المقعد فى مطار القاهرة الدولى؟

قال المحقق :

ـ نعم. لولا أن المباحث كانت تراقب كل مخرج يمكن أن يهرب منه القاتل والسارق لما عثر على هذه السلسلة أحد!

ولو عثر عليها أحد فقد كان يمكن أن يحتفظ بها لنفسه، فهى قطعة فنية جميلة ورقيقة. فلتصبح اذن من نصيبه!

وطلب المحقق من رجل المباحث أن يفسر العثور عليها فى ضوء ما وصلت اليه أبحاثه وتحرياته.. وقال رجل المباحث أن الأرجح أنه أثناء محاولة انتزاع اللوحة، تشابك مع القتيلة، وكانت تدفعه بعيدا عن اللوحة بكل قوتها فرد عليها بدوره بكل ما يملكه من قوة فشد السلسلة الفضية ليضعف مقاومة القتيلة. فلما تخلص منها، انتزع اللوحة وظلت السلسلة معه، وفى المطار كان عليه أن يتخلص من دليل اتهامه وهو هذه السلسلة الفضية.

قالت ليلى وقد تملكها الغضب :

ـ اذن فهذا هو الدليل المادى أمامكم. القاتل اذن قد كشف عن نفسه، فحاولوا أن تجدوه، حيث ذهب.

قال المحقق :

ـ ليس أمامنا إلا أن نبلغ البوليس الدولى، بكل المعلومات المتوافرة لدينا فلعل الشرير القاتل يقع فى أيديهم.

... وصمتت ليلى ولم تعد قادرة على أن تتكلم، وشردت ليلى عن نفسها وعن كل العالم من حولها!

وبدا كبير المحققين يتشاور مع مساعديه.. فلما انتهوا جميعا الى رأى قال كبير المحققين :

ـ سنفرج عنك يا ليلى..

ولم ترد ليلى.. لم تكن تسمع لترد.. لقد ركزت كل حواسها حول أبيها الفنان المبدع وأمها العاشقة للزوج وفن الزوج وحول ظروف جدت تطالبها بعمل.

لكن أى عمل؟

ما كانت ليلى.. تدرى!

قالت لكبير المحققين معها :

ـ هل للمتهم أن يطلب شيئا من سجانه.

وأسرع كبير المحققين يقول :

ـ أمرك.. ماذا تريدين على أننا لسنا سجانين لك ولا حد غيرك؟

قالت ليلى وهى تتبرم من جرأة الرجل :

ـ لقد كنت اذن ولا أزال حتى الآن فى رحلة، على كل أنا أطلب ألا يتسرب خبر الافراج عنى لأحد.

قال كبير المحققين :

لك هذا .. لكن لماذا؟

قالت ليلى :

ـ وهل هذا الطلب فى حاجة لمذكرة إيضاحية؟

هز كبير المحققين رأسه ونظر حواليه، ليجد أعوانه، ورجال الشرطة كل يطبق شفتيه على ضحكة مكتومة.

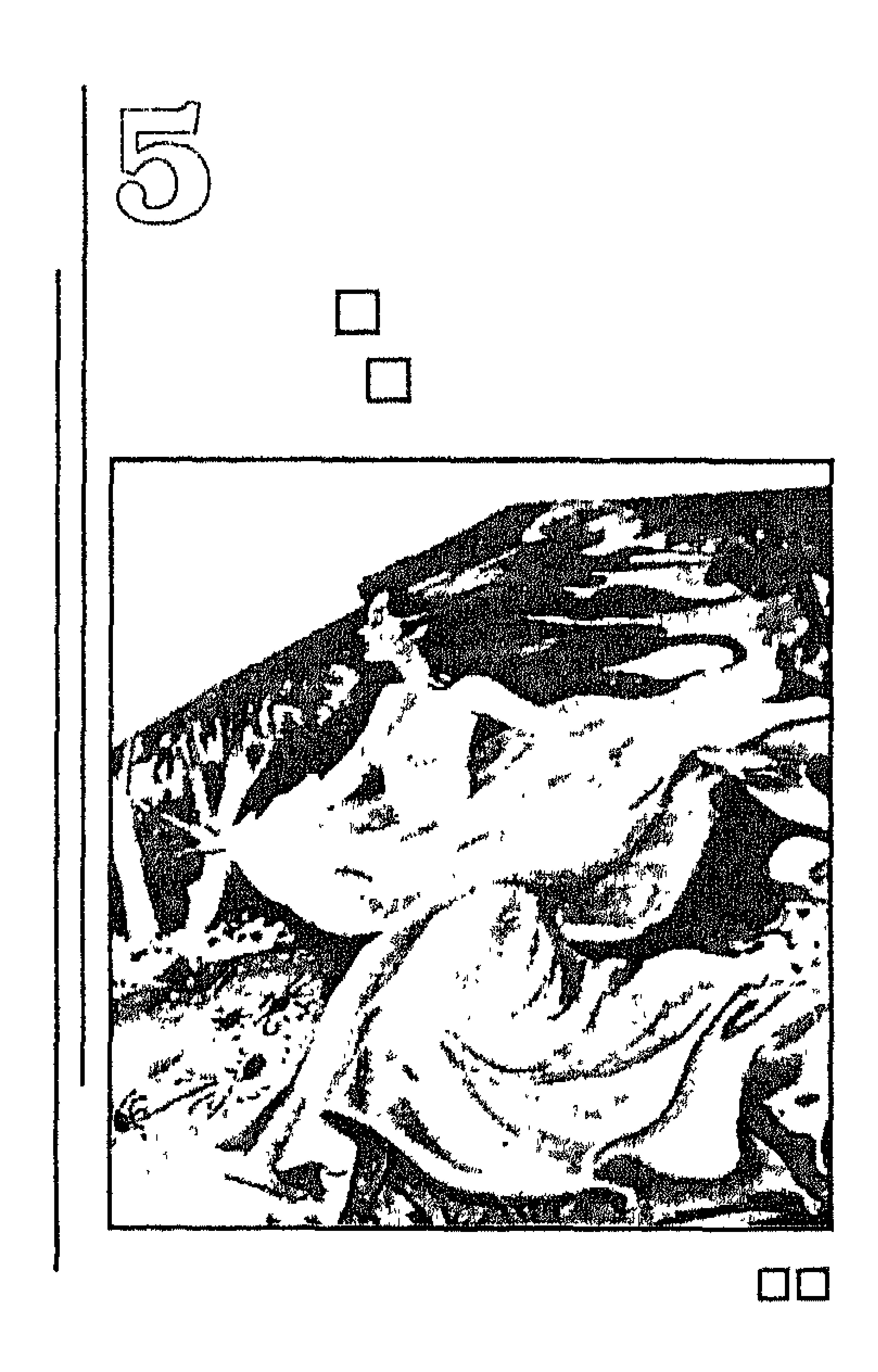
وضحك الرجل فضحك كل من كانوا حوله..

...إلا ليلى..

□□□

5

□
□



□□

عندما دخلت ليلى مسكنها، أخذت تعدو بين الحجرات، كرضيع يبحث عن ثدى الأم، لتروى غلتها. وترطب شفتين تشققتا من عطش الايام!

لكنها وقفت عند مكان اللوحة المسروقة، فلم تر أن مكانها، قد خلا منها! اللوحة كانت فى نفس مكانها، من محراب أبيها!

ها هى ذى، بألوان رائعة، تكاد من روعتها.. تنطق!

وخطوط الرسام هنا مناسبة، كالموج.. تداعبه نسمات الفجر!

والفنان هنا لا يقدم شكلا.. مجرد شكل!.. لكنه يقدم ما هو خلف الشكل من معنى، يدق على الفهم، ولا يتذوقه غير النساك، وهم يتجهون نحو القبلة، يملؤها صفاء لم يعرفه من قبل أحد.

وفجأة تسيل دموع من عينى ليلى، فلا تكاد ترى شيئا!

وتمسح ليلى عينيها، فتبين لها الأشياء، كما لم ترها، وهى مخدرة بمحنة أم قتلت، وذكرى أب عملاق.. تماما كزجاج تهطل عليه الأمطار، فتحجب رؤية الأشياء عن الناس، فإذا جففه أحد، صارت رؤية الشئ كما هو.. لا كما يتخيله الرائى من خلال نقط الماء.. وهنا صاحت ليلى صيحتها المكتومة.. هذا مكانها خلا منها! يا لوحة فنان فذ.. أين تكونين الآن؟ إنك أختى يا لوحة أبى، فقد كانت لوحاته، كبناته.. يحرص عليهن، فلا تنزلق واحدة منهن، إلى الوحل! فإن الوحل يلوث.. حتى من ينجو!!

وأسندت ليلى رأسها على المكان الخالى، لتتحدث مع نفسها، كما يحلو لها أن تفعل.. أفأصلح بديلا عنك يا معجزة الفنان.. يا أختى؟ إنى أعترف لك يا أختاه، بعجزى عن أن أبقى ثابتة فى مكان واحد، سنوات وسنوات!!

-.. ولم لا؟

- لأنى أخت اللوحة.. لا اللوحة!

- أفلا تتشابه أختان؟

ـ فيم؟

ـ فى الشكل.

ـ يجوز.

ـ وفى القدرة..؟

ـ هنا تختلفان..

ـ وبينهما تشابه مع ذلك.

ـ نعم. لكن بينهما فروقا أيضا.

ـ مثل.. ماذا؟

ـ اللوحة أختى قادرة على أن تبقى ساكنة ساكتة طوال العمر.

ـ.. وأنت؟

ـ أن أتجمد فهى النهاية دون جدال.

ـ لماذا..؟

ـ أختى لا تأكل، ولا تشرب!

ـ وأنت؟

ـ.. وأنا.. إنسانة.

ـ وأختك ـ بلا أكل أو شرب ـ أطول عمرا منك.

ـ طبيعتها ..!

ـ ولماذا لا تحذين حذو الأخت الكبرى؟

ـ لأنى لا أقدر! أنا أعجز من أن أقدر!!

ـ.. ومع ذلك.. فأنت على شاكلتها..

ـ ليتنى كنت قريبة منها.

ـ إنك يا ليلى.. أجمل.

ـ.. كل الناس، مع كل الناس.. تبالغ!

ـ ألم يقل لك أحد ماذا فى عينيك؟

ـ.. دموع!

ـ وبسمات هادئة.. عذبة.

ـ هل تظهر بسمات الإنسان، وهو يبكى؟

ـ فى أحيان أخرى، تتحول الضحكات إلى دمع يجرى!

ـ يا عجبا يا ليلى!

ـ ماذا ..؟ ولماذا؟

ـ لأن نهايات الاشياء.. تتلاقى!

ـ هل الضحك إذا اشتد، كالدمع إذا فاض؟

ـ هى نظرية، لكن مفرغة من داخلها!

ـ بل هى مأخوذة عن أرض الواقع.

ـ أفتتلاقى أمانة وخيانة..؟

ـ فى الأعماق تلتقيان..!

ـ وفى الثمرات؟

ـ إن تكن الأمانة تقود إلى السكينة والاطمئنان.. فالخيانة..

ـ تحفز على اليقظة، فلا تستشرى!

●●●

ومضت ليلى تسير فى جنبات المنزل، وتقف عند الذكريات، حلوة أو مرة، ويدور فى خلد الصبية الحسناء، أن الذكريات هى حياة الناس، وبغيرها، تفقد دنيانا معناها، وتمضى ليلى تطوف فى جنبات المسكن وتتحدث ليلى الى ليلى!

هنا أذكر ان القتيلة أمى، كانت تلعب معى ألعابا شتى.

قطار يتحرك اذا ملأوه! قالت أمى عنه، أن أبى اشتراه لى قبل أن أولد ليسبقنى الى الدنيا! وقالت أمى : كثير من هذه اللعب التى تتحرك، أبوك عاد بها، مع لوحاته! وكان يقول لى : هذه اللعب لمن تلدين، وهى كاللوحات جزء منى! لقد درت عواصم العالم أبحث عنها، وفى حالات، كنت أوفر ثمن غذاء أو ثمن عشاء، لأوفر ثمن اللعب لتسلى من يخرج الى الدنيا من صلبى ، ويحمل إسمى، ويدور على المجتمعات فيشير اليه الناس ويقولون : هذا ابن فلان، أو هذه بنته، وبودى يا حبة عينى، يا رفيقة عمرى أن يكبر من أنجب.. فتى أو فتاة سيان! سأكون سعيدا فى آخرتى. لو صار ولدى أو صارت بنتى أكثر قدرة، وأصفى موهبة منى.

وتمضى ليلى تتذكر، فكل المحتويات هنا هى فى الواقع أكبر عمرا منها! والمثل يقول : من يكبرك بيوم يعرف أكثر منك بعام.

وتحسست ليلى جدران المسكن، لتطمئن على أخواتها! وهن يظهرن الشوق اليها، بعد غيبتها أياما وليالى.

●●●

وتجمدت ليلى فى طرقة تقود إلى المطبخ وأخذت تسمع، وتركز كل حواس تملكها، فى أذنيها.

وسمعت كلاما مختصرا بين اثنين، لكنها لم تفهم لغة حديثهما.

... أجنبيان!.. لا بد أنهما أجنبيان!..

كانت ليلى تعرف الإنجليزية والفرنسية، لكن اللغة التى سمعتها لم تكن لا هذه أو تلك...

وبعد دقائق، دار الرجلان خلالها فى أكثر الأماكن من مسكنها كثافة باللوحات.. ثم عادا فأختفيا.

ونوت ليلى نية، وبدأت على الفور تنفيذها.

أتت بجهاز تسجيل حساس، وقوى، وزودته بأشرطة تكفى! لتسجيل أى كلام يدور بعد ذلك فى مسكنها، بين أناس غرباء، يتكلمون لغة لا تعرفها.

وكانت ليلى تتوقع أن يعود الرجلان، فقد عادت، كما ذهبت فى السر، وما عرف الناس بعودتها.. لقد حبست تحت التحقيق، فى جناية قتل! وكانت ليلى متهمة، أو.. تدور حولها شبهات فى جناية ذهبت أمها..!! ضحيتها! فكيف تعود، والقضية لم تنظر بعد؟

وتصورت ليلى أن العالم السفلى، قد بدأ يتحرك.

وعندما تصبح المعركة فى ساحة هذا العالم فهى إذن معركة شرسة وخطيرة، فلصوص الآثار والفن بأنواعه، والمجوهرات والأحجار الكريمة، هم من أعلى مستوى المشتغلين بالتهريب، وهم كذلك من أغناهم. إن خاتم ماس، يحمله اللص فى جيبه، يدر عليه من الأرباح أكثر من ربحه لو فتح خزانة بنك معروف.

وفوق التعرض للأخطار، يحسبه المهربون، على أنه مكسب! يضاف الى أرباح العملية!

وفى دنيا التهريب، أرواح المغامرين لا ثمن لها! ودماء ضحايا معارك ما هو تحت الأرض، لها لون كألوان الرسم.. والرسام..

.. ولم تكمل ليلى، لبشاعة ما دار بخاطرها عن لون الدم، وألوان يستعملها الرسامون.

●●●

وأخذت ليلى تفكر فى أسلوب تضبط به أى مغامر، يكرر زيارته لها. لابد أن من سمعتهما، لم يكونا فى المسكن الا

لمعاينة اللوحات وانتقاء أجملها أو أقواها أو أرقها، وفى المرات القادمة، يسرقان اللوحات المختارة ثم يفران..

وارتاحت ليلى الى فكرة تسجيل الأصوات.

ولكن من ذا يسجل بصمات، من يتحسسون اللوحات؟

وبرغم صعوبة تسجيل البصمات، فإنها لم تيأس من الوصول الى تنفيذها.

وأخذت ليلى تسأل ليلى..

ماذا تراها تفعل لو جاء الرجلان، وأى رجال بعدهما، للسطو على هذا الكنز الرائع، من فن أبيها؟

ولكن ليلى قد عودت نفسها، منذ كانت طفلة. ألا تسبق الاحداث، فان توقع المكروه، أثقل من وقعه!

●●●

وحاولت ليلى - وهى تواجه الخطر المتوقع - أن تخطر رجال الشرطة ليقفوا معها؟ أم أن إخطار الشرطة فى ذاته خطأ فاحش، إن المهربين لهم عيون فى كل مكان، ولا تستبعد ليلى أن تمتد عيون لصوص الفن، إلى أقسام الشرطة، فتصل إليهم الأخبار بكامل حسن النيه، أو لأسباب أخرى..!!

لكنها عادت إلى وصية والدها، عن حمايتها للفن، والذود عن حقوق الفنانين بعيدا عن تحطيم الفن، واغتصاب عمل الفنان لفنان آخر، لتحقيق مزيد من شهرة هذا الفنان، بالأبواق عالية الصوت لا بالموهبة وهى أعمق أثرا، حتى بلا صوت يصدر عنها.

ورأت ليلى أن تواجه كل خطر، بنفسها هى، حتى لو دفعت عمرها ثمنا لتنفيذ ما أوصى به والدها.

ـ... هل أقتل أنا الاخرى؟

ـ الكلب المسعور، يعض الناس، وهو لا يعرف أنه بذلك يقتلهم.

ـ إذن سأموت! وما الموت؟. أبى مات وأمى لحقت به، وصرت وحيدة.

ـ لكن أباك يريدك لتعيشى!..

ـ فإن عز العيش، فالموت إذن أحب.

ـ.. عندما تجئ ساعة حى فهو يموت وليس لنا فى ذلك حيلة.

ـ فان قتل.. فهل يسبق مقتله، ساعة موته؟ أو يتأخر عنها؟

ـ... القتل غدر بالناس، وأعمار الناس.

ـ ومع ذلك فهو لا يأخذ أحدا قبل الموعد!

ـ وما الموعد؟

ـ إن الغيب هو الغيب لا يعرفه إلا الله.

●●●

وجاءت فرصة ليلى، حين سمعت حركة فى مسكنها، وسكتت لتتعرف على الأصوات..وخيل لليلى أنهما نفس الشخصين، وكانا يتحاوران بلغة لا تعرفها! لكنها فى أذنيها كنفس ما سمعته منهما من قبل.

وأنكرت ليلى للحظة، أن تعرف أن اللغة، نفس اللغة تكررت على أذنيها.

وليلى شاعرة بالفطرة، والشاعر يتعرف على سواه من الشعراء من لغته! ومن أوزانه!

وليلى مدربة على أن تتحدث مع ليلى الأخرى فى داخلها، حتى، وهى تواجه محنة!

عرفت حياة الاحلام، لتضاعف سنوات العمر، وتكثف تجارب خاضتها، ومن الحديث مع النفس، عرفت كيف

تحاور شخوصا مختلفة، فتتسع بذلك دائرة معارفها، وإن لم تلتق بهم من قبل!..

قالت ليلى.. لليلى : وكيف تتعرفين على لغة لم يعتد عليها لسانك؟

وقالت ليلى، ترد على ليلى : كل لغة بنغم! كالألحان!

وعادت ليلى تسأل ليلى : والشعر! كيف تتعرفين على الشاعر من شعره؟

وأجابت ليلى.. ليلى الكامنة داخلها : إن بحور الشعر مختلفة ولكل شاعر ميل خاص نحو البحر الذى يناسب معنى أشعاره!

... وضحكت ليلى، وهى تعجب من ليلى الأخرى! ووقفت على أطراف أصابعها. لتتصرف عند الحاجة.. ومع ذلك، فقد بدأت تسجل للضيفين، ما يقوله كل منهما للآخر.. لتحل رموز الشفرة.

لكن الضيفين!.. أهما ضيفان أم أنهما لصان محترفان؟ لكنها عادت ترد وتقول : السارق أيضا ضيف، والفرق بين الضيف واللص. أن اللص يخترق البيت بلا استئذان!!

لكنها كادت تصيح من فرط الغيظ : لكن هذا غزو للبيت، والغازى لا يصبح أبدا.. ضيفا!

أبدا!!. الغازى لا يصبح ضيفا! هذا حق! لكن الواقع أن اللص يتحايل لدخول البيت، فى حين يقاوم أصحاب البيت وجوده حتى يرحل!

لكن اللصين وضعا، لحوار ليلى مع ليلى نهاية، ولو موقوتة!

اتفقا على أن يعودا يوما آخر، لحمل اللوحات، ويختفيا بعد ذلك لا يعرف أحد شيئا عما فعلاه! حتى لو كان هذا الأحد، ذبابا أزرق!

ومضت ليلى تنتظر عودة لصيها!!

وعرفت مما سجلته لهما أنهما اختارا اللوحات ذات الجذب، واتفقا على من ينسبون إليه أعمال أبيها!!

ووجدت ليلى أنها تصيح فى فراغ المسكن بأعلى صوت تملكه، يا فجرة تزورون أعمال أبى بنسبتها إلى رسام آخر، ثمنه أغلى فى أسواق رقيق! يا كلاب الفن المسعورة، كيف تبررون، لأنفسكم، خطف الأبناء من حضن أبيهم، لتكسبوا

أنتم أكبر كسب تصل اليه أياديكم؟! آه لو أن اللوحات نطقت!! لفضحتكم!! بكشف التزوير وإعطاء الحق لأصحابه.

وجاء اللصان!!

اللصان جاءا يا ليلى!! هيا إلى مخبئك لنرى ماذا يحدث!

لكن ليلى كانت قد قررت أن تسلك سلوكا آخر!

ظلت واقفة فى وسط القاعة.

ولم يرها أحد اللصين!.. كانت تتدثر بظلام هادئ ورزين والقادم من الخارج، يحتاج إلى وقت ليألف هذى الظلمة.. تماما كما يحدث بالعكس! المحبوس فى مكان مظلم يحتاج إلى وقت لتزول عن عينيه مفاجأة النور الوهاج.

لكن أحد اللصين، كان يسير وهو يتلفت نحو اللوحات فاصطدم بليلى!.. ورآها تمثالا للفتنة، فانطلقت منه صيحة إعجاب بجمال لم يره قبل ذلك أبدا.

قال اللص : الله!! هذا تمثال رائع. أفكان المرحوم نحاتا أيضا.

لكن اللص الآخر، وكان قد اعتاد على الظلمة، ورأى التمثال فى نظر زميله إنسانة، يتحرك جفناها بالسحر!

وتدور عيناها هنا وهناك، لتقتل أفئدة رجال.. أى رجال، كالسيف يقطع رقاب الناس، وهو يتحرك فى يد فارس!

.. وللحظة شعر اللص بدوار، كأنما قد خدر، فقد السيطرة على نفسه!

لكن اللحظة الأخرى، هزته من الاعماق.. فأفاق وهو يخرج من جيبه مسدسه، وكان بطبيعة الحال محشوا برصاص قاتل.

.. ونظرت ليلى نحوه فى استعلاء! فكاد مسدسه يتجه الى صدره ليقتل نفسه! قبل أن يمس إحدى ملكات الفتنة.

وصاح يقول لها : من أنت؟. أهنا أيضا حوريات من الجنة؟

وكيف الناس فى الجنة يفرطون فيما يمتلكون من السحر؟ كيف بالله قولى كيف؟

وظلت ليلى تدور بعينيها لتقيسه، وتعرف طوله من عرضه! والمسكين يتلوى من تأثير النظرات، وهو سعيد.. سعيد مع هذا.

ولم تنطق ليلى بحرف واحد، ولم تتحرك أية حركة، فلما أقبل اللص زميله، ورآه مشدودا من فرط التأثر بجمال لم

يرا أبدا مثله، صاح ليقول : الله..! سبحانك، ما أعظم قدراتك! تخلق هذه التحفة ليسيل لعاب رجال.. أى رجال.. وكل رجال، يمرون عليها!! وتخلق مع هذا أصنافا من البشر، أقفيتهم فى وجوههم، ووجوههم مقلوبة إلى الخلف!! لتحل محل الأقفية، فلا يعرف الناس هذا من ذلك!!

نعم سبحانك، خلقت زهورا يفوح أريجها فى كل مكان، وخلقت الشوك، فتدمى أقدام حفاة مضطرين للسير عليه!!

لكنك أنت الله تحاسب عبيدك، وليس لعبيدك إلا أن يتعبدوا ويطيعوا!! ومرت فترة الذهول ليبدأ حوار بين ليلى واللصين.

- من أنت؟

- إن من يدخل بيتنا لا يسأل من فيه، من هم! ومن حقى أن أسأل أنا، من أنتم؟

- نحن ضيوف نزور هذا المتحف الرائع.

- ضيوف يقتحمون البيت!! بمفتاح.. مغشوش؟!

- وكيف يكون دخول البيت المهجور؟

- ولماذا الدخول إليه؟

ـ لأنه يحوى أجمل لوحات الفن!

ـ أفهذا متحف؟

ـ.... أجمل من متحف!

ـ وهل له أمناء كأمناء المتاحف فى كل الدنيا؟

ـ كلنا أمناء عليه.

ـ أنا وصاحبى.. وأنت.. وكثيرون سوانا.

ـ وهل يسرق أمناء المتحف، محتويات المتحف؟

ـ هذا شئ لا يحدث، فإن حدث فهو مؤسف.

ـ ولماذا كنت أنا محجوزة تحت التحقيق؟

ـ لمقتل أمك.. هذا نشرته الصحف المختلفة.

ـ ومن القاتل؟

ـ مجنون أحمق.

ـ وتضيع أمى منى لأن القاتل مجنون أو أحمق؟

ـ أو يعرف أحدكما، لماذا ارتكب الجانى جنايته؟

ـ لا.. ليس فينا من يعرف!!

ـ سذج!! أنتم سذج!!

ـ أترى هذا المكان الخالى.. هناك؟

ـ نعم.. أراه.

ـ والا تلاحظ اختلاف لونه عن لون الصالة؟

ـ نعم.. هذا واضح.

ـ وألا تستطيع التفسير؟

ـ.. يعنى..!!

ـ لأن اللوحة المسروقة كانت هنا تحجب مضجعها عن تأثير الطقس، عليها.

ـ.. آه.. فهمت!!

ـ هنا كانت لوحة من أروع لوحات العصر.

ـ ومن ذا خطر بباله أن يسرقها؟

ـ واحد من مجموعتكم!..

ـ مجموعتنا!!

ـ طبعا.. لو تتكر؟

ـ لا أفهم.

ـ المجرم قتل أمى، لأصبح يتيمة الأب والأم!!

ـ من يفعل هذا وحش، بلا ذمة!

ـ وأنتم؟

ـ نحن اثنان. قولى أنتما.

ـ أنتم مجموعة محترفة، تعمل لحساب هواة الفن وتجارة تكسب مالا لا حق لها فيه، وتبيع تراثا لا تملكه. وتزيف فن الفنان لتقتله..

ـ لا لا.. إننا نخدم كل الفنانين.

ـ بقتلهم يا سفلة؟!

ـ سامحك الله على هذا.

ـ الله!! وهل من يسرق ويقتل ويزيف، يعرف معنى الله؟ الله برئ منكم، فقد خلق الفن لمتعة كل الناس وإدخال البهجة على من يحتاج اليها، فهل سرقة لوحات أبى وسواه من الفنانين، ترضى الله؟!

ـ يا ليلى.. الذنب ليس ذنب أحد إلا أمك!!

ـ إذن فانك على علم بما تم.

ـ أبدا لكنى سمعت بها.

ـ بأمى؟ أم بمصرعها؟

ـ بهما معا يا ليلى.

ـ وماذا كان المفروض على أمى أن تفعله، فلا تقتل؟

ـ لا تعترض طريق أحد فى مأزق، فقد يسجن لو قبض عليه..

ـ اذن يقتلها، حتى لا يسجن!

ـ لو تفاهم المعتدى مع من اعتدى عليه..

ـ.. ماذا يحدث؟

ـ تنجو الإنسانية من أنانية بعض الأفراد وتعاليهم.

ـ.. ومن الأفراد؟

ـ الفنانون.. مثلا.

ـ وماذا تراهم يفعلون.

ـ يفتحون صدورهم لتفاهم.

ـ مع من؟

ـ مع من يحب إنتاجهم، ويرغب فى عرضه.

ـ.. فى صالون فاخر!

ـ هبى هذا. أو ليس فى عرض الأعمال الفنية تكريما للفنان؟

ـ تكريم..؟! هل لابد من أن تسرق أعماله ليكرم؟

ـ تباع.. بدلا من أن تسرق.

●●●

وفكرت ليلى لثانية سريعة كالومض. وتصورت أنها، إن سلكت سلوك الأم، فستلقى نفس مصير المسكينة! وهنا تصبح هذه الأعمال للصوص الفن، وهم أكثر من رمل الصحراء، ولهم تنظيمات سرية، وخلاياهم تعمل تحت الأرض، ولها حيل لا حصر لها، بل ولها أنصار من أصحاب نفوذ ووجاهة..

وقالت ليلى لليلى : ماذا تفعلين يا أختاه؟ الصور المعلقة على الحائط إخواتك.. سبقنك إلى الدنيا وأنت جنين، بل وأنت أمل يراود حلم أبيك وأمك، ولماذا يا ليلى لا تحتالين، بمثل ما تحتال عصابات الفن والتزييف والتهريب، لتجعل

من تاريخ الفن كـذبة.. كـذبة كـبـرى يصـعـب بعـد ذلك تصحيحها!!

وعادت أحاديث ليلى تتسلل إلى ما هى فيه..

إذا كـانت سـوق الفن على هذه الدرجـة من هبـوط الأخلاق، فلماذا لا تحاربين بنفس الأسلوب، فقد تصلين إلى تنفيذ والدك الفنان، وأجابت ليلى الاخرى : فإن غلبوك، تكونين قد أنقذت اللوحات، وأنقذت نفسك.

لكن ليلى عادت إلى روح التصوف، ولقد كانت عميقة فى داخلها.

قالت ليلى، لليلى الاخرى: إن الفن جميل، يحاول كل الناس أن يشعروا بما فيه من قيم لا تبلى، وأجابتها ليلى الاخرى : إن الفن شئ، وسوق الفن شئ آخر فعلى الفن أن يهبط إلى دنيا الغابة.

وكان اللصان وليلى قد صمتوا!!

ولم يدر أى طرف من الطرفين، من ذا يبدأ؟!

هل تبدأ ليلى؟

لكن لماذا لا يبدأ هذان اللصان؟

وما هى إلا لحظة، حتى قال أحد اللصين وهو فى أعلى قمة من التأثر : الله..! هذه ليست لوحة، هذه معجزة يا ليلى.

وتحطم جدار الصمت، فبدا الحوار على نحو آخر.

●●●

قال لص لزميله :

- يبدو أن ليلى تختلف عن الام.

ورد عليه زميله :

- ليلى عاقلة، وجمالها يوحى بالثقة، فيما تفعله.

وعجب اللص الأول وهو يقول :

- خدعونا يوما حين أصروا على أن البنت صورة طبق الاصل من أم ولدتها.

وهنا لم تملك ليلى أن تسكت فصاحت فى الرجلين :

- إياك.. وأنت الآخر إياك، أن تعرض بأمى! أمى دفعت باقى العمر، سدادا لدين كان عليها لأبى.

وعاد اللصان يؤكدان لليلى! أنهما لم يقصدا أبدا، التعريض بأم قتلتها غيرتها على الفن، وعلى زوج وقف على

لقمة، وهو جائع! ولم يقبل أبدا، أن يبيع مكانته برغيف، أو حتى بملايين الدولارات ليثرى! فيعيش مرتاح البال، لا ترهقه الحاجة!

وخفف هذا من ثورة ليلى، فوقفت تنتظر كلام اللصين لترد عليه بما انتهى اليه الرأى الذى اتخذته، لتدافع عن شرف الفن، بأسلوب آخر.

وقال أحد اللصين :

- يا ليلى دعينا نتحدث عما هو أفيد.

وهزت ليلى رأسها، فتمايل شعر أسود فاحم، ليعطى وجها كالبدر، أو كبيت من أرق قصيدة شاعر.

واستأنف اللصان حوارهما مع ليلى.

- نحن فى حاجة الى استرضائك.

- وأنا لا أسعى لنزاع.

- اذن نتفق لتبيعينا بعض اللوحات، بثمن أعلى مما تتصورينه يا ليلى.

- لى قبل ذلك سؤال واضح.

ـ أمرك.. كلنا تحت أمرك.

وتمهلت ليلى قليلا، ثم قالت تسأل :

ـ هل يمكن أن يصبح الفن.. سلعة؟

ـ وبدأ الحديث بين ليلى واللص.

ـ نعم يمكن، وأنا لا أبالغ ان قلت لك : بل يجب أن يصبح الفن ـ أى فن ـ سلعة!

ـ كيف..؟ الفن كالحب.. فهل يتصور أحد أن يصبح الحب كذلك.. سلعة؟

ـ لقد صار الحب يا ليلى بالفعل.. سلعة!

ـ وألا ترى فى ذلك عيبا؟ أليس من العيب، أن يتحول أسمى ما فى الإنسان إلى سلعة؟

ـ وما عيب السلعة؟

ـ السلعة تخضع لقواعد الإتجار بها.

ـ نعم! وما العيب فى هذا؟

ـ أليس الفن أو الحب، أسمى..

ـ أسمى من هذا؟

ـ رفاهية الفن تنكر أن يخضع لظروف السوق.

ـ واحتياجات الانسان، تسبق رفاهيته.

ـ.. لا أفهم! ماذا تريد أن تصل إليه؟

ـ هل يستطيع الجائع أن يتذوق لحنا؟

ـ.. سؤال يحتاج لوقفة.

ـ هل يهلك جائع، ليستمتع بالفن..؟

ـ طبعا.. لا..

ـ أيهما يتقدم الآخر : الضرورة. أم المتعة؟

ـ بعض الناس يفضلون المتعة.

ـ ويموتون.. من الجوع؟!

ـ لم أقل هذا! فالشخص إذا هدده الجوع بالموت فهو لا يهتم إلا بأن يدافع عن نفسه ليعيش!

ـ اتفقنا اذن.

ـ.. علام؟

ـ على أن ضرورات الإنسان تسبق رفاهية الأيام.

ـ هذا اذا لم يكن هناك بد من هذا الاختيار القاسى.

ـ ولكى نعفى الإنسان من هذا، فلنتعامل مع كل ما ينتجه الإنسان، معاملة واضحة لا تفرق بين الأشياء، أو بين الأشخاص.

ـ لا أفهم..!

ـ أليس الفنان من سائر خلق الله؟

ـ نعم.. ولو خرج عن نطاق الانسان، فقد القدرة على أن يعطى.

الفنان اذن يحتاج إلى ما يحتاج إليه الفرد العادى.

ـ أذلك معناه أن تسوى بين الفنان.. والعطار.

ـ مطالب هذا، كمطلب ذاك.. بل إن الفنان مطالبه أكثر..

ـ طبعا، فهو محتاج الى أن يقرأ، ومحتاج الى أن يتجول بين الاحياء.. وهو كذلك محتاج الى أن يرحل من هنا وهناك، ومعارضه فى أنحاء الدنيا تخطف بصر الإنسان، لا ليتاجر، وإنما ليطمئن على مستوى ما يقدمه من فن، والتعرف على زملاء فنانين فى أوسع رقعة فى هذا العالم.

ـ وكل ذلك يعنى أن الفنان له مطالب لا يحتاج اليها..

ـ "صرماتى"! أو جزار! أو بقال!

وضحكوا.. الثلاثة ضحكوا!!

وكان وجه ليلى قد أصبح من ضحكتها، مثلا لجمال الدنيا! جمال الدنيا أصبح يتمنى أن يصل إلى مستوى جمالك يا ليلى! جمال الدنيا أخذ يشب على قدميه ليصل إليك يا ابنة فنان العصر! لقد صارت ليلى، وقد انفرجت شفتاها عن ضحكة، أجمل ما خلفه والدها من لوحات يسعى سوق الفن الأسود أن يتجر بها! وأصبحت اللوحات تتمحك فى ليلى! كل منها تتمنى أن تنتسب إليها! أو تقارن بجمالها!

وصاح واحد من اللصين، لم يعد قادرا على أن يتماسك : ما أجملك يا ليلى! إن سحرك نادر! لقد ركز الخالق سبحانه، جمال أجيال عدة، فى ليلى.! فيك أنت يا قطعة.. يا قطعة ماذا..؟ لا أعرف فكل الاشياء لا تصل إليك، فأطأطئ الرأسى أمام جمالك.

وأحست ليلى للحظة واحدة كالبرق الخاطف، أنها أنثى.. وكل أنثى لرجل!

لكنها عادت لتسمع دوى الأيام كالرعد،وهو يوقظها مما كادت تتردى فيه!

وبين حنين كالبرق، لحواء وهى جزء من آدم؟

وبين دوى كالرعد، يهز كيانك يا ليلى ويصيح فى أذنيك : أليس هذا اللص برجل! أفيخدعك رجل؟..والكلمات المعسولة من شفتى رجل، هى فى حقيقتها فحيح أفاع!

وظلت ليلى تلتقط بعض ما كان يقول :

أنت يا ليلى حلوة، ولطيفة، ومريحة للنفس وللأعصاب.

يا أمل كل رجل.. يا ليلى!

يا حلم كل عاشق.. يا ليلى!

يا حياة السعد.. يا ليلى!

ولم يتم!! فقد صاحت ليلى فيه تقول :

اسكت أيها الرجل!

ألا يكفى أن أستقبلك وأنت رجل.

ألا يكفى أن ألقاك فى بيتى.. وأنت..

ولم تتم! فقد قطع عليها الرجل حديثا بدأته.. فأكمله هو.

قال: رجل!! أفهذا ما يغضبك على الدنيا؟ الرجل يا ليلى هو من يكمل حلقات الإنجاب محافظة على الجنس وعلى النوع.

صاحت ليلى:

- بل قل دفاعا عن أخبث ما فى الدنيا!

أو قل دفاعا عن الزيف الباطل!

أو قل دفاعا عن سفك دماء لا ذنب لها!

هذا.. وحده، هو عندى تعريف الرجل! أتجادل؟ اسكت أفضل لك!

وتأزم الموقف بين ليلى واللصين، فلم تعد تسمح لهما بكلام، كما لم تعد على استعداد لمناقشة شئ جاءا من أجله.

وانسحب الرجلان، وهما يعدان بأن يعودا، لاستكمال مناقشة لم تستطع أن تتم!

ولم ترد ليلى؟

ظلت واقفة كالتمثال!

لكن ما إن خرجا، وشدا وراءهما الباب، وصارت ليلى وحيدة، لا من يؤنس وحدتها، إلا الصمت، وفراغ البيت.. إذا

هى تشعر بحرارة تلهب وجناتها كالنار.! وظلت حرارتها تزداد، وليلى تكتم أنفاسا محمومة تؤرقها!

وفجأة أجهشت ليلى ببكاء عال وصريح، لا تدرى ما سببه.

●●●

وبدأ حديث النفس مع النفس، أو حديث ليلى، مع ليلى الأخرى داخلها.

وقالت ليلى لليلى سميتها: رجل! هو دائما رجل! قاتل أمى رجل! تاجر السوق السوداء الذى سرق أعمال أبى.. رجل!.. كل الغش والتزييف فى الدنيا، من صنع رجل!

وقالت لها ليلى الاخرى.. الشر شركة لها طرفان.. امرأة.. ورجل! فكما ينجبان الاطفال معا، فهما كذلك يبنيان الحياة أو يدمرانها معا.. دائما معا.. دائما معا.. فى الشر معا، وفى الخير.. معا! أفتنسى من أخرج آدم من الجنة؟

وصاحت ليلى، فى ليلى الاخرى: أقلنت لهم؟! ضعفت؟! خارت قواك؟! اسكتى أحسن لك، إلا إذا كنت أنت نفسك رجلا، يتخفى فى جلد الانثى!!

وقضت ليلى ليلتها مستيقظة، تحدث نفسها حينا، وتحدث ليلاها حينا آخر.

وعندما كانت تغمض عينيها، كانت تحيا حياة مطلقة حرة، بغير رقيب، فتفعل ما تفعل على راحتها وسجيتها!

وفى تلك الليلة رأت نفسها تجرى بين حدائق رائمة كالجنة! وكان وراءها شاب وسيم وحليق، يحاول أن يلحق بها، فلا تمكنه ليلى من أمله!

وتجرى ليلى فوق حشيش أخضر، تحيط به أشجار وزهور، ومياه تتساقط على سطح من مرمر، وناس كثيرون يتنزهون فى خطو متئد حالم، وتمسك كل يد بيد أخرى! وتحيط ذراع بخصر فتاة! ويكف عن السير اثنان، ليتبادلا همسات.. وبماذا كانا يهمسان، كل للآخر! أفكانا يستذكران درسا فى الجغرافيا؟ أفكان يشتركان فى حل مسألة حساب أو جبر؟! أم أن الشئ الوحيد المتصور، هو أنهما كانا يتهامسان بالحب، وبالشوق؟!هو يسقط فى أذنيها قطرات جوى، وهى تستقبل قطراته، عطشى تطلب قطرات أكثر! وإلا تشققت شفتاها من فرط جفاف.

وفى الحلم ترى مناظر مختلفة مرة داخل قصر، ردهاته من أفضل مرايا بلجيكا! وثريات القصر من الكريستال الفاخر! والسجاد عجمى! واللوحات حمراء لتثير قلوب الفتيات، كما يثير اللون الاحمر، الرغبة عند دجاجات فى مزرعة دواجن، يفتح شهيتها هذا اللون لتبيض.. وتبيض، ولا يبقى عليها إلا أن تبيض كتاكيت تجرى.. وتستعيد ليلى حدوتة، سمعتها من أمها فى ليلة صيف، ولم تعد تذكر منها، إلا جملة، وهى ما قالته لها الأم: وكانت الدنيا يا بنتى تمطر دجاجا محمرا، جاهزا للأكل!!

لكن الحلم لا يكتفى بالقصر، فهو يتسع لسكان القصر!

هل تسكنه حوريات من الجنة؟! هل تسكنه فتيات كالورد الأحمر؟! وتسمع ليلى لشكايات نزيلات القصر.. هن يفضلن على هذا القصر، كوخا مهجورا فى وسط الزرع، ليس فيه شئ من ترف لكن فيه رجال أشداء.. موزعون على الحوريات بالحق، فلا من يقتنص اثنتين، ولا من تمتلك رجلين فى وقت واحد.

وتصيح ليلى وهى تحلم، فى هذا العدد من الفتيات : جننتن!.. أقسم أن جنونا قد مس كلا منكن. تفضلن الكوخ

على القصر. هذا حق لكل منكن، وأنا نفسى أهفو الى معايشة الطبيعة أكثر مما أهفو إلى أفخر فنادق فى عواصم العالم، لكن لماذا أتجه نحو بساطة كوخ بسيط وجاف؟.. لأنى ابنة فنان أحب الطبيعة فى كل الأوضاع. وأنا بنته.. والأخت الصغرى للوحاته. أما أن يدفعنى إلى ذلك رغبة مدفونة، تبحث عن رجل!.. فهذا عيب..

عيب يا فتيات! وكلمة عيب لا تكفى! أنتن ترتكبن جريمة!

بينما ليلى تذهب وتجئ، فى الحلم، كما تهوى، إذا بفتى يتقدم منها من غير استئذان، ويمسك بيديها، ثم يطوقها بذراعيه، ثم يكون له معها بعض مغامرة عذراء مثلها!! وتلين ليلى فترة، مدعية أنها عاجزة عن مقاومة رجل.. وإذا الفتى يبين لها، من خصل الشعر الأسود وقد غطت عينيها.. فتراه حلو القسمات، حاد النظرات، لا يترك لها فرصة لتفكر، وإنما يترك لها حرية التعرف على مغامرة لم تعرفها من قبل، فتراخت بين ذراعيه، وكتبا معا، بشفاه عطشى، كلمات عذاب أو حرمان.. لذيذة.. ألذ ما كانت تتصور.

ويقول فتاها فى الحلم : أحبك.. أحبك.

وتصمت ليلى، فلا تمنعه من أن يسرد على مسامعها كلمات أخرى.

انت أجمل أنثى، يحملها كوكبنا! أنت العمر، وأنت الحلم، وأنت الواقع!

أنت أمل كل رجل، أنت المستقبل تضيئينه بنور ساطع!

أنت من أنت، وهذا يكفى!

إن نساء الارض جميعا، يتكررن فى نساء أخريات، وبنسب مختلفة لكنك أنت بغير شبيه.. وغير نظير.. وبغير مثيل. ولهذا فإن فقدك رجل فقد فقد فى الواقع نفسه.

أحست ليلى بمتاع لم تعرفه قبل ذلك أبدا.

لكنها أفاقت - وهى ما زالت فى الحلم - لتضرب نفسها بيدها! وقالت ليلى فى الحلم لكل ليالى الدنيا : أأخون رسالة عمرى؟ أأخون وصية أمى؟ أفهذا عدل؟ أفهذا شرف النسب الغالى؟.. أفأنسى أمى وأبى. فى غمرة عاطفة مجنونة، لا عقل لها.

واستيقظت ليلى من نومها، وهى تلطم خديها!!

وأرادت أن تنسى هذا الحلم المفزع! لقد كانت تسعى للأحلام، لتضاعف عمرا تريده أن يمتد، فى حين تبقى سنوات العمر كما هى.. لكن الاحلام التى أحبتها ليلى وعاشت فيها، قد ساءت، فدارت حول الحب.. مع رجل مجهول!! رجل.. رجل يا ليلى قد بدأ يغزو احلامك!!

أن تتعامل ليلى.. مع رجل!! هذا شئ جائز، فهى ليست وحدها فى هذه الدنيا! أما أن تكون روح التعامل حبا، فذلك شئ تنكره ليلى!

ليلى تحب رجلا؟!

أو ليلى تترك رجلا يهيم بها!!

هذه وتلك منطقة محظورة.. لأن الرجل أى رجل لا يستحق حبا من ليلى، أو من ليالى الدنيا قاطبة..

وذهبت ليلى الى الحمام، وفتحت ماء الدش، ولم تنتبه إلى أنها أخذت هذا الوضع، بملبسها!!

وظلت تحت الدش البارد، تطفئ نار الحلم، حتى سمعت صوت أقدام فتحت باب المسكن، فاستبدلت ملابسها بملابس أخرى، وخرجت لترى من ذا أقبل، ومشى على أطراف القدمين، كاللص!

كـــاللص يا ســـاذجـــة يا ليلى؟ بل هـو لص بـالفـــعل، لا بالتشبيه!!

بل إن مع اللص لصا آخر!! اللصان أتيا لمزيد من أحاديث حول أعمال أبيها، الفنان المبدع.

وأستقبلتهما بشعرها الأسود، وكان من أثر الدش منثورا فى غـــيـــر عناية. ولم تك ليلى تدرى أن منظرها فى هـذا الوضع المضطرب أكثر إغراء..

- ولمن الإغراء؟

- لرجل.. أى رجل!

- أعوذ بالله من الشيطان..

- أفهذا يعنى أن الشيطان رجل؟

- وأن كل رجل شيطان!!

●●●

لقد بدا اللص الذى غازلها فى المرة السابقة، يحاول أن يضاعف من نبرات الاعجاب، يبديها فى هيام العاشق الذى لم ينم منذ رآها حتى جاء.

قال لها : إنك يا ليلى لست مجرد أنثى! إنك أجمل من أفروديت وفينوس، بكل ما أطلقوه على كل من أوصاف لأنك ياليلى أجمل. وأنت كذلك ملاك يا ليلى.

وأخذت ليلى تنظر إليه فى صمت، وتنظر نحوه نظرات تحد لا يملك من توجهها ليلى نحوه، إلا أن يرتعد من الخوف.

ومضى اللص وزميله يرقبه، كأنما هما متفقان!

قال لها : إنك تضيفين إلى الدنيا أملا، يشفى آلاف المرضى!

قالت ليلى فى حدة : هل صرت دواء؟

قالت ليلى، الدواء دائما مر يا هذا.

قال لها : أنا يعقوب.. اسمى يعقوب.

وتجاهلته ليلى بنظرة استعلاء، ثم عادت تقول له : يعقوب أوعرقوب أو كركوب.. ماذا يهمنى من إسمك؟

قال لها، وكأنه يستجدى : تعارف.. أو الأفضل أن نتعارف بلا أسماء.

قـالـت ليلى فـى هدوء قـاتل : ولماذا التـعـارف؟ لماذا يكون بيننا أى تعارف؟ وتلعثم اللص، فتدخل صاحبه يقول لليلى : الرجل مسكين.. حبك أنساه ماذا يخفى وماذا يعلن.

قالت ليلى فى إزدراء : الحب.. وهل جننت لأحب رجلا؟

قـال اللص الثانى : هـكذا المرأة ياليلى إن أحبت فحبها.. لرجل.

قالت ليلى: ولكنى أنثى تكره كل رجل!

وخاف اللص الثانى أن تضيع منهما فرصة أخرى، فقال لليلى : أنت ياليلى حرة تحبين كما تشاءين.

قالت ليلى فى استعلاء: أنا إن كان لابد لى من حب فأنا أحب الخير، وأحب الفضيلة وأحب قدرة الرجل على أن يصبر.. أحب الفن وأحب الفنانين، فقد كان أبى واحدا منهم حتى مات..

أحب أبى وهو ميت، وأحب أمى وهى قتيلة! أحب الواحد يفنى فى الله، وفى معشوق يختاره.. لكن معشوق ليلى لن يكون رجلا يا هذا.. وأسرع الرجل الثانى يقول لليلى : إسمى عزرا.

قالت ليلى : ومالى أنا باسمك. ليكن اسمك ما يكون.. عزرا أو عزرائيل، فاسمك يهمك أنت.

ومضت ليلى تريد أن تنصب شباك الحب لليلى؟ ليلى تحب الحب لكن الحب الحب شئ يختلف عما تدبران لليلى. الحب اذا استمر فى قضاء مصالح دنيا وحقيرة، فقد ضاع!.. وحينئذ تصبح الكراهية والازدراء، أفضل من حب فى الوحل! أفتسمعان؟!

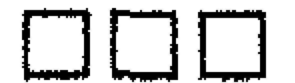
وارتعد الرجل وصاحبه. وأخذا يطلان عليها من زاوية تتخفى من عينيها!! وبعد قليل قالت ليلى :

ـ ظننت أنكما ترغبان فى حديث عملى! ماذا تريدان؟ أتركا كل مقدمات يلجأ اليها الناس. أنا أسأل كليكما :

ماذا تريدان منى؟ جئتما من أجل لوحات أبى.. جميل.فماذا آخذ فى مقابل ما أعطى؟

ولم يستطع واحد منهما أن يتكلم بوضوح!! وخرج كلام كل.كمن يتلعثم!! وبدت ليلى فى وقفتها كإلهة من عصر الأغريق أو ملكة تحكم.. بما تملكه من جمال يسبى!

وبدأت فصول أخرى.. للقصة!



6

□

□



□□

قال أحد اللصين لليلى :

ـ هذه اللوحة.. كم تقدرين لها ثمنا؟

وقالت ليلى بكبرياء يغلى فى دمها :

ـ هذه اللوحة تتجاوز أية أثمان تقترحان!!

قال اللص الثانى :

ـ عندك حق.. كل الحق. لكن لابد من التحديد، وإلا عجز البائع والشارى، عن عقد الصفقة، حسب العرف التجارى.

قالت ليلى فى ذكاء :

ـ وما الصفقة؟

قال أحدهما :

ـ لا أستطيع أن أقول عن اللوحة أنها صفقة، لكن القصد هو أن يصبح الفن الممتاز ملك الناس جميعا.

قالت ليلى :

ـ ملك الدول جميعا!

قال الاخر :

ـ نعم، فإن تفاهم الناس فى الدنيا قائم على رفع مستوى الذوق، بنسب تتقارب بالفهم ولا تتباعد بالهجر!

قالت ليلى :

ـ وهل التجارة فى الفن هى السبيل لدعم التفاهم بين الناس؟

قال أحد اللصين :

ـ طبعا، فبدون التجارة، فإن القطع الفنية الممتازة، تتجمد فى محراب الفنان، ولا يتذوق أحد ما فيها من قيم ومعان ومزايا .

قالت ليلى :

ـ لكن كيف نصل عن طريق الشوك إلى زهر يتأرجح؟

قال أحدهما :

ـ نزيل الشوك من طريق المارة.

قالت ليلى :

ـ تنبت أشواك أخرى، أشد ضراوة.

قال أحدهما :

ـ ولماذا تعقدين طريق تفاهمنا؟ إننا نخدم الفنانين أنفسهم، بترويج الانتاج الفنى، ونحن كذلك نزود الفنانين بإمكانيات لا تكلفها لهم حتى الدولة.. أية دولة!

قالت ليلى :

ـ بالسرقة، والغصب؟! بتزييف الفن وتشويه أعمال الفنان؟

قال الآخر :

ـ أليس الفنانون بشرا؟

قالت ليلى :

ـ أعلى أجناس البشر يا هذا.

قال يرد عليها:

ـ اسمى يعقوب

قالت تسخر منه:

ـ اليعقوب؟ أو العقرب؟

قال يعقوب :

ـ لا علاقة ليعقوب بالعقرب

قالت ليلى :

ـ بينهم ثلاثة أحرف مشتركة. لكن هذا ليس بذنبك! على كل حال أنا أتمنى للناس الخير وليت ما تقوله.. يتأكد!

قال اللصان معا وفى وقت واحد :

ـ نعود إلى القطعة المختارة.

قالت ليلى :

ـ أهى لوحة واحدة أم عدة لوحات؟

قال أحدهما :

ـ ومن ذا أخبرك؟

قالت ليلى :

ـ أذناى... سمعتكما.

قال الآخر :

ـ هى عدة لوحات، هذه المرة، ثم سيكون لنا بعد هذا تفاهم متصل ودائم.

قالت ليلى :

ـ وكم تريان أن تدفعاه عن هذه الدفعة؟

قال أحدهما :

ـ بالدولار أم الجنيه؟

قالت ليلى :

ـ بأية عملة.. بالجنيه مثلا.

قال اللصان :

ـ مائتان ألف من الجنيهات.

وشهقت ليلى.. فأسرع أحدهما يقول :

ـ ثلاثمائة ألف.

وعادت ليلى تشهق، فصاح الآخر.

ـ نصف مليون جنيه، فماذا ترين يا سيدتى؟

وضحكت ليلى فى صمت وهى تتصور أن الشهقة زادت عن مائة الف من الجنيهات! وبعدها قالت ليلى تسأل :

ـ وبكم ستبيعان اللوحة لمن ينتظر فى لهفة؟

قال اللصان :

ـ تصدقين بالله.

قالت ليلى فى لفظ موجع:

ـ وماذا يجدى تصديقى؟.. إنى أعلم أن الله برئ من أية علاقة بكما.

قال واحد منهما فى أدب جم :

ـ أنت لست مفوضة عن الله سبحانه، لتتحدثى باسمه.

قالت ليلى :

ـ بلا تصديق أم قسم.. ماذا تريد أن تقول؟ لقد كنت أسأل عن ثمن البيع، وأنا أعلم مقدما أنكما لن تصدقا أبدا.

قال احدهما :

ـ لماذا لا تقوم بيننا ثقة يا ليلى؟

قالت ليلى :

ـ ثقة بلا صدق، غش وخداع.

●●●

وبدأ حديث الإجراءات.

هل نتسلم هنا؟

واعترضت ليلى، وأصرت على ألا يتم تسليم وتسلم إلا فى الخارج... ومن يدرى؟! هكذا قالت ليلى، فرد عليها اللصان : أمرك ليكن التسليم والتسلم، حيث تريدين، وبلا تحديد لمكان. إن العالم ملك أيدينا ولنا شركاء فى كل الدنيا، وزبائننا ناس من أعلى طبقات المجتمعات الممتازة، ولهم ذوق مرهف.. ولهم كذلك سلطان ونفوذ!!

وتم الاتفاق على أن يدفع اللصان المبلغ كاملا فى محراب أبيها.. وستسافر ليلى بعدد يتجاوز أربع لوحات إلى أثينا.. وهناك تنتظر من يحضر ليتسلم منها ما إتفق عليه

وعادت الى ليلى رغبتها فى الحديث مع سميتها.

- ولماذا قلت أثينا؟

- ولم لا؟

- بل ولم نعم؟

- إن تهريب الفن أيسر فى عاصمة اليونان، وفيها جبل الألب، وفيها الأكروبول وفيها أيضا تراث الأغريق.

ـ ومن أدراك أن تهريب الفن هنالك أيسر؟

ـ شاشة التليفزيون. قالت ذلك ليلى لى، وبشكل قاطع.

ـ.. كيف ؟!

ـ أغلب أفلام التليفزيون والمسلسلات المختلفة، وجدت راحتها فى عاصمة اليونان!!

ـ لا أزال أسأل كيف؟

ـ ما هو مكتوب على كل مسلسلة، يثبت أن أثينا عاصمة للانتاج الفنى!

ـ وربما عاصمة التزييف الفنى.

ـ لا فرق.! الدنيا صارت تزييفا يا ليلى.

ـ لا أدرى!! أفهذا سبب يا ليلى؟

ـ نعم هو سبب قاطع.

ـ أهكذا تنقلب الدنيا؟! أيصبح أعيان الفكر، فى هذا الموقف؟

ـ ما دامت القمة قد شغلت..

ـ.. وبمن شغلت؟ قولى يا ليلى.. بمن؟

ـ بالأفاقين.. وبلصوص محترفين.. وبكل طريد يدافع عن نفسه، حتى لا يعود ليتسكع!

ـ هل قلت يدافع..؟

ـ قصدى أن المغتصب لمكان فى القمة، يدفع أية محاولة صعود أخرى!

ـ وكيف يدفع محاولات الوصول إليه، أو الصعود إليه؟

ـ بأى سلاح وبكل سلاح، بلا قيم، أو مواثيق شرف! وبلا إنسانية!

ـ هل لأن القمة مزدحمة؟

ـ بل حتى لا تزدحم القمة أبدا!

ـ لا أفهم.. إنى عاجزة عن أن أفهم!

ـ لو ازدحمت القمة، انفتح الباب لمنافسة بين عمالقة الدنيا.

ـ ويبقى من هو أصلح!

ـ أفى هذا العالم يبقى من هو أصلح؟! إن الغابة اذا حكمت بالقانون والأخلاق ووضع الناس، كل فى حجمه، لا يتجاوزه.

ـ ماذا يحدث؟ أهذا أفضل ؟

ـ لكن الغابة لا تصبح.. غابة.

ـ تصبح فردوسا.. كالجنة!

ـ وينتهى دور المغتصبين بعد معاناة ومرارة؟! لقد وصلوا القمة لا للفرجة، فهم ليسوا سياحا يا ليلى لكنهم وصلوا لتطول إقامتهم.. وتطول.. ثم تطول..

ـ بغير نهاية؟ أتطول بغير نهاية؟

هذا ما يتمناه رعاع سوقة، إذا احتلوا القمة !

ـ ومن ذا يمكنهم من أمل فاسد.. وردئ؟

ـ من هو أفسد أو أضعف.. أو أردأ.. أو..

ـ أو ماذا؟

ـ أو تاجر فيه ذكاء يتعامل مع من هم فى القمة!.. وله أجره..!

ـ أجره.. انى أعجب! تباع الاشياء وتشترى، نعم.. تباع الأرض وتشترى، نعم.. أما الانسان!

ـ.. يبيع هو.. نفسه!!

ـ ويقبل؟!

ـ بالتعود.. يقبل!!

ـ لقد أفسدت خيالى ياليلى!

ـ ألانك سمعت مالم تكونى تريدينه أو تتوقعينه؟

ـ كنت ألاحظ انحدارا فى الذوق، وفى الأخلاق، لكنى لم أكن أتوقع أن يصبح عالمنا هذا سوق رقيق متطور.

ـ أى تطور؟ إلى الأمام أم للخلف؟

-لقد صور إنسان العصر لنفسه، أنه لا يرضى للإنسان.. يهان! فثار على الرق، وعلى إذلال الناس وعلى اضطهاد العنصر.

وصدرت مواثيق رائعة، لتصبح من وثائق التاريخ الإنسانى.. لكن الانسان استبدل كل عيوب لاحظها بعيوب أخرى أبشع.

ـ يا ليلى لماذا الرمز ؟

ـ سأصارحك يا حاملة اسمى، وشريكة جلدى ويقظتى ومنامى.. إن الاحتلال صار بغيضا أليس كذلك؟ اذن

فليسقط هذا الشئ الكريه ولنأت باسم آخر.. الأحلاف مثلا.. الدفاع المشترك!.. القواعد..

ـ وبهذه المسميات..

ـ تؤدى دول القمة ما كانت تؤديه دول سبقتها..!

ـ وتقهر إرادة الدول؟

ـ بل هى تحيى معها أعياد الحرية و الإستقلال!!

ـ ولماذا يقبل الناس التزييف؟

ـ لأنهم.. صناعه.

ـ ولماذا هم صناعه؟ وهو كذب ونفاق ولعب بعقول الناس؟!

ـ هذه هى الموضة فى عصرنا! أنحاربها ؟

ـ أبدا! ولكن أى شريف يرفضها!

ـ ليصبح هذا الشريف.. هو الخائن والدجال!!

●●●

وارتاحت ليلى بعد حوارها هذا وهى تستعرض ما آل إليه العالم من أخلاق وعندما استوثقت ليلى مما هبط اليه

الانسان وهو السيد فأصبح هو نفسه من يصنع نفسه، بمقياس ما هو ميسور له، عندئذ قالت ليلى للصين :

ـ وماذا بعد؟!

قالا لها :

ـ متى تريدين أن نأتى لك بالمبلغ؟

قالت ليلى :

ـ وقتما تشاءان

ـ قال أحدهما :

ـ بعد بضعة أيام..!

قالت ليلى، كمن لا يكترث بشئ :

ـ ليكن .

وقال الآخر :

ـ طبعا تريدين شيكا بالمبلغ.

ولم ترد ليلى!

وخاف الرجل من أن تتراجع ليلى عما اتفقت معهما عليه. فقال :

ـ على الا يكون هناك تنفيذ لشئ من جانبك، إلا بعد أن تصرفى الشيك، وتستوثقى من جديتنا.

وهزت ليلى رأسها، وهى تطل على ركن بعيد، لترى لوحة من لوحات أبيها وشعاع واحد من شمس خريف يمر برفق ليحييها ليضيف اليها عنصرا يكاد من روعته أن ينطق.

لكن ليلى كانت فى نفس اللحظة تراقب اللصين، وهما يريانها تنشغل عنهما وتنظر الى بعيد، وتبادلا حركة صامته لكن ليلى فهمت منهما شيئا كتمته حتى عن نفسها!

ولما عادت ليلى من تأملاتها فى اللوحة، كان الرجلان اللصان قد بدأ يمدان أكفهما ليصافح كل منهما ليلى على وعد بلقاء آخر قريب ومضى اللصان وأخذت ليلى تدور فى جنبات المحراب وهى تقول لنفسها ـ ما أمتع فن الفنان، يتجدد.. مع كل نظرة يتجدد ولو كان أبى حيا لما هو نفسه يمثل الاستثناء من هذه القاعدة وهى ميزة ينفرد الفن بها وحده.

لكن ليلى كانت قد صارت صاحبة تجارب شتى. فمنذ شهدت مقتل أمها تحمى تراث أبيها، وهى تكسب مع كل طلعة

شمس، تجربة لا تنسى! حتى تجربة السجن مرت بها وهى صامدة، لا تهاب.. ولا تخشى حتى الشيطان! تقول الحق، وليصدقها من يرغب ولتكذبها الدنيا كل الدنيا فالحق لن يتغير مع إنكار الدنيا قاطبة والصدق هو الصدق، لا يتلون بلون التحقيق أو الجانى حتى لو كان صاحب ملك سليمان.

ورأت ليلى أن الرجلين اللصين، قد نشرا هنا وهناك بعض أجهزة التسجيل لغاية فى نفسيهما! والغاية يا تجار الفن ولصوص مواهب خلق الله معروفة!

وبعد ان استشارت وجدان فتاة حساسة تركت كل جهاز حيث هو وكانت ليلى تعلم أن اللصين سيحاولان الحصول على التسجيلات بطريقتهما الخاصة وأخذت تدير عدة أشياء لتفكر فيها ثم تختار منها ما يناسبها.

.. مثلا : هل تترك أجهزة التسجيل صامتة لا تسجل شيئا يذكر أو لا يذكر؟

.. أو مثلا : هل تملأ أشرطة التسجيل بكلام تضلل به لصوص الفن، إذا كان هذا التضليل يحقق مصلحة الفن والفنانين.

.. أو مثلا : هل تخفى الاشرطة، وتترك الأجهزة برسالة للصين ومن خلفهما ليتضح لهما جميعا أن ترتيباتهما مكشوفة!

.. ومضت تدير احتمالات مختلفة لتختار واحدا منها .

واخيرا استقر عزم ليلى على أن تتصرف بطبيعتها، فإن التكلف قد يفسد خطتها، فهى أمام عصابات الفن مادة درست وحللت جوانبها ووصل الخبراء الى ما فيها من خير وشر فإذا افتعلت اى تصرف أو سجلت معلومات للتضليل فانها هى ليلى التى ستكشف ليلى للمتربصين لليلى .

وعندما انتهت الى هذا القرار استراحت وأخذت تتحرك فى المسكن أو المحراب من غير حرج.. تغنى لنفسها لتحطم جدار الوحدة بصوت يتردد فى محراب الفن ترقص سامبا أو رومبا أو اية رقصات تعرفها وتدور على الحلبة من غير شريك فإن شريك فتاة ترقص هو على الدوام رجل وليلى لم تعد تطيق ان تراقص الغدر والخسة ودناءة الغابة وغموض النية.. مع رجل أيا كان هذا الرجل ثم أين هو الرجل الذى يقبل الحضور إلى المحراب ليراقص ليلى.. أن الرجل أنانى وهو فى أغلب رجال الدنيا يعجب بنفسه ويتصور أنه

شمشون الجبار يحطم جدران المعبد، حتى لو راح ضحية مع من راحوا، وكل مناه أن يتردد عنه أنه رجل جبار.. جبار بمعنى الكلمة.

والرجل لا يعرف كيف يحب وكيف يكره!!

الرجل يستعمل الحب لإثبات قدراته على أن يوقع فى هواه جميلات الدنيا! الرجل لا يرى الحب غاية يعيش لها الناس، لكن الحب عند الرجل مجرد حيلة لإشباع الشهوة!!

الرجل يركع تحت الأقدام، ليستثمر طيب المرأة فاذا صدقت معه وصدقت كلماته، بدأ يظن أن يتصدق عليها بغرامه.. الرجل يتصدق! وعلى من؟ على من كان يبكى تحت قدميها لتقبل حبه.. ولماذا؟ لأن غرامه يكفى عشرات الفتيات فأن أكتفى بواحدة دون سواها، فهو إذن قد أسرف فيما يعطيه لها!!

.. مغرور!! جبان ومغرور.. أى رجل!

لكن ليلى تعود تلوم نفسها على التعميم فهناك رجال كأبيها فنانون بالفعل أو بالقوة، لكن كم رجلا من هذا النوع فى هذه الدنيا؟!

ان الفنانين.. حتى الفنانون، ليسوا أسوياء أبدا.. فمنهم عدد كبير مصنوع، وهؤلاء يتناولون الفن كأية حرفة أو مهنة يعيشون مما تدر عليهم وكثيرون آخرون، لم يجدوا الفرصة إلا فى الفن، فلقب الفنان مطلق!! أى رجل يستطيع أن يتسمى فنانا وحينئذ لن يسأله أحد عما درس وأين وكيف لأن الفنان يكفيه عن هذا كله. ألا يكفى الفنان أنه فنان.. خالق فإذا اعترض أحد على إنتاجه، فهى الغيرة، ويستمر يقول.. هى الغيرة ولا شئ سواها.

وعندما بدأت ليلى تكشف سر التسجيلات سمعت دبيبا فى آخر طرقات المحراب فغفت على أقرب أريكه ثم نامت وأخذت تتثاءب، لتشجع من اقتحم المسكن على أن يحقق غرضه.

وذهلت ليلى عندما وجدت الذى جاء هذه المرة هو رجل ثالث نحيف.. وعصبيته واضحة على حركاته، فهو يمط رقبته بين الحين والحين، كمن ضايقه جسمه، ويود أن يخرج منه، فينسحب من رقبة رفيعة معروقة!

لقد تظاهرت ليلى بالنوم حتى عاد الرجل بالأشرطة إلى زملائه!

لكن من أين دخل؟.. لا تعرف!! وكيف خرج؟ لا تعرف!!
وإلى أين يذهب لا تعرف!!

●●●

ومرت أيام وجاء اللصان الاصليان!

ولم يكن عليها ان تسأل كما لم يكن عليهما أن يتحدثا عما يريدانه.

ثم ان الرجلين دخلا البيت من بابه وبإذن من صاحبته فماذا تريده منهما؟!

قالت ليلى كأنما هى فى أزمة :

- أين المبلغ الذى اتفقنا عليه.

وحسب الرجلان أن ينتهزا الفرصة فيساوما ليلى المعذورة.

قال أحدهما :

- ماذا أقول، هذا شئ مخجل لم نستطع أن نحصل إلا على مائة الف جنيه.

وشعرت ليلى أن الفرصة واتتها ففتحت باب المسكن واشارت لهما ليخرجا غير مأسوف عليهما ابدا.

وبدأ اللصان يتلعثمان وتتداخل كلماتهما فى شكل مخجل.

ـ إنه شئ مخجل حقا ولكن..

ـ ونحن وسطاء ليلى.

ـ ولسنا من أصحاب الملايين أو البلايين...

ـ وأصدقاؤنا خذلونا..

ـ تصورى أنهم ـ قالوا ـ جمعوا هذا المبلغ بكل وسيلة.

ـ وأودعوا المبلغ فى البنك وكتبوا الأذن بصرفه الى من يحمله.

ـ واعترضنا أنا وصديقى.. وقلنا أن ليلى لا تعرف إلا كلمة واحدة..

ـ لكنهم يا ليلى تجار والتاجر يفضل عادة أن يأخذ ولا يعطى إلا..

بالدم! هم هكذا كل التجار.

ـ ساعدينا ياليلى، ونعدك الا يتكرر هذا.

وخلال هذه الأحاديث المتصلة كأنما هى عذر يريان أنه لابد من أن يكون مقبولا، كانت ليلى صامته، صارمة الوجه،

فتحت باب المسكن بيد وأشارت لهما بيدها الأخرى ليخرجا من هذا المسكن.

قال واحد من اللصين :

ـ سنحاول يا ليلى، أن نحقق لك ما قلناه.

وقال اللص الثانى :

ـ الآن نذهب إلى أصحاب الشأن ثم نعود.

ولم تشأ ليلى أن ترد حتى لا ترتبط بوعد.. وخرج اللصان، يقدمان رجلا ويؤخران الاخرى.

اما ليلى فقد أقفلت باب البيت وأسندت ظهرها على المكان الخالى حيث مكان اللوحة التى قتلت أمها، حيث استندت عليها.

وقالت ليلى فى حديث مع أمها الضحية المسكينة :

ـ أفهذا يرضيك يا أماه؟!

ـ افكنت أتساهل مع هذا النفر الخسيس من التجار؟

ـ إنهما رجلان وقد حذرتنى من أى رجل فأصبح على من باب أولى أن أحذر من الرجلين!

ـ طردتهما دون كلمة أطلقها.

ـ لكن لا تظنى أنى لم أحسب حسابا آخر فقد كان يمكن أن الحق بك يا أماه.

ـ لكم أنا مشتاقة إليك يا أم الفن، وزوجة عملاق الفن.

ـ لو أنهما قتلانى، فيكفينى رضاء عن نفسى، أن ألقاك، وألقى كذلك أبى، وأستمتع بكما.

وظلت ليلى تتحدث مع أمها تارة، ومع أبيها تارة، حتى غفت، لتحلم بدنيا واسعة، تتسع للفضلاء والأشرار!! للطيبين والشياطين! ليمام يدندن بالحب ويغنى، وعقارب تلدغ، من صادفها لتطويه تحت الارض!!

وبينما هى كذلك، دق الباب، ففتحت لتجد الرجلين اللصين، وقد ارتسمت على شفتى كل منهما ضحكة صفراء خبيثة.

قال واحد منهما وهو يدخل :

ـ نجحنا فى مهمتنا.. نجحنا يا ليلى.

ولم ترد ليلى.. لم ترد :

أما اللص الثانى فقال لها فى ملق ظاهر :

ـ إنك لا تسألين عن مقدار ما نجحنا فيه.

ولم ترد ليلى لم ترد.

وعاد الحديث يتصل بين الرجلين من جانب، وبين الصمت من جانب ليلى.

ـ لو عرفت يا ليلى متاعبنا.

ـ لقد وضعناهم أمام أمر واقع.

ـ وقلنا اذا فاتتكم هذه الفرصة، فلن نكون مسئولين عن الصفقة.

ـ وتأكد الكبراء أن الأمر ليس مساومة، بقدر ما هو رجاء.

ـ ولهذا فقد ضاعفوا المبلغ، وهذا إذن به على البنك.

ولم ترد ليلى! لم تنبس ببنت شفة اتجهت فى خطوات واثقة إلى باب المحراب، وفتحته بيد، وأشارت بالاخرى للصان. وكما تلعثما مرة، فقد تلعثما هذه المرة.

ـ نحن معذورون.

- نحن وسطاء.

- نحن معك ضدهم جميعا.

- ليس هذا ملقا، لكنه أمر طبيعى، فالثروة الفنية عندك أنت، ولهذا فإن واجبنا أن نقف معك.

وظلت ليلى واقفة لا تجيب، وبدت قسماتها تنبئ عن ضيق وتوتر.

خرج الرجلان اللصان، وهما لا يعرفان ماذا يصنعان؟!

هكذا بدا على كل منهما الارتباك والذعر.

وهكذا بدا عليها التحدى والإصرار، فلم يخامرها شك، أن هذين الرجلين من لصوص الفن، هما اللذان يدبران هذه المساومة، أما لأن هذه هى طبيعة التاجر فى كل منهما، أو لأنهما يريدان ضمان وصول اللوحات، وإلا استردوا بعض المبلغ حتى تفى ليلى بما تعهدت به.

●●●

وفى المرة الثالثة أتى الرجلان بإذن بالمبلغ كاملا، مثلما اتفقا عليه..

وقال أحدهما :

ـ معك الآن نصف مليون جنيه عن عدد من اللوحات.

قالت ليلى وهى تنظر اليهما بطرف من عينيها :

ـ نصف مليون جنيه! ثروة هبطت على من السماء! نصف مليون "يا شحاته"!

أفهذا ما يدور بنفسيكما؟ أفهذا ما تفكرون فيه؟ ولم يقل لى منكما واحد كم سيفيد هو من الصفقة؟ ليدع كل منكما أمر المكسب المادى..

هلا يقول واحد منكما كم سيكون كسبكما الأدبى والفنى؟ كم؟ كم يساوى تزوير التاريخ؟ كم يساوى حرمان أهل هذه البلاد من أروع ما قدمه فنانوها لتغذى وجدان شعب آخر بالحياة بلا حقد، وبلا ترف مفرط فى نفس الوقت؟!

ـ ستكون مكاسبك واسعة وعريضة.

ـ وماذا ستكون مكاسب أهلى؟ وهم من وهب أبى حياته لهم؟ إنى أرتكب خيانة يا سماسرة الفن ولصوصه. وأشد ما يؤلمنى أنها خيانة لأبى.. لمواهب عملاق من عمالقة الفن،

وأوصـانى عن طريق أمى، أن أحى انتـاجـه من التـزوير، وأن أحمى الفن من التزييف.

وتحـرج الموقف مرة أخـرى، فقد بدا على ليلى أنها تعانى من داخلهـا أزمـة، وخـاف اللصـان، من مـوقف ليلى، أو من صـدق ليلى، أو من أمـانة ليلى، فـتـذهب كل الصـفـقـة أدراج رياح الخماسين!

وأسرع أحد اللصين يقول :

ـ إننا بما نفـعل، ننشـر فن أبيك فى أوسع دائرة من دنيانا.

وتبعه اللص الآخر يقول :

ـ ثم نحن نمكن الفنان من أن ينتج. الفنان بشـر، ومـا لم تتوافر له موارد يعيش عليها، فان إنتاجه سينضب.. وقد يموت هذا الانتاج ويتبعه صاحبه، من الحسرة!

وسكتت ليلى، وهى تسمع لهما. ثم انبرت تقول :

ـ إن عـهـدا قطعتـه على نفسى أنفـذه، مـا دامت أن الاطراف الاخرى تقوم بتنفيذه. لكن هذا لا يمنع من الحسرة على الفن الممتاز الرائد، وهو ينتقل الى بيئـة آخرى! إننى

بهذا أثرى الغرباء بفنون مصرية، وأسبب الفقر لأهلى! وماذا يقول التاريخ عنى؟ أمى فقدت حياتها، وهى تدافع عن لوحة. أما ليلى فمعها إذن بنصف مليون جنيه عن دفعة محدودة من أعمال أبى! تصوروا الموقف حين نموت، وسنموت جميعا... هل أستطيع أن أرفع عينى فى وجه أبى أو أمى؟! سأطاطئ الرأس يا جبناء يا شياطين يا تجار السوق السوداء فى عالم فن أبيض كالفجر أو أخضر كزرع الوادى.. يا ربى سامحنى.

●●●

وعندما اختلت ليلى بنفسها، أخذت تقلب هذا الإذن فتجده ورقة.. مجرد ورقة!

لكنها ورقة تعطى حاملها حقا فى أن يسحب نصف مليون من الجنيهات، يصرفها كيف يشاء! يبددها لو أراد، أو يسكر بها، لو استطاع أن يشرب خمرا بهذا المبلغ كله! والأصلح هو أن يتعبد لله، ومعه هذا المبلغ! فالعبادة هى أغلى ما يحرص عليه المؤمن، لكنها فى نفس الوقت، لا تكلف أحدا إنفاقا أبدا!.. لأن الله غنى، ونحن الضعفاء!

ورقة! تساوى نصف مليون جنيه!

لكن هذا الكلام الذى يناقش فلسفة الورق، هو أيضا مكتوب على ورقة! لكن ما ثمنه؟ كم يدفع فيه من يود الحصول عليه.

ورقة!.. أحكام الإعدام تكتب على ورقة!

ووثيقة الإفراج عن مذنب، ليست إلا ورقة!

شهادة التقدير ورقة! والإنذار بالفصل ورقة!

.. وأخذت ليلى تقلب إذن البنك فلا تجده الا واحدة من هذه الورقات! ورأت ليلى أن الكتب المطبوعة على ورق أبيض، تعكس ثمرة عقل فكر، وقلب دقت نبضاته، وارادة سجلت التجربة على ورقة! أما هذه الورقة، فهى غامضة قد تدفع ليلى فيها العمر، كما دفعت أمها نفس الثمن من قبل.

ولماذا يا ليلى؟!

إن ليلى لم تكن على قدر من السذاجة، فلا تلاحظ أخطاء الورقة!

وأهم ما عمد إليه اللصان هو التعديل فى هذا الاذن، فى التاريخ والقيمة! ولم يوقع على التعديل أحد!! وكان يمكن أن

يتغير الاذن كله، فهو يساوى قرشا أو قرشين أو بضعة قروش!.. وهل من يدفع نصف المليون، يستكثر أن يدفع ثمن الإذن، فيغيره؟!

... هذا أول ما شكت ليلى فيه!

والأمر الأخطر أن تاريخ الاذن يختلف مع تاريخ الصرف، حتى يبعد أصحاب المال عن أنفسهم أية تهمة!!

ومع ذلك، فقد استقر رأى ليلى على أن تسافر إلى أثينا.

... ولم لا؟ فلتكن نزهة.. سياحية... أفلا تستحق ابنة أعظم فنانى العصر أن تتمتع برحلة إلى اليونان؟!

.. لا لكن، ولا أية أداة تعترض على الرحلة أو تنصح ليلى بأن تتمهل!

لقد قررت ما تفعله، ولن تتراجع!

وكان الإذن معها، بكل ما حوى من أخطاء!

.. لكن اللوحات ظلت فى موقعها من محراب الفنان!

وكان الشعور الذى راود ليلى أن قسم الشرطة الذى تولى أمر الدراسة والتحقيق حول مقتل أمها، لابد من أن يحيط

المحراب الرائع بحراسة من نوع خاص، لا ليحمى ليلى، ولكن ليصل الى نتائج تهمه.

ولهذا لم تتخذ أى إجراء لتأمين المحراب من أية محاولة للسطو عليه! ان اللص حرفته اختراق الجدران، فمهما أقامت ليلى من متاريس، فان تفنن تجار الفن أقوى من هذا كله.

واتكلت ليلى على الله، وبدأت تتخذ الاجراءات لسفر عاجل الى أثينا.

وكانت ليلى تشعر بفضول عن عاصمة حضارة سادت زمنا، أثرت فى حضارات أخرى أقدم أو أحدث، ولم تكن قد سافرت من قبل الى الخارج، لكنها لم تشأ أن تستعين بأحد.

وعندما ذهبت إلى الجوازات، قابلها شاب أنيق حليق رقيق، يكاد من لهفته على أن يسترضيها أن يركع لتعطيه الفرصة ليخدمها!

وقالت ليلى له: خذ الفرصة. تريد أن تخدمنى، فهل قلت لك.. لا؟

تفضل.. أرنى!!

قال الشاب كأنما هو يغنى ليطربها : سأفعل... سأستخرج لك جوازا، وأسلمك كل الأوراق غدا.. تصورى.. غدا.

قالت ليلى وهى تتجاهل ما يخفيه عنها : هذا شئ جميل تستحق الشكر عليه.

قال لها فى همس كالنجوى : وأنا لا أريد إلا هذا.. لكن كيف؟

ونظرت ليلى حواليها : كيف يكون الكيف؟

قال لها : أى كيف؟

قالت له : كل كيف وله مضمون.

قال لها : كنا نتحدث عن شكرك لى.

قالت له: صحيح.. هذا صحيح.

وأسرع الفتى ليقول : أنا من يجب أن يشكرك.

وسألت ليلى : لماذا؟

قال الشاب : لأنك أعطيتنى فرصة تقديم الخدمة لأجمل من رأيت أو سارى.

قالت ليلى : أو تعرف؟

قال فى لهفة :... ماذا؟

قالت ليلى : إن المبالغة، كإنكار القيمة.. كلاهما فيه فساد!

قال الفتى : وهل بالغت..؟

قالت ليلى : طبعا بالغت.

قال الفتى : صدقينى إن أى كلام قلته، هو دون جمالك، وسحرك وعينيك، ولفتاتك.. إنك.. ماذا أقول؟ إن الدقيقة بجوارك كعمر كامل مع أخريات، يزعمن أنهن جميلات.

قالت ليلى : وتسلبنى كل إرادة!!

قال الفتى : أبدا.. أبدا.

قالت ليلى : إن ما تحكى عنه من صنع الله، فأنا، ككل الناس، لم أخلق نفسى! لقد خلقنى ربى، فاشكره هو سبحانه.

قال الفتى: إن الله كريم، وهو كذلك عادل.. لا يعطى الجمال إلا لمن يستحقه! فلولا أنك تستحقين النعمة، وما وهبها لك إله عادل.

قالت ليلى : الخلاصة أنك تنوى أن تشكرنى...اشكرنى واخلص وخلصنى.

قال الفتى : أهكذا؟ بجفاف يجرح.. العطشان؟!

قالت ليلى : وما البديل يا هذا!

قال الفتى : إسمى قاسم.

قالت ليلى : واسمى ليلى.. يا.. قاسم!

قال الفتى : وهل تقبل ليلى دعوة قاسم، ليكون الشكر على مستوى من أشكرها؟

وصمتت ليلى.. وفكرت بسرعة.. ثم قالت لنفسها : ولم لا؟

.. ونظرت فرأته "قد أصبح" مقسوما لا قاسم فقالت له : أوافق يا قاسم.

وعلى العشاء حاول قاسم بكل ما يملكه من ملكات أن يستدرجها للرقص، فقالت له : إنى لا أرقص فى كل الأوقات! وأنا أحب الرقص. لكن مع من أختار! ولا أفهم أن يطوقنى أحد بذراعيه، فيتوهم أنه احتوانى! وحاول قاسم أن

يؤكد لها أنه مختلف تماما عن سواه.. وقبل أن يتم قالت له ليلى تتمم كلماته :.. من الرجال؟ لماذا؟ ألست برجل؟ دعنى يا قاسم، وإلا تركتك، ومشيت.

فى نفس الليلة، وفى نفس المطعم، وبعد ان اعتذرت عن أن ترقص مع قاسم، تقدم منها واحد، واستأذن صاحبها ليدعو ليلى للرقص معه.

وقبلت ليلى!! وظل قاسم وحده!

عندما دارت مع فارسها على أرض الحلبة، مرة ومرة.. دار بينهما حوار مثير :

ـ لماذا لم تسافرى بعد؟

ـ لأنى لم أقرر بعد!!

ـ والاتفاق؟

ـ أنفذه عندما أقتنع به.

ـ ألم تقتنعى بعد؟

ـ سؤال سخيف، ولو أنى كنت قد اقتنعت، لما وجدتنى الليلة هنا.

ـ ومتى ستقتنعين؟

ـ هذا شأنى وحدى!

ـ وارتباطك معنا؟ الارتباط له طرفان!

ـ أفسخه الآن إذن!

ـ لا لا.. لا تتضايقى من كلماتى.

ـ أنا لا أعيش بحساب كالأرقام!.. أم أنى قد صرت أنا الأخرى صفقة!

ـ العفو يا سيدتى. إنما الأمر يتعلق بزبائن يتعجلون وصول الأمانة.

ـ الأمانة تعنى اللوحات؟!

ـ نعم.. بالضبط.

ـ ولماذا لم تستعمل الاسم الواضح؟

ـ ولماذا لا أستعمل الكنية أو الرمز؟

ـ لأننا لسنا مضطرين لا الى الكنية ولا الى الرمز.

●●●

المهم أن ليلى وهى تدور مع لص الفن، وهو يراقصها، نظرت حولها لترى بعض وجوه الراقصين فى الحلبة.

ووجدت فتاها الرقيق الحليق الأنيق.

وجدت واحدة فارعة الطول، كعصى من الأبانوس، تراقصه فى مهارة وتفنن!

وكان يتعمد هو وزميلته أن يقتربا من ليلى وفارسها! وشعرت أن الشاب الرقيق الأنيق الرشيق الحليق، يؤدى عملا! لكن لحساب من؟ هى لا تدرى!

وعادت تتذكر ما عرفته عن سوق الفن.. سوق التزييف، والتضليل، وتهريب التاريخ من حيث نشأت، إلى حيث، يجد التقدير وحسن العرض، وجمال المكان الذى يعرض فيه.

هذه هى سوق الفن.. تديرها عصابات ومتأمرون ومغامرون، ومقامرون، يستبيحون الدم والأخلاق، ويتفننون فى قتل من يعترض طريقهم! ولهم شركاء يحمون ظهورهم، بكل وسيلة!

ونظرت أمامها لترى من أخذ يراقصها، ثم نظرت الى الناحية الأخرى، فوجدت مضيفها وهو يراقص فاتنة ذات جمال صارخ.

-.. يا ليلى! أفهذان طرفان متقابلان.

- أو متنافسان!

- أفكل يريد الصفقة لنفسه أو لفرقة تزييف ينتسب إليها؟!

- عجيب يا ليلى.. أن خصومة أصحاب المصالح، لا تقل عن حرب الدول لتحمى كل منها مصالحها!

.. وسكتت ليلى برهة.. ثم عادت إلى تفكير يثقل رأسها الصغير، فتكاد أن يسقط منها!!

- أنت قابلت الفتى الرشيق هذا فى إدارة الجوازات.

وهو الذى تعرف بك، وسعى اليك.

ثم هو صاحب الدعوة إلى هذا المكان.

.. وهنا يا ليلى قابلت أحد اللصين، من تجار الفن وتزييفه.

أفتم هذا مصادفة يا ليلى، أم أن أحد الطرفين يراقب الطرف الآخر؟!

فإن كان اللص هو الذى عرف بالدعوة فأتى. فهو اذن الأقوى!

-.. وعلى العكس، يكون الطرف الآخر أقوى، لو استدرج التاجر الى هذا المكان.

●●●

وأحست ليلى أن التفكير قد بدأ يصيبها بصداع.

وكان عليها أن ترتاح من هذا كله، فاستأذنت الفارس الذى راقصها، لتجلس فى هدوء تنصت للموسيقى.

وبينما كان اللص يصحبها الى مكانها على المائدة قال لها.

- تسافرين على أقرب طيارة.

وقالت فى حسم :

- أنا لا أتلقى أمرا منك.

قال فى سرعة :

- العفو يا ليلى.. إنه رجاء.

قالت ليلى فى غضب :

- رجاء! أى رجاء هذا وهو يقترن بأفسد ما عرف الذوق الإنسانى؟

قال اللص :

ـ أفسد ما عرف الذوق الإنسانى!!

قالت ليلى :

ـ نعم. إن التجارة فى الفن وتزييف أسماء الفنانين، واستبدال من رسم بمن لم يرسم.. ومبالغ تدفع، وشراء إرادة ليلى لتسافر بالأمر! ما هذا يا عرقوب؟

قال اللص :

ـ إسمى يعقوب.

قالت ليلى تسخر :

ـ عرقوب أو أيوب أو يعقوب أو عقيرب.

قال اللص يستفسر :

ـ ماذا قلت؟ عقيرب؟ حتى العقرب تستكثرينه على فاستعملت التصغير، للتهوين من شأن من تطلقين عليه اسم العقرب؟

قالت ليلى، وقد ارتسمت على شفتيها بسمة، خدرت أعصاب كل رجل فى هذا المطعم :

ـ التصغير قد يستعمل للتهوين، لكنه يستعمل أيضا للتلميح.

وضحك اللص وهو يقول :

ـ إذن نقف عند هذا الحد، حتى لا تعودى الى الغضب.. ورجائى أن تسرعى بالسفر.

وقالت له فى بساطة، وعدم اهتمام :

ـ عندما يأذن ربى سأسافر.

●●●

وذهبت ليلى الى أثينا.

.. وهناك فى مطار أثينا وجدت مجموعات من فنانى المسرح والسينما والتليفزيون، يصلون فى مجموعات، منظرها مزعج! ورأت ليلى فى وجوه القادمين ما يخجل! فقد جاءوا لتزييف الفن أيضا! وابتذال النفس من أجل الكسب السريع العاجل!

إنهم يبدون الاستعداد للعمل ليل نهار! والاشتراك فى أعمال قد يرفضها الذوق، وتأباها كرامة أى مواطن يعتز بوطنه! ويبدأ عملهم وهم بعد فى مطار أثينا، وتتكون منهم

فرق كفرق كرة القدم وكرة السلة... وسواها وسواها. والمنتج واقف يراقب ويرقب. فهو لا يعنى بغير المكسب. فليمثل دور الشيخ، شاب فى مقتبل العمر! وقد يتقمص شخصية متدين سكير لا يشعر بقداسة ما يقدمه من فن!

ويرى الناس على الشاشة، شخصا واحدا، يمثل فى قناة للإرسال دورا لشحاذ! وعلى القناة الأخرى، يمثل دور المليونير! ويراه المشاهدون على نفس الشاشة، وفى نفس الليلة، فيتوهون! ويضيع عليهم ما يحمله الفن من شحنة أخلاقية أو فنية!

أليس هذا هو التزييف بعينيه؟!

.. وتسكت!! نحن معلمى الدنيا معنى الفن ورسالته الكبرى، نشارك فى تسفيه عقل المتفرج! والإستهتار بإدراكه؟

وكيف...؟

كيف يكون شعور الفنان المصرى، وهو واقف فى الموقف فى اثينا أو فى سواها، أن يأتى الدور عليه! فينفذ ما يطلب منه.. وهذا يكفيه! ليقتنع بالأمر الواقع!

... يقتنع!!

فنان.. ويقتنع، بأنه قد أدى دوره، فى التعبير عن الناس، فى حين نجده، لا يستطيع التعبير حتى عن نفسه!!

وبينما كانت ليلى فى المطار ترقب وتراقب، وتتحسر على أن يؤول الفن إلى أيدى الأفاقين والتجار!!

.. تجد نفسها أمام مفاجأة لم تخطر لها من قبل على بال!

أن اللص الذى رأته آخر مرة فى المطعم، واستأذنها ليرقص معها!

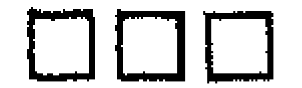
.. قد وصل إلى مطار أثينا.. هو الآخر!

وخلفه واحد يتتبعه بعين يقظة، تغطيها نظارة سوداء أنيقة... من هذا الشخص يكون؟

.. أليس هوَ يا ليلى، من دعاك إلى عشاء راقص، وأبيت الرقص معه فقبل الوضع، ولم يضايقه أن تلبى رغبة رجل آخر!!

.. هؤلاء قوم.. بغير قلوب ومشاعر يا ليلى!

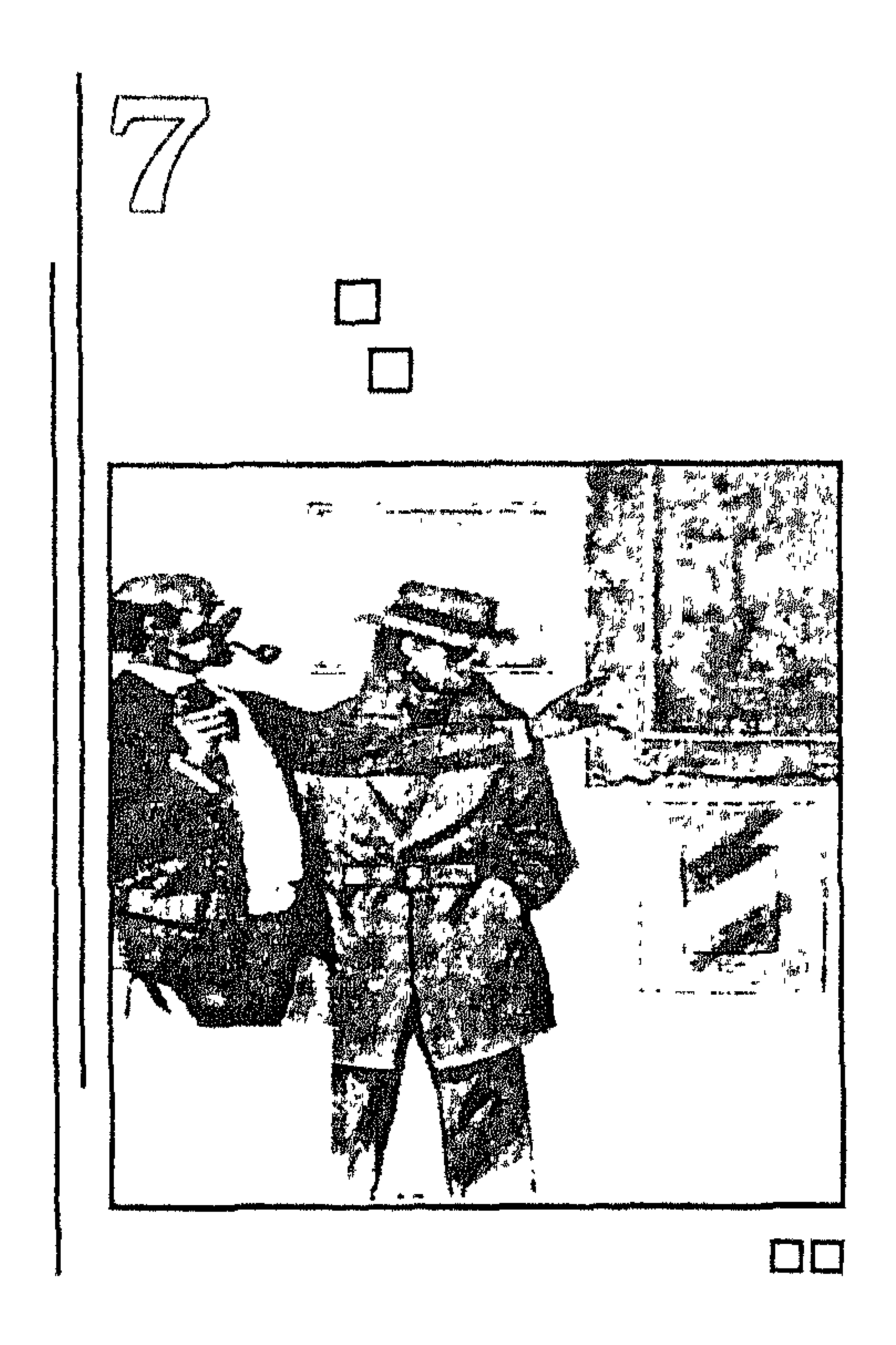
وها أنت ذى فى أيديهم، لا تعرفين، من الخيِّر، ومن الشرير؟ من سيقف معك ومن سيقف ضدك؟.. حتى لو اضطر لقتلك!



7

□

□



□□

.. وركبت ليلى سيارة أجرة، وهى لا تعرف اسم فندق يأخذها اليه..

ولعب الفأر فى عب ليلى من أول لحظة!

.. لماذا لم يسألها السائق عن مقصدها؟!

لقد كان إلى جوار السائق، شاب فى وسط العمر، فهل كان هذا الشاب جزءا. من عصابة تتبعها؟!

.. ولم..؟

لقد جاء اللص.. يعقوب كما يدعى..

وجاء شخص آخر، تحمس لمساعدتها فى الجوازات.. وقال أن اسمه قاسم..

وها هى ذى أمام لغز آخر! سيارة الأجرة. تسألها عم تريد، وهل حجزت لنفسها فندقا لتنزل فيه!

وليلى تلاحظ، لكن لا تتكلم!

.. هى. تحتاج لكلام مع شخص آخر، فقد دربتها الأيام ألا تتحرك إلا ومعها ليلى أخرى، تطارحها النجوى والأشواق، وتشكو لها مخاوفها! وفى أية ظروف، فهى دائما معها! قد تكون مع الناس، وفى أى زحام، فلا تشعر ليلى بهذا الصخب يحيط بها، وتتحدث من داخلها، مع ليلى الأخرى فى داخلها!

وعندما تبادلت ليلى مع ليلى، بعض شكوك.. قالت لها ليلى الأخرى أن لكل شئ ثمنا! وها أنت ذى قد اخترت الطريق الشاق، فلا تضعفى، وأنت لا تزالين بعد، على أولى درجات السلم..

وصاحت ليلى الأخرى : لكن كيف أواجه وحدى العصابات من السماسرة والتجار ولصوص التاريخ؟ وأنا وحدى، وحربهم تدور فى السر، أو تحت الارض، ولهم عيون تتجسس، وأسلحة تقتل؟! ولم ترد ليلى الأخرى!

ولا ليلى التى يراها الناس، كانت تنتظر من ليلى أن تتكلم!

.. وفيم الكلام؟ وليلى قد اختارت هذا المصير، ولن تتراجع!

●●●

ووصلت ليلى إلى أكبر فندق فى عاصمة اليونان، بأثينا!

وأحست من أول وهلة أنها قد وقعت!!

الفخامة تعنى الإنفاق ببذخ! والإنفاق فى هذا الفندق أكبر من قدرتها!

وعندما استفسرت من سائق السيارة عن الأجرة أحنى لها رأسه فى أدب جم، وهو يقول لها .. وبالعربية! الأجرة مدفوعة يا هانم!

ولم تشأ ليلى أن تبدأ زيارتها لأثينا بمشاجرة مع واحد. يتحمل مسئولية. هو عبد المأمور.. فأين المأمور وأين الامر لتلطمى على خده يا ليلى صفعة؟!

المهم أنهم حملوا حقيبتها، الى جناح حجزوه لها .. إلى جناح؟ وكم تدفع عن الليلة؟! وهل هى تحتاج لجناح فاخر؟

وتليفزيون ملون؟ وتليفون يصل نزيل هذا الجناح من الفندق، بأى مكان فى العالم؟

ألهذا يسرق من يسرق، وينهب من ينهب؟

ألكى يتحقق هذا المستوى لمغامر، فلا وسيلة له إلا التزوير والسرقة والتزييف، والاقبال على كل حرام، بلا تمييز؟

وهل يا ترى، يستحق التمسك بجناح فى فندق، أو فيللا على الشاطئ السحرى فى الكوت دازير مثلا، التضحية بالأخلاق، والتعرض للقتل، أو للسجن طوال العمر؟!

أفهذا ثمن الشرف المفقود؟!

ـ وسألت ليلى، ليلى الأخرى أسئلة شتى، وكان بينهما حوار :

ـ أتظنين يا ليلى، يا شريكتى فى جلدى؟ أن أصابع مخابرات الدول الكبرى، بريئة من هذه التصرفات، وهى ملحوظة؟!

ـ أم يكون هذا اختباراً لقدرة ليلى على أن ترفض؟

ـ أم تكون هناك عصابات أغنى من مخابرات الدول، وتكسب مكاسب لا حصر لها، من التزييف والتزوير؟ ومن يدرى، فقد يمتد نشاط عصابات العالم إلى الانسان من الداخل فتحاول تخريبه؟

ـ كل عمل بهدف.. أليس كذلك؟

ـ نعم.. خاصة فى عالم بضاعته الزمن، والزمن إذا ضاع، صارت الخسارة إفلاسا..

ـ أى إفلاس يا ليلى، وما نوعه؟

ـ إفلاس فى المادة؟

ـ هذا مفهوم.

ـ أهو إفلاس فى الهيبة، فلا يهتم بقوة هذه العصابات أحد!

ـ هذا أيضا مفهوم.

ـ من يدرى، فقد يكون الإفلاس فى فرض ارادتها، على واحدة صغيرة وضعيفة كليلى..

ـ لكن هذا يحدث فى السر..

ـ صحيح..

ـ ما الخطر إذن، طالما أنه لم يعلن..

ـ هو لا يعلن لى ولا لك، لكن لكل عصابة أجهزة تتابع انشطة كل عصابات على شاكلتها..

ـ أتخافين يا ليلى؟

ـ وهل الخوف جريمة؟

ـ لكن أين الثقة بالنفس، وهى الوجه الآخر للخوف وللذعر؟

ـ الثقة تحمى نفسها يا ليلى..

ـ من يحميها.. إذن؟

ـ من يحمى أى شئ، أو كل شئ، حتى شرف الأوطان وعزتها..

ـ تعنين القوة..

ـ طبعا هذا ما أعنيه..

ـ فإذا عزت..

ـ نستبدلها بالثقة بالنفس..

ـ وتحارب هذه الثقة، أسلحة الموت؟!

ـ السؤال الأصح هو : أتنتصر هذه الثقة على أسلحة الموت؟

ـ هو هذا.. أجيبى إذن.. هذا غريب!

ـ أحيانا تنتصر الثقة على أى سلاح غاشم؟

ـ كيف..؟

ـ حامل الأسلحة الغدارة، محروم من الثقة بنفسه، لأنه أجير.. وماذا يهم أجيرا، يؤدى مهمته كأنما هى مهنة.. أو صنعة؟!

ـ أو وظيفة، فى حكومة مسعورة!!

ـ وتصبح الثقة بالنفس أقوى من قنابل فتاكة؟!

ـ طبعا.. فصاحب الصنعة يقبلها ليموت، بل يقبلها ليتمتع بحياة تصل اليها بطريق مشروع..

ـ والأسلحة التى يحملها؟

ـ تحتاج من حاملها، أن يكون أقوى منها! أو فسلاحه مغلول!

ـ وبغير سلاح ينتصر محارب؟

ـ كل منهما سيغدو عند الجد بغير سلاح.. فيتساوى الطرفان..

ـ وتصير الغلبة..

-.. للثقة بالنفس يا ليلى..

وعندما وصلت ليلى الى الجناح المحجوز لها، كان أول ما قابلها فيه، ورد أحمر وأبيض وأصفر.. ومتداخل الألوان كذلك..

وابتسمت ليلى للورد..

لكنها وجدت سلة أنيقة وكبيرة تحوى فاكهة الموسم، حتى المستورد منها!

ثم وجدت ظرفا أنيقا، من مدير الفندق، يرحب بها :

وعلى مكتب صغير وأنيق، وجدت ليلى ورقة مكتوبة على الماكينة، بلا توقيع فأخذت تقرأها، فى حرص وعناية..

كانت ورقة بيضاء..

وكانت الورقة تقول :

مساء بعد التاسعة، سيحضر إليك صديق، ليصحبك الى مطعم يونانى تقليدى ظريف..

●●●

وأخذت ليلى تفكر..

أفذلك فخ؟ أم أن الدعوة إلى العشاء بريئة؟

وجلست ليلى على مقعد فاخر ومريح، وأغمضت عينيها لتفكر..

إن قبلت، فهى تعطى الفرصة لمن يدبر أن يؤذيها، وإن رفضت فهى تقول لعصابة اللصوص التى تتعامل معها، أنها ترتجف من الخوف، وهذا شئ أسوأ!!

وفتحت ليلى عينيها، وقد استقر لديها العزم، على أن تذهب.. ولم لا؟ ألم تحضر وفى تقديرها أن تصاب بأذى؟ وأنها ستتعرض لآلام ومحن، تختبر صلابتها؟ فلماذا تتردد.. المقسوم سيحدث، حتى لو من تخطيط واحد.. اسمه قاسم..

وأخذت ليلى تضحك، وهى تدير مختلف المعانى عن القاسم والمقسوم، وما بينهما من روابط أو فجوات..

لكن هل يكون قاسم هو الذى يصحبها؟

وانتظرت ليلى، واسترخت فوق المقعد الوثير فى حجرتها..

لكن الوقت والإرهاق سرق الفتاة، فلم نتنبه لوعد مضروب، لم ترفضه.. لكنها لم تقبله كذلك..

وعندما استيقظت كانت الساعة قد اقتربت من منتصف الليل..

وفكرت ليلى فى أن تخرج، لا للقاء الشخص المجهول، لكن بحثا عن مطعم تأكل فيه..

وقبل أن تحاول أن تترك فندقها، أخذت تسأل الاستقبال.

ـ هل الوقت قد أصبح غير مناسب لتناول طعام عشاء؟

وقال لها رجل الاستعلامات :

ـ نعم إن كنت تريدين العشاء هنا، فالمطعم مغلق..

قالت ليلى :

ـ والجائع..

قال الرجل :

ـ يتناول فى غرفته عشاء باردا وخفيفا.

لكن الرجل مضى، ليقول :

ـ ومع ذلك فالتافرنات مفتوحة.. حتى الصبح..

وسكتت فهى لا تعرف معنى كلمة تافرنات.. وشعر الرجل أن الضيفة لم تفهم قصده، فشرح لها :

ـ المطاعم فى اليونان.. أعنى المطاعم الوطنية، يسمى كل منها تافرنة، واليونانيون ككل شعوب البحر الابيض، يسهرون طويلا، يأكلون ويغنون، ويرقصون فرادى وجماعات..

قالت ليلى :

ـ وأين أقرب تافرنة من الفندق؟

وشرح لها الرجل كيف تذهب..

ولم يكن الأمر صعبا، فقد خرجت من باب الفندق، وبدأت تسمع صخب الموسيقى، وهو يدوى فى أذنيها! ونسيت شرح استعلامات الفندق، وتتبعت الصوت، وكلما كانت تجد الصوت يتباعد عنها، كانت تعدل خط السير الذى تتخذه لتصل إلى التافرنة..

وفجأة وجدت نفسها أمام بوابة واسعة، ورأت ناسا بعد البوابة يجلسون على مقاعد، وأمامهم أقداح "السم الهارى"!!

"السم الهارى" هو تعبير سمعته من أمها، وهى ترويه عن والدها.. وبرغم أن الرواية تعود إلى والدها، إلا أنها اقتنعت دائما، بأن الخمر بكل أنواعه وأصنافه، هو هذا "السم الهارى".

فهو أولا يسحب من الإنسان عقله!

والانسان بلا عقل مجنون!

ثم إن الإنسان المخمور كثيرا ما يتخذ الخمر وسيلته، ليفعل ما يفعل!! وسيجد ـ اذا أحرج ـ ناسا تدافع عنه، فهو

"سكران"!! ألا يكفى أنه "سكران"؟! غائب عن وعيه؟! ثم إن المخمورين، من السكارى المحترفين، يسلكون سلوك الطيش، فيخون السكران امرأته.. وهو «سكران»، وامرأته تسرف فى خيانتها له، إذا اتخذت نفس الحيلة وسيلتها!

هو إذن "سم هاري"، هذا الخمر! عفن مغموس فى الوحل! تشرب بخطايا النفس، ونزق الصبية، حتى لو شابوا!!

ليلى اذن تكره كل خمور الدنيا! ـ ولقد وقفت على باب التافرنة، تتردد فى أن تدخل..

ـ هل تدخل بين المجانين بقدميها؟!

ـ وهل تخافين مجنونا، يتخفى فى سكره، ليكون سلوكه.. أفسد، ولا لوم عليه!

ـ.. أنا ليلى، وإنى لعلى أتم استعداد لأقاتل، حتى المخمورين..

وقبل أن تصل ليلى إلى نهاية الحوار مع شريكتها ليلى الاخرى..

كان أحد اليونانيين، فى ملابسه التقليدية قد أسرع إليها، وأمسك بيديها، ليجذبها الى الداخل تراقصه ويراقصها..

وفى لحظة عاودتها روح تحد كامنة فيها..

ما هذا؟ ومم تخافين؟ ومن هذا الصعلوك لتخافه ليلى؟

.. ومضت ليلى مع الرجل، وكفاها فى كفيه، وحركاته تهديها لهذا الرقص الشعبى فى اليونان..

وبعد بضع لحظات، صارت ليلى موضع الالتفات العام؟

الرجال أفاقوا!! لأن السحر قد كان بالفعل أخاذا ومثيرا، يستولى على المجتمع - أى مجتمع - اذا حلت ليلى فيه!! الرجال استداروا ليروا ماذا يحدث، والنساء خفن على أزواجهن من هذا الغزو الجرئ، والواثق من نفسه..

وبعد لحظات بدأ العازفون اليونانيون، يستعيدون حماستهم، فيتابعون خطوات ليلى، وقد التقطت الحركات اليونانية، من الرجل الذى شدها إلى الداخل لتراقصه، ثم برعت فى تطوير الرقص اليونانى، ليصبح لحنا يعزفه الخبير الواثق، على أوتار قلوب عذارى!

وبعد لحظات أخرى، شارك ليلى كل الموجودين فى التافرنة.. شاركوا ليلى هذه الرقصات المرحة وبعد لحظات أخرى كان الشارع اليونانى قد دخل التافرنة، ليرقص مع ليلى.. وصارت ليلى ملكة هذه التافرنة..

وبدأت تتحدث بلغات تعرفها فلا يرد أحد، فلما تحدثت بالعربية، دوى التصفيق لها، وبدأ اللسان اليونانى يعود الى طبيعته الأولى! لقد ولد أغلب هؤلاء فى مصر..

ـ لا.. بل فى الزجازيج!

ـ.. لكنى بحراوى من دمنهور!

ـ ولا تخاف من المثل الشائع عن أهل دمنهور؟

ـ والله كدب!. كله كدب، مفيش فى دمنهور، ولا واحد نورى، مش ألف..

ـ أنت لم تفهم المثل، إن الألف هم النورة، والدمنهورى وحده، يضع هذا الألف فى جيبه!

ـ.. أهو كده نبجى موافج..

ـ كم سنة عشت فى دمنهور؟

ـ أنا مولود هناك.. أجول ايه؟.. مدام؟

ـ لا مودموازيل..

ـ يا سلام!! أهو كده بيجى فيه أمل!

ـ أمل!! والا عشم إبليس فى الجنة!!

●●●

وجلست ليلى مع فارسها لتأكل..

وكانت معه امرأته وصديقات وبعض صديقات الأسرة..

ورحب الجميع بها، وليلى تتحدث فى داخلها، مع ليلى الاخرى..

ـ يظهر أنه وباء..

ـ ماذا..؟

ـ هذا الكرم بين أبناء البحر الابيض..

ـ وتصفين هذا الكرم.. بأنه وباء؟

ـ.. ومعد أيضا!!

ـ لماذا..؟

ـ إما أن أبناء اليونان استوردوا الكرم من مصر وإما أن الكرم هو طابع كل أبناء دول البحر الابيض..

ـ ولم لا يندمج السببان؟

ـ ربما..!

●●●

المهم أن ليلى بدأت تلتقى بمجتمع اليونان، من أول ليلة! وظهر لها أن فى أهل اليونان شجاعة، "كجدعنة أولاد البلد"، وأنهم يحبون الغرباء وما دام لهم فى مصر ذكريات وحكايات، فحبهم للمصريين لابد أن يكون.. عشقا!

لقد بدأت ليلى تأكل، بعد منتصف الليل..

والتافرنة وهى المطعم الوطنى فى اليونان، تعيش على ايقاع اليونانيين، فهم يحبون الليل، خاصة تلك الليالى القمرية، وعشاؤهم لا يمكن أن يزدردوه، ولا أن يتناولوه بالغصب. كدواء مفروض. لكن أهل اليونان يأكلون أنواع السردين، والسمك المملح، والزيتون.. وهذه ليست غير بداية، تجعل لأنواع الشراب طعما مقبولا!! وفى تناثر أطباق المشهيات، تكون الموسيقى قد بدأت تفتح شهية الناس الى طعام.. طعام كثير.. لا ينتهى!

ثم تكون الرقصات مع مشهيات كثيرة، من خير البحر، ومن خير الأرض، مع أنواع من المخللات لا يعرفها الا اليونانيون..

●●●

وتختلط الأنغام بالرقصات، وتتلاقى الأنغام بغناء الشعب بآلامه أو أمجاده، ويشعر الواحد هناك برنة حزن وأسى، وكانت ليلى تجهل ظروف اليونان على حقيقتها. لكنها بذكاء فتاة مصرية، أدركت أن دموع اليونانيين قد فاضت خلال مراحل التاريخ وهو طويل، وأن الهجرة التى فرضتها عليهم ظروف صعبة، كانت قاسية، وكأنما هى كوارث، تشتت أهل البلد الواحد، أو أهل المدينة الواحدة، أو أهل الحى الواحد... وفى أحيان تشتت حتى أفراد عائلة مسكينة!

وشعرت ليلى أن بينها وبين أهل اليونان نسبا!! هى منهم، أو هم منها. فالحزن سمة تتميز بها الحياة فى اليونان... أما الصبر فهو علاج الحزن، ولولاه لقتل الحزن كل حزين!

وظلت ليلى تأكل، وتغنى أغنيات اليونانيين، فلما بدأت تدندن بأغنية مصرية، من بطن الريف، ارتفع صوت الفارس وامرأته، وزميلات جمعتهم مائدة العشاء فى التافرنة..

وأحست ليلى أنها انتقلت الى مصر، بفرق واحد أن المصريين يغنون، ويصحب أغنيات الشعب المزمار، أو الناى، أو الطبل البلدى، فان لم تتوافر هذه الآلات، حل التصفيق محل الآلات.

وزاد عجب ليلى، عندما أقبل عليها أفراد الفرقة الموسيقية، ليشاركوا فى الغناء المصرى، النابع من قلب الريف.

.. وبدأت أشعة الفجر، تحطم ظلمات الليل.

وقالت ليلى : سأعود الآن الى الفندق.

وأصرت المجموعة التى معها. على صحبتها حتى الفندق.

وكان يسير فارسها فى حلبة الرقص، إلى جوار ليلى.

وسمعته يقول لها : تصورى يا ليلى.. أنا كلفت بمراقبتك.

وانزعجت ليلى، وهى تقول له : مراقبتى؟.. أنا؟

قال لها : نعم مراقبتك أنت.

وسألته ليلى : ومن ذا كلفك بهذا؟

قال الرجل بصراحة: أهل البحر الأبيض :.. آهو..! ناس أشرار!!

وزاد القلق لدى ليلى، فصاحت تسأل : من هم هؤلاء الأشرار؟

قال لها : ألست ابنة فنان شامخ؟

قالت ليلى : نعم. هذا صحيح.

قال الفارس : وجئت بلوحات لأبيك.

.. وسكتت.. ولم تردا

وقال الفارس : هم يعرفون أنك لم تأت بشئ مما اتفقوا عليه معك.

وظلت ليلى قلقة، وهى تسمع.

أما الفارس فمضى يقول لها : لقد توقعوا هذا منك، فأعدوا العدة لإزعاجك، وعند الضرورة...

وأكملت ليلى تقول للفارس :... لقتلك!.. قلها..

قال : فإن كنت على علم بما حدث، فماذا أقول لك؟

قالت : أنا لا أعلم شيئا، لكنى أقيس الموقف على ما حدث لأمى.

قال الفارس :.. أفقتلوا أمك؟

قالت :.. نعم.. وأمامى.

قال لها :.. وطبعا.. هربوا!

قالت : هو واحد.. كان واحدا، وفر باللوحة التى ذهبت ضحيتها أمى!

قال الرجل :.. لا.. ليس القاتل واحدا يا ليلى. هو واحد قد نفذ أما الشركاء، فلا شك أنهم كانوا عددا لا يمكن تحديده! لقد فر فأخفوه، حتى لا يعرف أحد أين يكون.

قالت ليلى : وطار إلى الخارج.

قال الفارس :.. نفس الخطة اتبعوها فى كل جناية.

قالت ليلى : لكن الجانى قد كشف عن نفسه.

قال الفارس :.. أبدا.

قالت : بل حدث.

قال الرجل يسأل : تعنين أنهم قبضوا عليه؟

قالت ليلى : لا.. لقد هرب لكنه قد كان السبب فى الافراج عنى.

وعجب الرجل اليونانى الطيب وهو يسأل : هل سجنوك يا ليلى؟

وهزت رأسها، فصاح يقول : أفهذا السحر يسجن!.. أفهذه الفتنة بكل ما فيها من روعة تسجن! لا أصدق!

وقالت ليلى : بل هو ما قد فعلوه.. امراة وجدوها مقتولة فى شقة، لم يكن فيها سواى. ألا يشك هذا فى شخصى، لكن المجرم أخذ اللوحة، وبدلا من أن تحمل توقيع أبى، زيفوا التوقيع ووضعوا بدلا منه توقيعا آخرا! لا تسألنى كيف حدث التزوير، إنما الهارب قد ذهب.. نزعوا عن اللوحة اسم أبى ليضعوا بدله إسما من أعلام الفن فى العالم، ليرتفع ثمن اللوحة.

ووقف الرجل اليونانى وهو يقول : تزييف وظلم! وجريمة!

وهزت ليلى رأسها فى حسرة وهى تقول : لكن التزييف وقع، وألقى اللص حلية أمى، تحت مقعد فى مطار القاهرة، فبرأنى المجرم بلا قصد.. لو كان الأمر بيده، لأخفى أى دليل، لأظل سجينة، فيتردد على محراب الفن، الزاخر بتحف أبى المظلوم، يسرق فلا يراه أحد، ويتردد على البارات، وبيوت اللهو، ويرقص فى التافرنة... معك.. ربما!!

قال الرجل فى غضب : عرفت الآن، ما لم يكن يخطر على بالى أبدا.

وسألت ليلى : عرفت ماذا؟ قل لى!

قال : ما أشد الظلم الذى نحيا فيه! هل تتصورين أن كثيرين من أثرياء القوم هنا، يبحثون عن تخليد ذكراهم، فيدعون أنهم فنانون، ومبتكرون، وأساتذة للأجيال...

قالت ليلى تسأل : ويشتهرون!

قال الرجل : طبعا... وبنفس الأسلوب.

قالت ليلى : وتضيع أسماء صناع الفن...

قال الرجل : وينتسب الإنتاج الى غير أبيه... كلقيط.

قالت ليلى : وكم من فنان عظيم، سرقوا أعماله، ليضيفوها إلى من لا يتذوق شيئا منها؟

وقال الرجل يجيب : لا أعرف... هذا واحد من فروع نشاط عصابات الفن، لكن ليس هذا النشاط وحيدا! إن لهم أنشطة مختلفة!!

قالت ليلى :... مثل ماذا؟

قال الرجل : تزويد متاحف معروفة بإنتاج يطلقون عليه أسماء مختلفة... لا تقاطعينى... هو مرة فن عالمى، وهو مرة

إنتاح أصيل بلا شبيه! ومرة ثالثة، هو صدى لما أنتجته الحضارة منذ زمان طويل ولى!! ورابعة وخامسة... والمهم هو أن لصوص الفن ملأوا أخيلة الناس بأكاذيب... أكاذيب.. أقول أكاذيب.

وهزت ليلى رأسها، وهى تعجب.

ومضى الرجل يقول : ما أتعسنا نحن أبناء هذا العصر... لقد صار فيه كل شئ بثمن! التزوير بثمن! والتزييف بثمن! وخلع ثوب العبقرية على مليونير ماسخ مقلوب الجلد... بثمن!

قالت ليلى :.. والصدق؟

قال : بلا ثمن!

قالت ليلى : والأمانة؟

قال : بلا ثمن!

قالت : وأصحاب الحق فى إنتاج قدموه للأجيال؟

قال : يموتون من الجوع!!

قالت : فإن نشر الفنان إنتاجه على الناس.

قال : أسكتوا النقاد فلا يروج، وقد لا يعرفه أحد.

قالت : كفرح بغير زغاريد!

قال : أو موسيقى، بلا آلات!

قالت : أو كلمات حبسوها فى حلق الشاعر!

قال : إلا إن لان، ووافق على أن ينزعوا أعماله، ليضيفوها هم لشخص آخر!

قالت : وهذا أيضا بثمن!

قال : طبعا.. بثمن!

قالت : وينتسب الأولاد إلى أب مجهول؟!

قال : مجهول.. لمن؟ إن لهم أجهزة عالية الصوت، تصدع رءوس الناس، وتنشر على كل المستويات أسماء فنانين جدد ويصبحون بعد قليل عباقرة.. قلت عباقرة! أو تسمعين؟!

وسقطت من عينى ليلى دمعة.

●●●

وبدأ الفارس اليونانى يحكى مأساته.

لكنهما كانا قد وصلا قرب الفندق، قرب الفجر.

قالت للمجموعة ولفارسها بالطبع : تصعدون معى؟

قـالوا لهـا : تأخـر بك وبنا الوقت، ثم مـاذا يمكن أن تقدميه لنا؟

قالت وهى تبتسم : أنا لن أقدم شيئا، إلا.. الثلاجة!

قالوا : وماذا فى الثلاجة؟

قالت فى مرح : فى كل ثلاجة.. ثلج! أم أنك تتصور شيئا آخر.

قـال يونانى عـجـوز : ونحن نريد جـمـر النار، لا الثلج البارد!

قالت ليلى : ولولا الثلج البارد ما عرفت جمر النار.

قال لها ولولا جمر النار ما كان للثلج قيمة.

قالت : هما إذن ضدان.

قال العجوز : ولولا الأضداد ما عرف العالم معانى أشياء كثيرة.

قـالت ليلـى له : إنك تتـفلسف.. يا.. يا مـاذا؟ تبـتـئس لو ناديت بجدى!

قال العجوز وهو سعيد : يكفينى أنك أنت.. أنت بالتحديد تنادينني!

قالت: أغزل هذا يا جدى؟

قال : ما دمت جدك، فأنت الأخرى، صرت من مسئولياتى.

قالت : آ.. لا تسرف، فمن الجدود، مراهقون، كعفاريت الليل!

قال :... لكنى جدك، وأنا مسئول عن أمنك.. وعن قلبك!!

قالت: لكنى بلا قلب.

قال : وتعيشين بلا قلب!.. ما أتعسك يا بنتى!!

قالت : بل ما أسعدنى!..

قال العجوز لها : كيف تسعدين، وأنت بلا قلب؟

قالت ليلى : القلب قد يوقع صاحبه فى الأسر!

قال العجوز : لكنه أسر ظريف جدا.

قالت ليلى : لكنى من عشاق الحرية، وأرفض أن أقع أسيرة هوى! أى هوى!

قال فارسها هذه المرة : ليس كل هوى، كهوى آخر!

قالت ليلى : هذا وهم نصنعه بأنفسنا، لنصبر على بلوانا.

قال الفارس وهو يهمس فى أذنها : لم نتحدث بعد.

قالت ليلى : نصعد إلى جناحى فى الفندق ونتحدث.

قال الفارس : هذا جنون يا ليلى، أنسيت أنك هنا محاصرة.. تماما؟

قالت ليلى : لكن كيف يصل حصار الى جناح خصصوه لى؟

قال الفارس : إن أول خطوات محاصرتك، هو الجناح المخصص لك.

قالت ليلى :... ثم؟

ومضى الفارس يشرح : ومن ذا يدرى ماذا فى جناحك الفاخر!

قالت :... ماذا؟

قال : أجهزة تصنت، تعد عليك حتى أنفاسك!

قالت :... وماذا أيضا؟

قال : وأجهزة تسجيل، تتعقب حتى صوتك فى التليفون.

قالت : أفهذا هو العالم الحر يا ولدى؟!

قال : أنا.. ولدك؟

قالت : سامحنى، إن التعبير يخون حتى كبار الخطباء... أحيانا.

قال : نعود إلى ما كنا فيه... ماذا كنت تقولين؟

قالت : كنت أتحسر على عالم وظيفته إزعاج الناس... وهو مع هذا يدعى الحرية!!

قال : ولماذا تتحسرين؟ لقد صارت كلمات الحرية والعدل.. بضاعة!

قالت : وتقولها وعلى شفتيك مشروع ابتسامة؟!

قال : اسمعينى جيدا يا ليلى. إننا نحيا فى عصر، كل ما فيه بل ومن فيه مزيف! ناس تتكلم عن الأخلاق، وهى تخون وتغدر!وكلمات الحب والفضائل والوفاء، أكياس يعبئ فيها الناس بضائعهم حتى لا تنكشف فتفسد!! والعبقرية، ليست

فيما يؤديه الناس من أعمال تخلد وتخلد صانعها!! لم يعد أحد يهتم بشئ من هذا. هو يحيا للحظة!! أما ما فات فقد مات، ولم تعد تجدى فيه دموع، وأما أن يبنى أحد للمستقبل فهؤلاء ليسوا إلا سفهاء، يحرثون القمر!! أو الزهرة!! إنسان اليوم هو ابن اللحظة التى يحيا فيها، لا يسبقها شئ، ولا يعقبها شئ. هذه يا ليلى هى آفة زمن نحيا فيه ومع هذا فنحن نعيب حتى الزمن، لأنه لا يحقق لنا ما نشتهيه ونهواه.

قالت ليلى فى لهجة جادة : لكن قل لى، لماذا تحكى لى هذا كله؟

قال الرجل : ولماذا تحرجين ولدك يا أمى؟

وضحكت فضحك، وتمنى أن تعيش ليلى عمرها كله وهى تضحك! فالضحكة من ليلى، تساوى بهجة هذا العالم. وأخذ الرجل يشرح لليلى، كيف كان مكلفا برصد كل حركاتها، والإبلاغ عن أية حركة يرصدها. وكان يعلم أن من كلفه بهذه المهمة رجل بارع، يتلون بلون كل مهمة، فمرة تكون عملا على قدر من الوطنية، بينما هو يبحث عن أسرار الجيش ليبيعها لعدو بلاده! ومرة يتولى عملا آخر يصفه بأنه عمل إنسانى

على أعلى طراز، بينما يكون العمل المطلوب هو ترويج تجارة بيع الدم من محتاج يبيع دمه، ليعالج طفلا من أطفاله!

واستفسرت ليلى عن وصف العمل المطلوب الآن، فقال الرجل لها:

إن الوصف الذى أطلقه عميل السوء، عن الاتجار فى الفن بأنواعه، يستهدف إشاعة الذوق بين الناس، لأن الذوق اذا شاع قلت جرائم مختلفة، واستحى الناس من العيب! ورتبوا أنفسهم على ممارسة فضائل لا يقنع الناس بها إلا بالفن.وأخذت ليلى تسخر.. وتصيح والفجر وليد، بأن السرقة والنهب والتزييف، صارت وسائل عصابات الشر، فى تعميق الفضيلة فى نفس الإنسان.

وشاركها فارسها، بأن تزييف الفن فرع بسيط من نشاط هذه العصابات، فهى تعمل فى مختلف المعادن الثمينة ابتداء من الفيروز إلى الماس، ويجدون الشارى فى كل مكان! ومما يحكى عنهم أن قدرتهم على سرقة الكحل من العين، تهيئهم لسرقة خواتم نادرة، صنعت خصيصا لناس معروفين، وهى مسجلة عند التجار لا يخطئها منهم واحد. وكم سمعنا أن

هدايا ملوك وأباطرة، قد بيعت هنا وهناك، وتسأل من ذا باع، فلا نجد جوابا!! وحتى الملوك والأمراء اذا عشقوا، فإن هداياهم لعشيقاتهم، تتسرب مع الزمن، ومع نظم الحكم ومع طمع التجار، ومع ضعف نفوس الأمناء عليها.

قالت ليلى : وسنظل أمام الفندق نتحدث؟ وما ذنب أفراد المجموعة؟

قال لها الفارس : هنا فى الخلاء الواسع، لا تصنت ولا تسجيل! أفليس هذا أفضل؟

قالت ليلى : لكن الوقت قد طال بنا.

قال الفارس : أنا سأوهمهم أنى معهم..

قالت ليلى :أذكاء هذا، لتضمن كل الأطراف، تربح ما تربح، وبلا حرج أو شك فيك؟

قال لها الرجل : صدقينى أنا صادق معك.

قالت ليلى : ومعهم.. أيضا.. صادق؟

قال الرجل وكلماته تتعثر فى خجله : أنا.. أنا أشعر نحوك بشعور آخر!

قالت ليلى تتهكم : أفهذا حب مثلا؟

قال لها : وهل الحب جريمة؟

قالت ليلى : اسمعنى جيدا.. يا فارس ليلى فى حلبة رقص فى التافرنة.

قال لها : أنا لن أتجر..

وسكت الفارس ولم يكمل!! ففهمت ليلى قصده، ولكنها نبهته إلى أنها لن تفتح باب الحب لأحد، حتى تحقق ما وهبت نفسها له.. أمى قتلت وعيناى عليها! أمى ماتت لتدافع عن لوحة زوج فنان، وهبته كل مشاعرها.. وأبى قد مات قبل أن أولد... لكنه كان يشعر بوجودى، وأنا جنين فى عالم الغيب. لكن أمى نقلت إلى رسالته لأصون الفن، وأحمى الإنتاج الفنى من التزييف والاستغلال. واليوم عرفت منك أن قوما من أكبر أثرياء هذا العصر، يريدون شراء لقب الفنان، بثمن لا يمثل شيئا عندهم ويفاجأ العالم بأسماء فنانين لم يعرفوا معنى اللون، ولا معنى الفن، لكن هذا كله مطلوب للنقاد، أما هم فإنتاج الفن مهمتهم.. وهذا هو حسب الفنان فى الدنيا.

وكما يحدث فى الفن، يحدث نفسى الشئ، وما هو أتعس منه، فى دنيا الشعراء والأدباء والقصاصين. يشتهر الشاعر بأشعار صعلوك موهوب، يريد فقط أن يأكل.. ويشتهر القصاص بكتابات أشخاص ظلموا، فلم يجدوا غير الظل مكانا يحميهم!

وقالت ليلى فى صوت مشروخ : أفهذا عالمنا؟ وهل تقبل أن ننتسب إليه، ونحن على علم بخفاياه؟ ما أتعسنا يا فارس ليلى!! بل إن هناك من هم أتعس منا . إن العباقرة ممن صنعوا الفن، وصنعوا الشعر، وصنعوا ألوان الأدب المختلفة، يسمعون عن حفلات تقام لتكريم هذا الكاتب أو ذاك الفنان، وهم من صنعوا المجد لهم! كيف تصير الحال الى ما صارت؟ وكيف يقبل إنسان على ذمته وضميره، أن يسمع مدحا، لإنتاج من صنع سواه!

●●●

وشعرت ليلى، بالاطمئنان الى فارسها اليونانى، فى التافرنة.

لكنها فجأة نفرت منه، حين أمسك كفيها، يحاول تقبيلها.

ـ ما هذا؟ أجننت؟

ـ وما العيب أن يجن رجل، بملاك مثلك؟

ـ أنا يا صديقى. أبحث عن مجنون!

ـ وأنا فإنى أبحث عن ليلى!

ـ أية ليلى تقصد؟

ـ ليلى العمر، وهى أمامى.

ـ أو تنسى محنتها؟ تنسى الوصية التى تعيش.. لتنفيذها؟

ـ هذا شئ، يتناقض مع حب عارم!

ـ أسمع أن الانسان إذا انشغل بحب، فلن يصلح لشئ آخر.

ـ.. يا ليلى.. يا أشهى ليلى.. لأى رجل!

ـ أريد أن ألقنك الدرس الذى تحتاج إليه لتفيق.

ـ لأنك.. وقعت فى حبى!

ـ كذاب. أنا أقدر فيك، كشفك لدور لصوص الفن.

ـ وأنا أقدر فيك إصرارك على تنفيذ وصية أبيك وأمك.

.. أوصتنى أمى، بألا أثق برجل.

ـ أنا أطلب حبا لا ثقة.

ـ وكيف يقوم الحب، على غير ثقة؟!

ـ للحب مجرى آخر فى قلب الانسان.

ـ تعنى أن واحدة مثلى تحب، وتشك فيمن اختارت، وتتآمر مع ذلك عند الحاجة؟

ـ إنى أقبل..

ـ تقبل ماذا يا مجنون؟

ـ.. ركنا منزويا فى قلبك!

ـ اذا كنت صادقا يا إبنى..

ـ.. إبنك؟!

طبعا ما شئت، فأنا أحبك مهما قلت.

ـ وتشترط على ألا تساعدنى.. إلا بثمن؟

ـ العياذ بالله! أبدا. أنا أرغب فى حب بلا غاية.

ـ كذاب أنت، ومن يصدق هذا كذاب مثلك..؟ ثم ما عيب امرأتك!

- هى زوجة.. مجرد زوجة!

- إنى أشك فى أنك يونانى.

- لماذا..؟ بل أنا من عاصمة اليونان، أثينا.

- تتزوج وتحب! تساعدنى.. وتحب! تقهر مقاومتى، وتحب! أفهذا خلق اليونانيين؟

- افصلى الحب عن أى شعور آخر.

- لا أبدا! واذا مضيت عن الحب، فسأتركك وأمضى!

- أجرى خلفك الى آخر دنيا الناس.

- سألقيك على وجهك لتلعق طين الارض.

- أهكذا يكون جزائى؟

- امرأتك تنتظرك. ولا معنى أنى سرت معك فى شارع فى أثينا أنى وقعت فى حبك. إن امرأتك وأصدقاءك ينتظرونك فى مدخل الفندق وأنا. أقر خيانة! إنى هنا، لاحارب خونة ولصوصا، وأفاقين فهل أنسى نفسى لأنك عرضت على الحب. إنى سأدافع عن زوجتك بدمائى.. والا صرت متناقضة مع نفسى.. أبحث عن حق الفنان فيما أنتج، وأخون الانسان، رجلا أو أنثى.. ما هذا؟

وظهـرت من تحت الارض زوجـة صـاحـبـهـا! وكـانت قـد سـمـعت ما دار فألقت رأسـهـا فـى أحـضـان ليلى وهـى تجـهش ببكاء.. كالطفلة وبدا الفارس كالأرنب!

وأخـذ يحـاول تفـسـيـر الموقف لكن.. لا ليلى ولا زوجـتـه اليونانية اهتمت بالتفسير أو التـأويل فان الأمـر لم يكن فيه غموض.

واتفقت ليلى مع زوجة صاحبها على أن تتـرك جناحا فى أكبر فندق لتهرب بجلدها من عصابات التزوير!

ولما أبدت زوجة صاحبها دهشتها قالت ليلى: إنى أشعـر بالشـوك، على أثاث يكسـوه العـار! ويتـخلله الخبث والغـدر! وعندى يا سيدتى أن النوم فوق الأرض أشرف من متعة لونها طمع الإنسان، ورغبتـه فى اذلال الناس واهدار حقوق الفنان، والسير بحذاء يلمع على صفحات التاريخ!

ورحـبت الزوجـة بليلى، وهـى تعـرض عليهـا أن تأتى معـهـا لتـصـبح ضـيـفـتـهـا. لكن ليلى نظرت للزوج، وقـالت تنصح الزوجـة: إن من الأفـضل أن تجـدى مكانا آخـر. وشـعـرت الزوجة أن ليلى. تنوى أن تبيت وفارسـهـا تحت سقف واحـد!

ولما أكدت الزوجة أن زوجها أليف وهو يرفه عن نفسه بكلمات الحب، يوجهها كالأبله، ظلت ليلى تصر على أن من الافضل أن تكون بمفردها، لتؤدى ما هو مطلوب منها، دون أن تتسبب بالإضرار بمن أكرمها.

واستقر الرأى على أن تنزل ليلى فى مسكن متواضع، مع أرملة من أثينا، يسعدها أن تستضيفها، فلا تحيا وحيدة، بين ظلام دامس، وبؤس وأسى.

قالت ليلى : إذن ننفذ هذا الان، وأنتم معى، لتساعدونى فى نقل متاعى، وهو بسيط ومتواضع، ولا مكان له فى هذا الفندق.

وتركت ليلى الفندق..

وعندما طلع النهار وأشرقت شمس أثينا، وأخذ المسئولون عن ليلى، يتجهون الى الفندق لزيارتها وإعداد ترتيب خطير لحملها على أن تخضع... لم يجدوها فى الفندق.

- لكن كيف؟

- هذا هو ما حدث.

ـ وأين ذهبت؟

ـ لا تدرى!

ـ وكيف تركت ترحل.. ببساطة كأنها سائحة جاءت لترى آثار اليونان؟

ـ لم يطلب منا أن نحجزها؟ ثم إن القانون لا يعطينا حق أن نحجزها.

ومتى تركت هذا الفندق؟

ـ بعد الفجر بقليل.

ـ وألم تخطركم بوجهتها؟

ـ أبدا.. ذهبت فى صمت وعلى شفتيها بسمة تخلع قلوب الملهوفين عليها!

ـ عفارم.. يا سفلة!

ـ لماذا؟ إننا فى فندق، ولسنا فى سجن.

ـ لكنها نزلت ضيفة علينا.

ـ هى ليست أول ضيفة على كل حال.

ـ لكنها ضيفة من نوع خاص، ولها مكانتها.

ولم تجد مناقشة متوترة، بين رجال الفندق وأعضاء عصابة لصوص الفن، فذهبوا يبحثون عن ليلى فى كل فنادق أثينا، فوجدوها وكأنها "فص ملح" ذاب!

أما عن ليلى، فقد عمدت إلى أسلوب آخر لتختفى..

لبست ملبس رجل يونانى، وغيرت بعض ملامحها، فلم يعد أحد يقدر على أن يتعرف عليها.

صار لها شارب رقيق وأنيق، وكانت عيناها خلف منظار سميك لا يكشف عما فى عينيها من سحر.

وبدأت خطة، مع فارسها وزوجته، والأرملة التى نزلت معها.

ووجدت أن شهامة أبناء أثينا، كشهامة المصريين فى حى وطنى.

وترددت ليلى على معارض فن مختلفة، وعلى متاحف ذات جلال. تعرض أعمال الفنانين المشهورين.

وعندما وجدت فى مجموعة معروضة فى صالة متحف، بعض اللوحات لأبيها، شهقت وهى تقرأ اسم الرسام الذى أنتجها!

زور... هذا زورا

لكن ليلى كانت قد صارت قطعة ثلج لا تتأثر، فان تأثرت فمن داخلها.

ورتبت ليلى خطة لاسترجاع لوحات أبيها.

هى تذهب، فى ملبس رجل، وديع ومسالم.. تتفرج.

وتشير على اللوحات المسروقة، ثم تمر لتكمل جولتها.

... وأخذت ليلى تسأل أمين المعرض بلغة إنجليزية، ليشرح لها أسرار خلود اللوحات المعروضة.

وسر الأمَين من أسئلة الرجل ودارت بينهما مناقشة فيها عمق.. وطرافة.

- أنت يا سيدى غريب؟

- أنا قادم من مالطة.

- لكن ملابسك...

- الملبس لا يغير جنسية رجل مثلى.

- ومعرفتك بالفن يا سيدى، تدهشنى.

- لأنى عشت حياتى ألتمس الثقافة الفنية.

ـ وصرت مرجعا للمعلومات.. ما أروع!

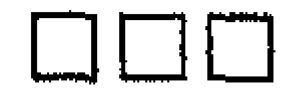
ـ وأخذت ليلى تطيل الفرجة، والأمين يتبعها وهو سعيد، فلما مضى الوقت المتفق عليه، صافحت الرجل وخرجت.

لكنها أطلت بزاوية من عينيها نحو اللوحات المسروقة، فلاحظت أن مكانها شاغر.. تماما كاللوحة التى دفعت أمها العمر، لتحتفظ بها، فى محراب الزوج الفنان.

وقالت ليلى لليلى الأخرى : نجحت خطة بدء التصحيح، واستعادة بعض من لوحات أبى.

وقالت لها ليلى الأخرى : لن يمر الأمر بسهولة، وتوقعى يا ليلى متاعب فوق الطاقة.

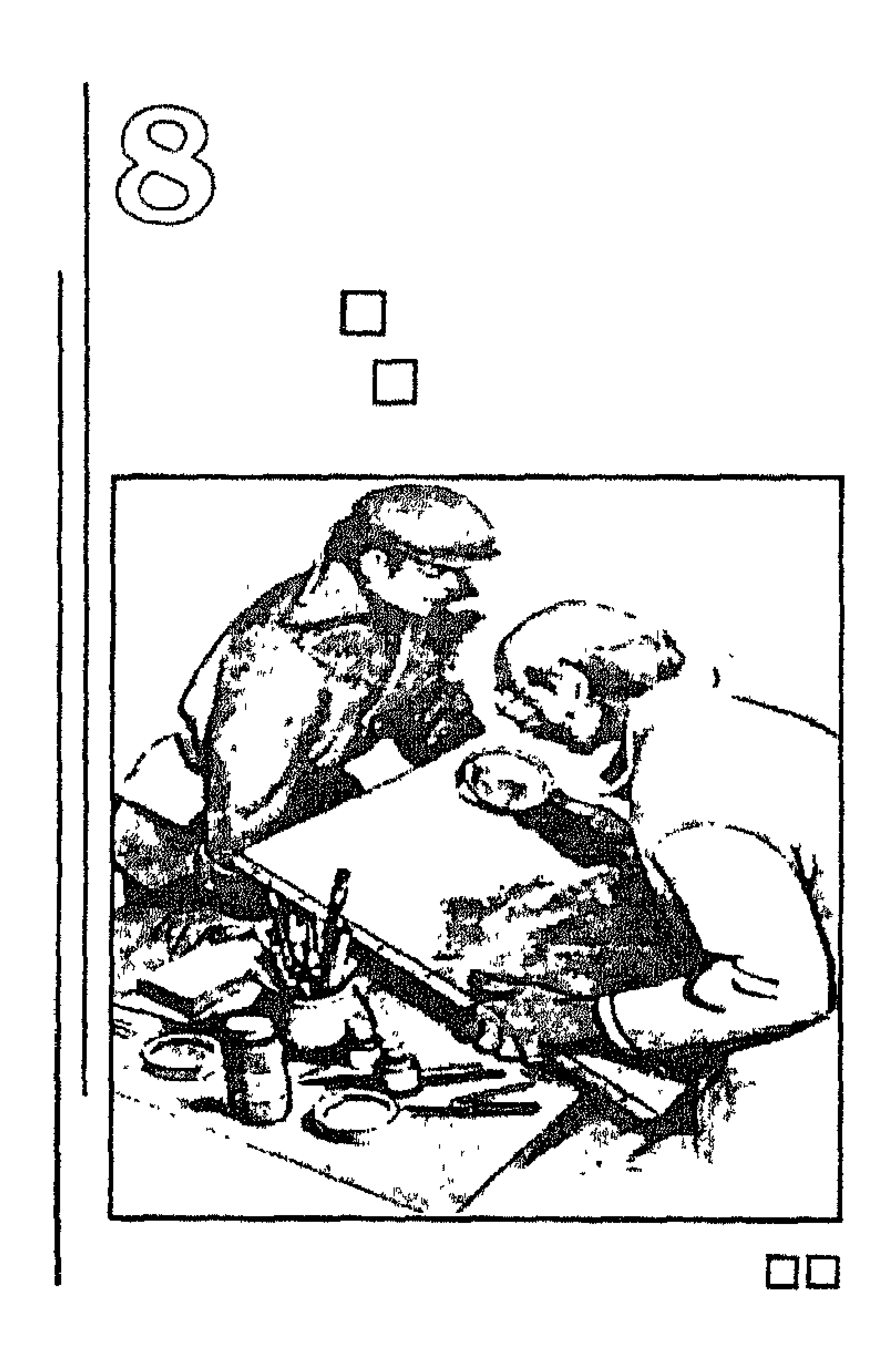
قالت ليلى : أعرف.. وسأواجه أى خطر.. والله يساعدنى.



8

□

□



□□

كانت ليلى جالسة، وهموم الدنيا تؤرقها.

.. ثم ماذا؟ إن المهمة لم تبدأ بعد! وهذه اللوحات مقدمة لنضال طويل.. طويل.. طويل جدا. وليلى لا تعرف كيف تكون خطوتها القادمة!

حتى هذه الخطوة تحتاج لإجراءات شاقة.

طبعا فالمطلوب الآن اخفاء اللوحات.. وقد يكون من باب التمويه أن تعود اللوحات إلى مكانها فى المعرض، بأسرع وقت ممكن.

إ.. يه؟! وماذا تكونين يا ليلى قد حققت؟ أفكانت زيارتك للمعرض.. فسحة؟!

ما أغبى أن يخطر بأى خيال أنى أفكر أن أعيد اللوحات؟

تقصدين إذن اعادة صور منها.

تماما.. هذا قصدى يا ليلى؟

- لابد من ضبط الغش، وإقامة الدليل على تغيير اسم الفنان باسم آخر، بطريقة علمية.

- ثم تعيدين الصور، للمعرض؟

- هذا ما أنوى، أن أفعله على الفور.. وبأقصى سرعة.

- لكن ما تطلبينه، يحتاج لدقة.

- والدقة تحتاج لزمن كاف.

- والتحدى ألا يختصر هذا كله، ويستبدله بسرعة فائقة أسرع من صاروخ.

- فى الفن يا ليلى، السرعة قد تفقدك ما تظنين أنك قد حصلت عليه.

وتم الاتفاق بين ليلى ومضيفتها، وفارس ليلى وامرأته وبعض أصدقاء بهروا بجمال ليلى وخفتها. فى ليلة العشاء فى التافرنة.. تم الاتفاق على توزيع المسئوليات بالسرعة فإن المخطط يدبره المتآمرون لها..

وكان المطلوب أن تكشف ليلى بالوسائل الفنية عن تزييف توقيع الفنان، وقال فارس ليلى، أن الأمر عسير جدا، فليس فى هذه البلاد معامل قادرة على كشف التزوير، إلا أن فى الجامعة والجامعة ليست دكانا يقبل أعمالا من هذا النوع، فالمعامل مخصصة للبحث العلمى..

وأصرت ليلى على أن ما تطلبه، يهم علماء الجامعة لأنها نموذج لما يمكن أن يمتد التزييف إليه كوثائق التاريخ وخطط الحرب، أعمال الجاسوسية، وهى رهيبة..

وأدار المستمعون رءوسهم، فهم ضعاف أمام منطق ليلى، لكنهم لا يعرفون الطريق الى تنفيذ ما تطلبه.

واقترحت ليلى أن يفكر كل أفراد المجموعة التى تكونت حولها، فى الأمر بهدوء، وستحاول ليلى أن تفكر وحدها فيما يمكن تنفيذه.

وبينما كان أفراد المجموعة، يتبادلون بعض المعلومات.. اذا بأصوات تهز، أثينا كالبركان أو الزلزال!

ما هذا..؟ أنا لا أعرف اليونانية، فبماذا يهتف جيل اليوم فى أثينا؟.. انى ميزت اسم مكاريوس فهل يتظاهر الناس معه أو ضده؟

قالوا جميعا: بل معه يا ليلى. إن مكاريوس أمل اليونانيين.

قالت ليلى : إن مكاريوس، من قبرص فما دخل الشعب اليونانى؟

وصاح الرجال والنساء جميعا: إن مكاريوس يونانى، وقبرص فى حقيقتها جزيرة من جزر اليونان، ولهذا فإننا نقف معه.

وسكتت ليلى، وهى تنوى شيئا.

وعندما ودعت المجموعة، ارتدت زى رجل من أبناء اليونان، وخرجت تدرس كيف تستطيع أن تستثمر مظاهرات الشعب اليونانى فى أداء مهمتها.

ونزلت إلى الشارع.. رجلا شاربه يعطى عنه صورة وجيه أو تاجرا!

وجد الرجل جنود الشرطة يتحوطون بالعصى والدروع حتى لا يتعرضوا لقذائف جموع مجنونة! ووقف الرجل يراقب، أصابعة تسوى شاربه فى تمهل وبلا عجلة.

وبينما هو كذلك إذا بواحد من ضباط الأمن يشده نحوه، ويعدو به الى باب الجامعة، قرب ميدان الدستور فى اثينا.

صاح ليلى!! نعم صاح.. ألا تلبس ليلى رجلا؟ لكن ليلى فى داخلها كانت.. هى هى : ليلى بل وتعيش معها ليلى أخرى.

قالت ليلى لليلى فى داخلها :

- أرأيت أنى بملبس رجل، وشارب ملصوق على شفتى العليا، صرت رجلا.

قالت ليلى الأخرى :

- فى الشكل

قالت ليلى :

- وفى الموضوع.. أفلم تسمعى الضابط يجرنى لدائرة الخطر كأنى رجل لا أنثى؟!

قالت ليلى الأخرى :

- وصدقت أنك.. رجل؟

قالت ليلى :

- صدقت أو شككت أو كذبت، فهذا هو الوسط الذى أحيا فيه، يتعامل معى، وكأنما أنا رجل، أبحث عن واحدة أعشقها!

●●●

وكان السيد ليلى! قد دخل مع ضابط الشرطة اليونانية، بأثينا وسأله الضابط فى عنف:

ـ ماذا بك؟ ألا تعرف يا صديقى، ما كنت على وشك أن تتعرض له ورد .. ليلى! فى سرعة.

ـ أى خطر؟

قال الضابط وهو يتهكم :

ـ أفأنت من أثينا :

قال: ليلى!

بل من قبرص

وصاح الضابط وهو يعانقه

ـ أهلا بك فى أثينا. كل هذه المظاهرات من أجل الأسقف مكاريوس.

قال.. ليلى!

ـ إنه زعيم يستحق بالفعل التظاهر من أجله.

قال الضابط :

ـ بغير جدال هو يستحق، لكن الطلبة سامحهم الله صاروا خطرين علينا.

وسأل ليلى:

ـ كيف أنى أعرف أن كل اليونانيين مع الأسقف؟

وأجاب الضابط :

ـ هذا صحيح.. لكن مظاهرات الشباب اليونانى غريبة! هم يعلمون أنه ليس هناك فى اليونان، من ليس مع الأسقف. فلماذا العنف إذن؟

قال.. ليلى!

ـ إنى أتصور أنهم لا يتظاهرون ضد حكومتكم.. إنهم يؤكدون موقفهم للرأى العام فى العالم، ويردون على مزاعم تركيا فى نفس الوقت.

قال الضابط :

ـ وهل يعنى هذا أن يستعملوا معنا برتقالة مولوتوف؟ ويوسفى بريا الجزار؟! ونظر.. ليلى للضابط وهو يستفسر.

ـ قلت برتقال مولوتوف ويوسفى بريا الجزار؟

ورد الضابط بهزة من رأسه يوافق، لكنه أخذ يشرح :

ـ تصور يا صديقى القبرصى.. أنهم يضعون داخل البرتقال واليوسفى أمواس حلاقة.. قديمة أو جديدة. فإذا

أصابت برتقالة مولوتوف واحدة من رجالنا، قطعت أذنه أو أنفه.. أو شوهت خده! أليس هذا إجراما يا صديقى؟ وأخذ الرجل.. ليلى! يضحك حتى كاد أن يقع على قفاه.

قال الضابط؟

ـ تضحك؟

قال.. ليلى :

ـ شر البلية ما يضحك.. ألم تسمع هذا المثل من قبل؟

وضحك الضابط معه، ثم عاد الحديث بينهما يتصل، وعندما سأل الضابط القبرصى عما يفعله هنا، أجاب.. ليلى! إنه قادم فى مهمة علمية فى الجامعة، وسامحنى اذا شكرت الشباب الثائر فلولا هم ما شددتنى إلى حيث كنت أريد.. وهو هذه الجامعة.

وخبط الضابط على ظهر صديقه القادم من قبرص، ثم قال :

أو تعرف أنك محظوظ يا هذا، إن قريبا لى من أهم أساتذة الجامعة وهو متخصص فى الكشف بالأشعة وتصوير

أدق التفصيلات فى جسم الانسان ليحدد أى الامراض يعانى منها.

قال ليلى وفرحته فى عينيه :

ـ هذا رائع. وأظن أن قريبك يستطيع كذلك أن يكشف أى كيان سوى جسم الانسان.

قال الضابط :

ـ ولماذا التخمين؟ أنا ضابط شرطة ولن أستطيع إجابة أسئلتك.. تعالى معى.

●●●

ومضى الضابط ومعه الرجل القبرصى.. ليلى! وعندما وصلا الى معمل الأستاذ قريبه قال الضابط :

ـ هذا صديقى من قبرص وبودى أن تتفاهم معه فهو عزيز على للغاية! وابتسمت ليلى وهى تقول لنفسها :

ـ ألم أقل أن صفة إنسان البحر الأبيض تتكرر أيا كانت جنسيات الناس!! قلت مرة هى عدوى، فى مصر يصبح الإنسان صديقا بمجرد لقاء عابر!! وقد يتبادل الواحد

والآخر الشكوى وقد يحكى الواحد للآخر أسرار حياته قبل أن يعرف اسمه!! ونفس الشئ هنا فقد اعتبر ضابط الشرطة رجلا من قبرص صديقه الغالى وهو لا يدرى أن الرجل القبرصى أنثى.. انثى فى ثوب رجل! لكن مالنا وهذا الآن.

وعندما كان الرجل فى ملبس ليلى يحدث نفسه كان الأستاذ يمد يديه ليصافح هذا العزيز القادم من قبرص ويقول له :

- قبرص غالية علينا يا صاحبى، ومكاريوس أسقف يعمل بالدين لكن الدين عنده وطنية ولهذا يتشبث بحقوق بلاده ولن يستسلم!

ونحن معه نحمى ظهره. ماذا تريد اذن أأمر..

وأخذت ليلى تتردد فى أن تبوح بحاجتها أمام الضابط لكن ما هى إلا ثانية وسمع الضابط انفجارا وكأنما القيامة قد قامت، فأسرع ليرى ماذا حدث وكيف يواجه وعساكره الموقف.

وأصبحت ليلى فى ثوب رجل، مع أستاذ الجامعة وحدهما، فأخذت تسأله عن كشف التزوير، وضبط

التـزييف، هل يكشف العلم هذا العبث الصارخ وقال لهـا الاستاذ : إن العلم يا صاحبى لا يعجز عن شئ. ونحن هنا فى معلمنا نكشف كل أنواع الغش أو الضعف بل إننا نساعد الدولة عندما تطلب تدخلنا بالعلم، لدراسة موقف يحتاج لإيضاح ولحسم.

وتهلل وجه الرجل ليلى وأنسته الفرحة كيف يحافظ على شواربه الملتصقة بشفته العليا.

وعندما اهتز الشارب، سرى فى جسم ليلى تيار بارد، كأنما هى قد وصلت القطب الشمالى بصقيعه.. بينما ابتسم الاستاذ وهو يقول :

ـ هذه أولى نتائج علم الكشف عن الحقيقة، أيا كان التزييف.. ماذا أقول؟

أأقول يا صاحبى، أو يا أجمل وجه على عذراء رأته عينى؟!

وظلت ليلى مرتكبة، حتى أخذها العالم الرزين الى مقعد لترتاح وتحكى وأحست ليلى أن أقصر الخطوط، هو دائما الخط المستقيم، إذا لتصارحه بما يشغلها، وبما حملها على

أن تزيف حقيقتها لتكشف تزييفا آخر.

وكان حوار ليلى والأستاذ قصيرا وسريعا كالشفرة.ـ
أفأثق بك يا أستاذ؟

ـ طبعا. إن العلم هو عملى.

ـ فاذا عرفت أننى أنثى.

ـ.. ماذا أقول؟

ـ قل ما تشاء..

ـ وتقبلين..

ـ قبول المقتنع أو المضطر.. تقصد؟

ـ أعنى القبول فى ذاته وبلا أسبابه؟

ـ.. أقبل.

ـ كنت تقولين ماذا أفعل لو علمت أنك انثى..

ـ صحيح.. كان هذا هو سؤالى.

ـ وجوابى.. أنى فى هذه الحالة.. أحبك.

وأشاحت ليلى وجهها عن الأستاذ، فهو رجل! الأستاذ رجل! وها هو ذا ينسى علمه، ليتحدث عبثا لا أقبله.. أبدا! أنا لست

هنا لأحب او لأترك شخصا أيا كان يمشقنى! هذا سجن..
الحب فى هذه الحالة سجن.. والسجن بغيض، حتى لو من
شاعر، ينشر إسمى فى أنحاء الدنيا، كما فعل قيس مع ليلاه!

قال الأستاذ :

ـ يبدو أنك معصومة..

قالت ليلى :

ـ ولدى مناعة.

قال الأستاذ :

ـ وأنا لا أنوى أن أتعامل مع واحدة ترفض حبى.

قالت ليلى :

ـ والأمانة العلمية.

قال الاستاذ :

ـ إنك مجنونة: أنا لم أشترط الحب عربونا لعمل علمى
يقدسه عالم. إن العلم بالفعل أمانة، والعالم مسئول عن
علمه وعليه أن يضعه فى خدمة حتى أعدائه.. فان كنت
تصورت العكس فأنت إذن تهينين العلماء وأنا واحد منهم.

قالت ليلى :

ـ سامحنى إنى أنفذ وصية أبى.

قال الأستاذ :

ـ وماذا قال أبوك

قالت ليلى :

ـ أنا لم اسمعه يا استاذى.. فقد مات قبل أن تضعنى أمى لكنه ترك وصيته أمانة فى عنق الشهيدة أمى.

قال الاستاذ :

ـ أو ماتت؟!

قالت ليلى :

ـ قتلت يا أستاذى.

قال وهو منزعج :

ـ قلت.. ومن قتلها؟

قالت ليلى :

ـ واحد من عصابات تزييف الفن، والعبث بتاريخ الإنتاج الفنى..

وهز العالم رأسه وشرد وهو يهمس.. لنفسه :

ـ نفس القصة! عصابات الفن، كعصابات الإرهاب، كعصابات خطف الأطفال، ليباعوا كرقيق! إن عصابة تعبث بمقدرات الناس لا تفترق عن عصابة أخرى، وتخصص كل عصابة لا يمنع أنها عصابة تعمل فى السر، وتحت الأرض فى غيبة رجل القانون، وبعيدا عن أية أضواء! ويكفيها ما تكسب.. لا تهتم بدماء الناس تراق، أو إذلال شعوب محتاجة!..

تتآمر وهى تسكر!.. وتدخن السجائر وهى تنتفخ من العظمة وتطلق النار على روح حية وهى تعب الخمر.

وصاحت ليلى من ذهول ما تسمعه من الأستاذ :

ـ أرجوك كفى كفى لا تكمل.. إن الصورة بشعة!

وتم الاتفاق بين ليلى والأستاذ على أن يؤدى مهمته لها سرا.

قالت ليلى :

ـ أفتثق بى الى هذا الحد؟

قال الاستاذ دون تردد :

ـ إنى أتعامل مع مختلف المستويات وأظن أنى صرت خبيرا فى اصدار الأحكام على الناس. وشعورى أنك صادقة يا بنتى وأهم من هذا ثقتك أنت بى.

قالت ليلى :

ـ كذلك فقد كسبت بصراحتك هذه ثقتى فى شرف العلم وشرفك لكن اسمح لى هلا أبقى فى ملبس رجل، أم أنك تفضل أن أظهر لك بحقيقتى وأنا أنثى.

قال الأستاذ يداعبها :

ـ الأنثى أحلى!

وكشرت ليلى فأسرع الأستاذ يضيف :

ـ هذا ليس مزاحا معك لكنى سأحترم رأيك فى كل رجال الدنيا.

ـ وسأفعل كل المطلوب، ولك أنت أن تحددى الشكل الذى يكفل سرية عملك ومنك. وسأعيش بقية عمرى أندم، لو حدث لك مكروه.. يا.. وأكملت ليلى :

ـ ليلى.. هذا اسمى.

وعاد الأستاذ الى روح الدعابة فيه فقال :

ـ تعنين الجميلة.. والساحرة ليلى.

وقبل أن تتغير ملامح ليلى قال الأستاذ :

ـ أعرف أنى أخرج عما أردته يا ليلى. لكنى فى سن أبيك ولم أعد أتطلع لغير العلم لاحقق نتائج جديدة، تخلدنى بين العلماء.

●●●

واتفقت ليلى مع الاستاذ، على أن تحضر معها فى أقرب فرصة اللوحات، ليفحصها.

وأخذت ليلى.. قال الأستاذ رأيه فى طريقة وصول اللوحات الى المعمل.

ـ هل ألفها فى رداء محكم؟

ـ هل أحملها بلا إخفاء حتى لا تثير فضول عصابات الفن؟

ـ هل.. أم هل.. أم هل؟.

قال الأستاذ :

ـ اسمعى، واحدة مثلك أقدر منى فى احضار اللوحات، فكما استطعت نزعها من المعروضات ففى وسعك أن تجدى طريقا لإحضارها إلى المعمل.

ـ وهل لابد من أن تحضر اللوحات إلى المعمل، أنا أتصور ضرورة هذا فمعدات المعمل لا تخرج الى حيث تشاء، أو أشاء أنا.

ورد يقول :

ـ تماما .. تماما، يا ليلى.

وفى الصباح، حكت مضيفة ليلى ملخص ما سمعته من أخبار اذاعها المذياع وكانت مضيفتها سعيدة جدا وهى تحكى.

وأطلقت بريطانيا سراح مكاريوس هذا انتصاراً للشعب اليونانى وللثورة التى اندلعت هنا وامتد لهيبها الى كل الدنيا.

وسألت ليلى مضيفتها :

ـ ستقف المظاهرات إذن.

قالت الأرملة مضيفتها :

ـ الا اذا كانت سليمة وبلا عنف.. هذا ما أذاعه الراديو.

قالت ليلى :

ـ وبلا برتقال مولوتوف.

وقالت مضيفتها :

ـ ولا يوسفى بريا الجزار.

وبسرعة فكرت ليلى فى أن الظروف تخدمها .. إن المظاهرات السليمة ليست ممنوعة وشباب أثينا لن يحرم نفسه من الشعور بالانتصار وإلا فإنه يكون قد لعب الدورى وأجاد لكنه غاب عند توزيع الكأس، وإعطائها للغالب!

إذن لتخرج ليلى، فى المظاهرات السلمية.. حاملة شعارات النصر بفط مكتوبة..

وهزت الأرملة مضيفتها رأسها تعجب :

ـ وماذا يفيدك هذا؟ إنه شعور طيب وأنا أحييه لكنك لست هنا لتمثيل شعب بلادك وإنما أنت هنا لمهمة.

وأجابت ليلى :

ـ واذا استطعت تحقيق الغرضين؟

قالت مضيفتها :

ـ يصبح أفضل.

وشرحت ليلى لمضيفتها ماذا تنوى أن تفعل.

ستصنع صندوقا تضع اللوحات داخله، وعلى الجانب الآخر شعار تشارك به فى تأييد الأسقف.

وتحمل هى الصندوق وقد كتب عليه : مكاريوس أكبر من غدرك يا بريطانيا! قبرص لأصحاب قبرص.

قالت ضيفتها :

ـ فكرة جميلة يا ليلى وستصل بك الى ميدان الدستور، ثم تتسللين الى الجامعة، لكن سيتجمع حولك رجال وشباب، فنحن اليونانيين فضوليون، تجمعنا طبلة كدقات المسحراتى فى مصر.. وتفضنا شخطة من عين حمراء لا تكتفى بأن تنذر، لكنها تشتد لفض مظاهرات تزعج أعصاب الحكام.

قالت ليلى :

ـ وماذا فى هذا؟

قالت صديقتها :

ـ لن تستطيعى يا ليلى أن تتركى جموع الناس، وتدخلى بشعاراتك الى حرم الجامعة.

قالت ليلى :

ـ الحق معك. سنصنع صندوقا آخر بنفس الحجم، وبنفس الشعارات، لكن بلا لوحات ليحل محل الصندوق الآخر.

●●●

وبدأ التنفيذ، وما هى إلا ساعة، حتى كانت ليلى فى ملبس أهالى مالطة، تسير بالصندوق، وعليه هذه الشعارات المثيرة والهامة. وجميع الناس تصفق، وتهتف وتحيى حركة قبرص، حرصا على الأسقف، الذى وهب حياته لبلاده.

وأمام باب الجامعة، دخلت ليلى بالصندوق وفيه لوحات ابيها، بينما ظلت مضيفتها تحمل الصندوق الخالى من اللوحات، وهى تهتف لقبرص، وأسقفها مكاريوس.

عندما دخلت على الاستاذ المعمل صاح يرحب بها، ويبدى الاعجاب بذكاء لم يتصوره من قبل.

قالت ليلى :

ـ أو تستكثر الذكاء على مصرية؟

قال الأستاذ :

أبدا، فمصر ورثت تاريخا ضخما، وهو تاريخ يمتلئ ذكاء وخبرة، إن التاريخ يا ليلى يميز أبناءه ويتحدى المحنة، لهذا فان أهم ما يفعله المستعمر هو أن ينسى الناس هذا التاريخ ليسيطر عليهم! عندما ينسون حتى أنفسهم.

قالت ليلى :

وعصابات الفن.. اتنقذ جزءا مما خططه المستعمر؟

قال الاستاذ :

ـ بالتأكيد، فالفن هو التعبير عن الشعب ولولاه لأصبحت قلوب الناس ملساء كالطبق المغسول!

وبدا الاستاذ بعد العدة للكشف على اللوحات. كمن يكشف على مريض يعانى علة!

وأخذت ليلى تتلفت يمينا وشمالا، لترى الأستاذ يضع لوحة من لوحات أبيها، تحت أشعة تكشف ما فى اللوحة من عيب، وكيف استطاع التزييف أن يفصلها عمن أنجبها!

وصاح الأستاذ يقول : وجدتها.. وجدتها!

وكادت أنفاس ليلى تتوقف، وهى تنتظر نتيجة هذا الفحص.

لكن ليلى شردت عن واقعها هذا المثير، الا أن الاستاذ أصبح أرشميدس، أخذ يجرب وتخيب تجربته، حتى وجد ما يبغيه وهو فى الحمام، فصاح يقول، وهو يجرى فى الطرقات عريانا : وجدتها.. وجدتها!

لكن شرود ليلى لم يطل، مع شخصيات فى داخلها تؤنس وحشتها، فقد استأنف الأستاذ كلامه وقال :

ـ انكشف التزوير يا ليلى. هل تعرفين تاريخ اختفاء هذه اللوحات؟

وأجابت ليلى :

ـ أبدا يا أستاذ. عندى وثائق تثبيت أنها لوحات أبى.

وتململ الاستاذ ليسأل، لكن ليلى قالت له :

ـ انتظر ولا تقاطعنى

إنك قد تسألنى عما أملكه من وثائق.

قال الاستاذ :

ـ وفرت على سؤالى. نعم أية وثائق لديك عن لوحات أبيك؟

قالت ليلى :

ـ كتالوجات معارض أقامها الفنان وهو حى. ثم صور الافتتاح مع كبراء وعظماء وأدباء وفنانين.

قال الأستاذ :

ـ ولابد لها تاريخ طبعت فيه، يحدد عمر اللوحات بالتقريب.

قالت ليلى :

ـ معى حقيبة تحمل هذه الوثائق، إذا وافقتنى على أنها وثائق.

قال الأستاذ:

ـ إنها شواهد على كل حال، أو قولى هى قرائن.

قالت ليلى :

ـ وما الوثيقة اذن؟

قال الاستاذ :

- تسجيل اللوحة، بما لها من أوصاف، تسجيلا علميا يوثقها.

قالت ليلى :

- هذا ليس السائد فى بلدى.

قال الأستاذ :

- أنا يونانى لكنى عشت فى مصر أجمل سنوات العمر، وأعلم أن مصر تسجل الأعمال الفنية، إذا أضيفت الى ممتلكات متاحفها.

قالت ليلى :

-.. والمسروق لم يسرق من متحف، فأبى كان يفضل أن تبقى لوحاته حوله فى محرابه.

قال الاستاذ :

- تعنين أن ليس لوالدك الفنان أعمال فى متحف الفن الحديث، أو متحف الحضارة، أو أية متاحف أخرى؟

قالت ليلى :

ـ لوالدى بالطبع أعمال معروضة فى متاحف بلدى. لكن الحقيقة التى أتصورها أن التسجيل لا يعنى بالوصف الكامل لأية لوحة.

قال الاستاذ :

ـ اسمعينى يا ليلى، إن أهمية التسجيل الذى أتحدث عنه، أنه يحدد لكل لوحة شخصيتها.

قالت ليلى :

ـ عندك حق، فقد كانت أمى تحكى لى أن أبى كان يؤمن بأن اللوحة ـ أية لوحة ـ كيان حى يتحرك وينمو، ويعكس زمنه بل إن أبى كان يقول لأمى، أن العمل الفنى أطول عمرا من صانعه.

وهز الاستاذ رأسه، وهو يرجوها أن تستطرد.

ومضت ليلى تقول :

ـ ألم يمت خوفو.

قال الأستاذ :

ـ ومع ذلك يبهر أنظار العالم.

قالت ليلى :

ـ ونفرتيتى..؟

قال الأستاذ :

ـ ماتت، والاعمال المستوحاة منها.. حية.

قالت ليلى :

ـ وكذلك شأن الكاتب مع أدبه.

وظل الحوار عميقا بينهما.

ـ أين شكسبير أو بايرون أو بلزاك أو شاعركم شوقى؟

ـ ماتوا وأبهم باق..

ـ بل هو يكسب مع الأيام معانى، ربما لم يقصدها الكاتب.

ـ وستعيش هذه الأعمال أجيالا وأجيالا، وقد لا تموت أبدا.

ـ كالمتنبى مات وبقى شعره.

ـ وابن الرومى، تقدم الجامعات فى الدنيا ـ دراسات عنه.

ـ ومختار المثال..

-... مات هو، وتحلل جسمه فى قبره، لكن متحف مختار حى، وستطول حياته.

- ولو أننا تأملنا كل فن أنتجه فنان، لوجدنا لكل إنتاج شخصية ينفرد بها، حتى أن المختصين، يميزون كل عمل، عن عمل آخر.

- هذا كله صحيح.

- والذين يتصورون أن هناك بين الفن أو بين الإنتاج الأدبى، ما هو إنسانى، يخطئون التعبير، إذا جردوا الفن أو الأدب من بيئته وزمنه.

- هذا.. معناه.. ماذا؟ ألا إنسانية فى الفن، أو لا عالمية فى الإنتاج الأدبى؟

- فى التأثير، هناك رابطة انسانية للأعمال الكبرى..

لكن التأثير شئ والشخصية شئ آخر.

- طبعا فالفن ابن البيئة، وهو يرتبط بتراب عاش عليه الفنان، وبناس أثر فيهم، وأثروا فيه، وبتقاليد شكلت مزاج الفنان.

- ويصبح إنتاجه يدل على هذا كله.

ـ لكن هل تلغى هذه النظرية عمومية عمل ما . فينتشر فى أنحاء الدنيا؟ ويترك بصماته على الوجدان؟ ومن خلال الأثر العام، تتكون مدارس فنية بين الفنانين.

ـ والناس ممن يتذوقون الفن، لكنهم لا ينتجونه.

ـ يحبون العمل، وقد يشعرون، أن فنانا من استراليا، يؤثر فى نفسية جيل فى نيجيريا.. وجيل فى الهند، وأجيال أخرى أضيق أو اوسع.

●●●

وبدأت ليلى تستفسر من الأستاذ العالم عما ستكون خطوته القادمة .هل يمكن مثلا أن يكون لكل لوحة، صورة تصلح للعرض؟ فلما علمت أن ذلك ممكن , بدات تسال عما اذا كان الأفضل تصويب الوضع, لتحمل اللوحة اسم أبى، فتنتسب بذلك الى صانعها.

وأكد الأستاذ أن ذلك شئ مهم جدا. والمطلوب الآن , وعلى وجه السرعة ,هو توقيع ابيك , ليوضع فى موضعه.

وأخذ الاستاذ ينظر تحت الأضواء , وتحت أنواع الأشعة المختلفة، ليرى كيف تم التزوير.. وفجاه وثب الأستاذ على

قدميه كمن يرقص. ووضع ذراعه حول الخصر الناعم ,وليلى تائهه عن دنياها, فلما دار الأستاذ بها. دارت كمن قيلت أن يراقصها, بل إن ليلى قد شاركته الرقص لثوان عدة , وهى ترهف السمع, ليقول لها ماذا وجد.

وقال العالم الفنان :

ـ لقد لجأوا لطريقتهم القديمة، فى التزوير.

قالت ليلى :

ـ طريقتنا..؟

قال الاستاذ :

ـ نعم، ففى التاريخ الفرعونى، كان التزوير بأن يضع الملك، ما يخفى اسم من سبقه، ويضع هو عليه اسمه، وهذا ما حدث للوحات أبيك يا ليلى.

قالت ليلى، وقد بدت عليها الفرحة :

ـ اسم أبى موجود اذن.

قال الاستاذ :

ـ موجود وواضح.

قالت ليلى :

ـ وكيف أخفوه؟

قال الاستاذ :

ـ بوضع اسم آخر بدلا منه.

قالت ليلى :

ـ وما معنى ما حدث فى مطار القاهرة اذن؟

قال الأستاذ :

ـ نزع الاسم وألقاه تحت المقعد؟

قالت ليلى :

ـ تماما. هذا ما أريد أن أعرفه.

قال الاستاذ وهو يضحك:

ـ هذا أسلوب جديد، كشف العلم سره. أما من قبل، فقد كان يكفيهم أن يطمسوا اسم الرسام الأصلى، ويضعوا بدلا منه الاسم الآخر.

إن العلم كالقانون. نضع قواعده. وفى نفس الوقت. نضع أسلوبا للخروج عليه!

قالت ليلى :

ـ تقدم العلم اذن كارثة، أيها الاستاذ العالم.

قال الاستاذ :

ـ فى هذه الحالة.. نعم لكن مجال العلم واسع، وليست كل فئات تتعامل بالعلم، تبغى التزوير أو طمس الأسماء.

قالت ليلى :

ـ فإن كانوا قد لجأوا لأحدث نظريات العلم، فماذا نفعل؟

قال العالم :

ـ نلجأ للتقدم العلمى، فنكشف التزييف أولا.

قالت ليلى :

ـ كيف وقد نزعوا الاسم الأصلى، ولم يكتفوا بطمسه.

قال العالم :

ـ نعيد الاسم الأصلى، بنفس الأسلوب العلمى.

●●●

وخلال أربع وعشرين ساعة، كان الاستاذ قد صنع المعجزة، كما قالت ليلى. وبدأت رحلة التحدى. ليلى مصرة

على أن تعيد اللوحات الى مكانها فى المعرض بين الصور الاخرى. وفارسها الذى راقصها فى التافرنة، ينصحها بأن تتأنى. ومضيفتها كانت تتحدث كرجل، فيه من الجرأة ما يكفى مجموعة رجال من المغامرين الأبطال.

ورسمت ليلى خطتها، فذهبت فى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى، ومعها اللوحات، تحملها عنها مضيفتها، متظاهرة بأنها لا تعرفها.

وكانت ليلى ترتدى نفس الملابس التى سبق أن لبستها. وبدت ليلى فى أناقة رجل، وكانها واحد، من أصحاب الثروات.

ورحب الأمين بها، ولم يظهر عليه أى اضطراب أو خوف من شئ ما.

وقال الامين :

ـ توقعت منذ زيارتك الاخيرة يا سيدى أنك ستعود.

واضطربت ليلى، فقد كان كلام الأمين، مريبا وغريبا، هل اكتشف الأماكن الخالية على جدران المعرض؟ وهل درس وحقق؟ سينادى البوليس؟ هل يبلغ عنها؟

لكن ليلى كانت فى حالات التوتر والشك، أقوى منها، وهى تمارس حياتها المعتادة. ولهذا أسرعت لتقول :

ـ هل تراك كشفت ما أختزنه؟

قال الامين :

ـ إنك لم تتم الرحلة. فهناك جناحان يضمان أعمال الفنانين الشبان، وأعمالهم كشخصياتهم متمردة على القواعد الفنية.

وقال.. الرجل ليلى! :

ـ تماما، فقد أدركت هذا من كتالوج المعرض، وأنا أؤمن بالمستقبل، فهؤلاء المتمردون، سيتحملون غداً مسئوليتهم عن الفن، المتمرد كالمقاتل فى ميدان الحرب. وكما أن الحرب، ظرف طارئ، فكذلك فإن حالة المتمرد ظرف طارئ.. لن تجد مقاتلا حرفته الحرب، الا فى النادر. لقد ولى زمان من يحترفون قتالا لأنفسهم أو لسواهم، وكذلك ولى من حرفته أن يتمرد! هى ظاهرة ترتبط بظرف، أو بسن، أو بمناخ يمر ولا يتكرر! وغدا تراهم يعودون الى أصول الفن، ولأنهم ذاقوا طعم تمردهم، فانهم يعودون لقواعد الانتاج الفنى مع تزويد القواعد بتمردهم.

قال الأمين :

ـ هذا تفسير جميل يعطى أجمل رأى فى كيفية التطور فى ميدان الفن.

قال.. الرجل.. ليلى:

ـ لو استمر الفنانون فى كل الأجيال ينقلون الواقع نقلا حرفيا، لأصبحوا كاميرات، بل إن الكاميرات قد تكون أقدر عند النقل. وأنا وأنت وسوانا من نقاد الفن، نعلم أن الفنان لن يرضى بأن يصبح كاميرا. ومدارس الفن المختلفة تؤكد أن الانتاج الفنى هو فى النهاية الرجل الفنان، يصور نفسيته ومزاجه، قبل أن يصور حقائقه الصارخة.. لأنها.. كذابة.!

قال الأمين :

ـ أفقلت كذابة؟ كيف وهى حقائق؟

قال الرجل.. ليلى:

ـ نعم كذابة، فوجه الإنسان وجسمه، لا يعكس قلبه، ولا عاطفته، ولا ماذا يحب وماذا يكره! واللوحة إن اكتفت بدور الكاميرا، تعطى سوق الفن زيفا لا فنا.

قال الأمين :

ـ هذا أول رأى جرئ وجميل أسمعه من ناقد.

قال الرجل.. ليلى:

ـ ستسمع أكثر حين أعود إليك.

وهبطت ليلى درجات السلم، لتغادر هذا المعرض. لكنها أطلت بزوايا عينيها هنا وهناك، لترى أن اللوحات قد عادت إلى أماكنها من جدران العرض. وعندما وصلت إلى المدخل. فتحت ذراعيها لتعانقه اظهارا للود والتقدير، بينما كان هذا الود وهذا التقدير، لها هى.. ليلى فقد أفلحت فى أول مغامرة قامت بها، تنفيذا لوصية والدها.

ولاحظت ليلى وهى تعبر الطريق إلى الجانب الآخر، أن عددا من المصورين يزحف إلى المعرض. وكانوا يتبادلون أحاديث طريفة.

وليلى لا تعرف اليونانية، فسألت بعد قليل مضيفتها، فعلمت أن الصحف والسينما والراديو مهتمة بالمعرض، لكن مظاهرات شباب أثينا لم تمكنها من أداء واجبها نحو العرض الفنى الممتاز.

وتنفست ليلى الصعداء، لأن هذه الأجهزة الاعلامية ستكتب الحقيقة عن هذا العرض لأول مرة.

لقد ملأ النقاد أعمدة صحف، ومساحات زمنية على موجات أثير، وأفلام تسجيلية عدة، لكن ذاك كله روج زيفا استطاعت هى أن تصححه.

فى نفس الوقت، فقد توقعت ليلى المكروه عندما يبدأ النقاد يقدمون لوحات معدودة من هذا العرض الشائق.

وبين الفرحة والدمعة، بدت ليلى عندما عادت إلى بيت مضيفتها، أنها تريد أن تبكى!.. لا بل تضحك!.. ولماذا الدمع يسيل.

أو الضحك يقهقه؟!

وكانت مضيفتها تنظر، وهى لا تعرف هل ليلى مسرورة، أم هى مغمومة!

لقد حققت أمنية من أغلى أمانيها، فلماذا لا يبدو "كالزغرتة" تملأ جو البيت مرحا. كالأطفال.

وشعرت ليلى أنها تريد أن تسهر من تلك اللحظة الى أن تصدر الصحف ويذيع الراديو وتعرض دور السينما، ما

التقطه المصورون عن المعرض. وهل سيذكرون أباها؟ هل سيقولون الحقيقة مرة؟ فإن قالوها، فما رد الفعل عند عصابات الفن؟

إن العرض قد خصص للمجموعات الفنية الخاصة.

ومعنى ذلك أن كل اللوحات قد كانت فى حجرات الأثرياء من القوم! ومن يدرى، هل ادعاها البعض لنفسه.. نظير ثمن باهظ دفعه، ليصبح نجما.

فاذا انكشف السر، هل ينهد ويسكت؟ أم أنه سيقاتل من سرق إنتاجه وهو رائع؟!

وقالت ليلى لليلى الأخرى :

- سيحارب من ادعى عملا!!. أرأيت يا ليلى فجرا كهذا الفجر؟! لكن المال يعمى بصائرهم يا سيدى المليونير.. إن صاحب العمل قد مات، أما أنت فحى ترزق، تزداد كل يوم أملاكك، فدع الفن للأشقياء من الناس، وهم الفنانون المساكين، لكن هذا قدرنا يا ليلى، فلنصبر.. لنرى!

●●●

وعندمـا صـدرت بعض الصـحف والمجـلات رأت ليلى لوحات أبيها فى أماكن بارزة وهامة.

وقـرأ لهـا الأصـحـاب الشـرفـاء مـا نشـر عن اللوحـات وصاحبها.

.. ورأت صورة لأبيها، وحولها مقال ناقد قرر فيه، أنه عرف الفنان صاحب هذه اللوحات الأخاذة، وكيف تفانى فى فنه. حتى مات.

وطفـرت من عـينى ليلى بضع دمـعـات، وهى تطيل النظر إلى الصورة. ثم قالت ليلى فى داخلها :

- ليتك حى يا أبتـاه، لتـرى أنى لم أهمل وصـيـتك. لقـد تعرضت للمصابات، والله يسترها، حتى أعود الى محرابك.

- تعودين اليه.. وقد مات.

- بل هو حى، فهذه أعماله حية يتخاطف الناس ما ينشر عنها.

●●●

وكـانت ليلى تجلس فـى مـيـدان الدسـتـور وهـى تقلب صفحات الصحف والمجلات.

وكانت تصل الى لوحات أبيها أو صوره، وتثبت عينيها فيها.

ولاحظت ليلى أن هنالك من يرقبها.

وصرفت النظر عن هذا الموضوع، فهو مخيف وهى وحيدة، وفجأة مر بها شخص لا تعرفه، ورمى ورقة بين قدميها.

والأغرب أنه انحنى على الورقة ليطيل النظر اليها، وهى فى وضع لا يراه أحد إلا ليلى.

وكانت ليلى تتوقع أن يستعيد الرجل ورقته المفقودة.

لكن اكتفى بالنظر إليها، ثم اعتدل وترك الورقة، وارتعدت ليلى، كالمحمومة.

لكنها تمالكت نفسها، ونظرت إلى الورقة، فرأت عليها كتابة عربية.

إذن هى لك يا ليلى.

ومدت يدها، فوجدت الورقة تقول لها :

.. انك لست وحدك يا ليلى. سنكون معك، فتشجعى.. تشجعى وحذار من الخوف!

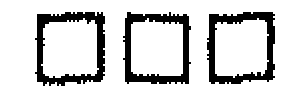
وشهقت ليلى.. ثم مزقت الورقة، واتجهت نحو صندوق القمامة لترميها.

وفجأة أحست أنها قد تكشف نفسها.

ماذا لو كان مراقبها يراقبه شخص آخر، يعمل لحساب عصابة؟

إن قطع الورقة لا يمنع من اعادتها، للتعرف على ما فيها.

.. وأطبقت ليلى كفيها على أجزاء الورقة، ثم مضت هادئة، الى بيت مضيفتها.



9



كانت ليلى تجلس فى بيت مضيفتها بمفردها. تفكر فى دنياها وتحاسب نفسها عما أدته. تنفيذا لوصية أبيها.

هل صانت شرف الفن؟

هل صانت اسم أبيها؟

هل لقنت التجار باسم الفن الدرس الواجب؟

.. وأخذت ليلى تقنع مرة بما فعلته، وتتمرد أخرى على جهد لم تبذله!..

إن تزوير لوحات أبيك يا ليلى، لا يقتصر على لوحاتك هذه، وهى معدودة، فقد امتدت أيدى عصابات محترفة، إلى عديد من لوحات أخرى!

.. تجارة!. أقذر من أن توصف.. بأنها قذرة!

تجارة فى الذمة والضمير والأخلاق، وبضاعتها مواهب! لا تظهر فجأة، ولا تذبل فجأة، فهى ليست ابنة موسم، كالقرع!.. حتى الغسلى!

.. تجارة فى خيال الفنان، وهو رقيق شفاف لا يتحمل الضغط عليه بأساليب ملتوية!

وصمتت ليلى.. وعند ليلى، ليس الصمت ألا تتكلم! لكن الصمت، ألا تنكر، وتدير الأفكار هنا وهناك.

وما هى الا لحظة حتى عادت إلى أفكار تؤرقها!

أهى تجارة.. فحسب!

وهل المشتغلون بها.. تجار يحاولون تحقيق أكبر ربح، بأقل مجهود؟!.. لا يا ليلى! هذه سذاجة.. سذاجة طفل أبله.

ووراء هذا النوع من التجار، دول ونظم وأهداف أخرى خطيرة، تتخفى فى تحقيق الربح، فلا يتنبه أحد لحقائق ما تستهدفه..

إن ساحة الصراع بين دول الارض، تحرك هذا النوع من الإتجار..! كما تحرك الإتجار بأسلحة الموت والتدمير! وكما تحرك الإتجار بما يغيب عقل الانسان، فيترنح بغير إرادة كالأبله!

..لكن ما أفظع أن يتحرك نوع آخر من الاتجار.. بم؟ بالتاريخ يا ليلى!

بشخصية الإنسان، يجردها مما فيها!

بثقة الإنسان بنفسه، وبقدراته!

بصلابة عود الفتيان، وأجسام الفتيات المشوقة.

بتربية الذل، وتنمية الرغبة فى أن يركع، حتى ينجو من يركع!

بمفاهيم عن حياة الناس جديدة..!

فالإنسان الطيب مثلا، هو من ينسى حقه..! عند عدوه..!

والإنسان الطيع، هو من يتساهل حتى فيما لا يملك!

والإنسان العاقل، هو من لا يعرض نفسه للهب قد يشوى جلده!

والإنسان المتمدين، هو من يتجاوز بالحسنى حتى مع من يحتمل بلاده..! فإذا رفع عصاه، فى وجه كالح، صار هو الهمجى!

أما الغازى فهو متحضر..!

متحضر يا ليلى، ويأكل حق الغير!

متحضر يا ليلى، ويكذب فى كل حديث يرويه!

متحضر، ووعوده كوعود عرقوب!

متحضر.. يشرب دماء الضعفاء، فى كأس الشمبانيا!

متحضر، ولديه سيارات، من مختلف الماركات.. ومع ذلك يدع الناس ليتقشف منهم من يحب بلاده.

.. متحضر لأنه أدخل فى بلاد الهمج سكك حديد.. تنقل بضائعهم ومواشيهم، فان زادت لديه مقاعد، خول لمواطنين من أصحاب البلد المحتل، أن يستعملوها هم!

متحضر بفرض لغته على الناس!

.. متحضر.. متحضر.. متحضر!!

ما أقبح أن تئول حضارة انسان، الى أيد مخضبة بدماء القتلى!

●●●

بينما كانت ليلى تفكر فى هذا الموقف، شعرت بصوت هادئ كحفيف شجر يحركه ريح ربيع، فتلفتت لترى، فإذا ورقة يحاول من هو خارج الباب، أن يدفعها الى الداخل.

وأسرعت ليلى، وفتحت باب مضيفتها.

ورأته.. شابا يعنى بشعره الذهبى، فيتموج إذا تكلم واهتز رأسه.. ثم هو طويل، بلا إسراف، ورفيع من غير مبالغة.وعيناه خضراوان.. وشفتاه كشفتى عذراء، لم يمتص أحد بعد رحيقها.

وعندما فتحت ليلى الباب، تسمر هذا الفتى على العتبة، ولم يعرف ماذا يفعل.

قالت ليلى : أفهذه الورقة لى؟

قال وهو يبتسم : نعم.. هى لك.

قالت ليلى : وهل تعرف أنت العربية؟

قال لها : أبدا. ليتنى أعرف هذه اللغة بكل دسامتها.

قالت ليلى : تفضل، فحديث العتبة قد ينتقل الى حيث..

قال لها : أعرف.. أعرف. لكن هل فى الداخل أحد؟

قالت ليلى : فيها أنا.. وحدى.

●●●

وجلس الفتى إلى جوار ليلى، وأخذ يطيل النظر إليها كمن يتعبد!

لكنه سرعان ما سيطر على نفسه، فبدا طفلا فى شكله، لكن عقله كان من النضج، كأنما هو شيخ عجوز ومجرب.

وحكى لها وحكت له.

وضحكت من بعض مزاح ردده، وضحك هو من بعض من تلقاهم!

.. وأخذت هى تستدير تارة إلى يمين، وتارة أخرى إلى يسار لتسترق النظر اليه، فتعرف من نظراته موقفه منها. لكنها وجدته منصرفا عنها تماما إلى عمله.

وشرح الصبى لليلى مهمته فى البوليس الدولى، فقد أخطر البوليس المصرى "الأنتربول" وهو مركز هذا البوليس، بمذكرة سرية، يشرح فيها من هى ليلى، ومن والدها.. وكيف اتهمت بقتل أمها، ثم تبين حقيقة من قتل وهرب! وشرح التقرير قصص تزييف التاريخ، واستعمال أحدث الاساليب لتغيير التاريخ، وتجريد أبناء بلد بتاريخه، من هذا التراث الانسانى، فلا يعرف له نسبا! لا يعرف حتى من هو! ومتى وقف على قدميه فى بلده أو متى ركع أمام القوة، ولا يزال يخاف أن يتعرض للمكروه، فيعود ليركع!

قالت ليلى : إذن فأنت معى.

قال الفتى : وهذا شرف أعتز به.

قالت ليلى :.. ولماذا؟

قال الفتى : أنا مثلك يا سيدتى.. ضحية!

قالت ليلى : هل زوروا أعمالا لك.

قال الفتى : لأبى.

قالت ليلى : أفكانت لوحات فنية؟

قال الفتى : شعر.. شعر كالماء يتهادى على درجات من مرمر.

قالت ليلى : ما أجمل الصورة! أفأنت كذلك شاعر كأبيك؟

قال الفتى : وهل أنت رسامة كأبيك؟ إن ميراث المواهب، ليس بشائع. والرسم خيال من فنان متمكن. واللوحات هى الإطار المادى، لخيال الفنان.

قالت ليلى : والشعر؟ حدثنى عن الشعر.

قال الفتى : كلام.. يطير فى الهواء الطلق. فينشر فيه أريجا.. يشمه عشاق الشعر.

قالت ليلى : وهو كذلك يسجل فوق ورق!

قال الفتى :.. ويغنى، فلا يعرفه الناس بورقة مكتوب فيها هذا الشعر، ولكنهم يعرفونه بلحن يتغنى به ملايين الناس..

قالت ليلى : مشكلة!.. وكيف تحمى حق أبيك. إذا ما صارت أشعاره أنغاما وأغانى؟

قال الفتى : الحق أقوى من كل عصابات الدنيا.

قالت ليلى : أقوى!! أهو أقوى من الغدر؟ أم أقوى من سفك الدم؟! أقوى من ماذا أو ماذا أو ماذا؟.. أقوى من إشاعة الفزع بين رجال ونساء يحاولون أن يكشفوا الحقيقة للناس وللتاريخ؟.. أقوى!! وسينتصر الحق!! متى؟! ستمر الأجيال وراء الأجيال، وقد ينكشف السر، بعد أن نصبح دودا، فى مقبرة مجهولة!! ومن يدرى؟ هل يأتى جيل، ولو بعد عدة أجيال، يحرص على توثيق أعمال أجدادهم العظماء؟ أم أنه سيسود الدنيا سلوك معكوسة؟ يخجل فيه جيل من أسلافه! وقد يتهم الأسلاف بالتعفن والرجيعة! وقد.. وقد.. وقد.. إلى غير نهاية؟

قال الفتى : قلبت على مواجع، أكتمها حتى عن نفسى!

قالت ليلى : هل خرفت وتجاوزت المدى، أم أن حديثى هذا حقائق؟

قال الفتى :.. وأى حقيقة أحب أن أعرفها.. عنك!

قالت ليلى : ماذا؟ اسأل.

وخفق القلب بين ضلوع ليلى، وتملكتها مشاعر مختلفة! هل ينوى هذا الصبى أن يتغزل أو يتشبب، أو...؟! لكنها سمعت منه كلاما آخر يختلف تماما عما كانت تتصوره!!

قال الفتى : أى دوافع يا ليلى دفعتك الى هذا الجهد؟

قالت ليلى : وصية أبى.. ودم سال أمامى، حينما قتلوا أمى.

قال الفتى : وماذا كانت وصية أبيك؟

قالت ليلى : أن أحافظ على جمال الفن وحقوق الفنان.

قال الفتى : جمال الفن، سيظل جمالا.. وسيزداد بريقا بمرور الأيام.

قالت ليلى : فإن زوروا وكذبوا، ونسبوه لمن لم يصنعه؟

قال الفتى : وماذا يضير الفنان، اذا مات؟ هل تتبعه المرارة حتى بعد الموت؟

قالت ليلى : ولماذا يغشون؟ لماذا يزورون التاريخ؟

قال الفتى : قولى لى أولا لو سرقت شهادة ميلاد، فهل يعنى هذا. سحب المولود من الدنيا؟

قالت ليلى : طبعا لا..

قال الفتى : وقد يصبح هذا المولود عبقريا، بغير نظير.

قالت ليلى : أتبرر أعمال التدمير والتخريب.. يا هذا؟

قال الفتى : أبدا! أنا لا أسعى الى هذا. قول لى أولا لو أنك زرت معرضا للرسم، ووجدت أجود أعمال الفنانين، فهل ينتقص تقديرك لجمال المعروض، إن لم تعرفى أصحاب اللوحات؟

قالت ليلى : وقد ضاقت بما سمعت : إن اللوحة عمل فنى متكامل. واسم الفنان أهم عناصرها.

قال الفتى لكنى قد أختلف معك يا ليلى. رحم الله الفنانين من أجدادك. فقد ارتاحوا وأراحونا.

قالت ليلى : كيف؟. ومن تقصد؟

قال الفتى : أعمال الفنان المصرى طيلة أجيال. حتى من قبل التاريخ. رائعة يا ليلى. لكن هل يعرف أكبر أساتذة الفن اسم فنان واحد منهم؟ هل كان الفنان المجزة معروفا بالاسم؟

قالت ليلى : لكن هذا لم يضر فنانا من فنانى الامس.. البعيد.. البعيد إلى أقصى المدى.

قال الفتى : وهذا ما أعجب له، حين أقارن مغامرتك بحياتك، لتحافظى على اسم أبيك! وهبى أنا نعرف ابنة فنان من أقدم منا فى التاريخ، فهل عاشت هى الأخرى تحارب من أجل اسم أبيها؟

قالت ليلى : من أجل شرف الفن..

قال الفتى : نحن نعرف الفن فى عهد اخناتون أو رمسيس أو تحتمس. لكن من كان أبرز فنانى هذه العهود الشامخة وقد ولت؟.. لا ندرى!

قالت ليلى : وهل هذا شئ جيد؟

الأعمال باقية يا ليلى، ولها من المكانة قدر رائع. وسواء عرفنا من الرسام أو لم نعرف فالفن قيمته فيه، وكفى الفنان أن فنه يبهرنا.

قالت ليلى : أنا لا أدرى كيف تحاورنى بهذا الشكل؟

هل أنت محامى عصابات الفن؟!

قال الفتى : محامى!! على كل هذه ليست محكمة يا ليلى.

وصاحت ليلى فيه : إذن.. من أنت؟

قال الفتى وهو هادئ : سبق أن قلت لك أننى انتسب إلى البوليس الدولى، وأنى هنا مكلف بك.. ألبى حاجاتك، وأمنع شر الاشرار عنك، وأتدخل عند الحاجة لادفع عمرى بدلا عن عمرك.

قالت ليلى : وقد بدأت شفتاها تهتزان من النشوة : وتقبل؟

قال الفتى : طبعا أقبل. بل وأرحب. ولن أسمح. حتى لنسيم هادئ أن يزعجك يا ليلى.

قالت ليلى : ألى هذا الحد يا..كيف أناديك؟

قال الفتى : وعيناه فى قدميه : آدم.. أفهذا اسم يليق على.

قالت ليلى : آدم.. اسم طريف، بدأت منه سلالات الإنسان.

قال الفتى : وليلى اسم ظريف، عنده ينتهى خيال الإنسان.

قالت ليلى : أتصدق هذا؟

قال الفتى : طبعا. وماذا يجبرنى على أن أكذب؟

قالت ليلى : أنت تحيرنى! من قبل كنت تسفهنى.. وها أنت ذا تبدو فى شكل آخر! أفهذا كله من أجلى؟

قال الفتى : هذا عملى. وأنا أؤدى واجبا كلفت به!

وأحست ليلى فجأة، أنها تلقت ضربة فوق الرأس، فأفاقت!!

●●●

وعندما خلت ليلى الى نفسها، بدأ عتاب حار على ليلى، من داخل ليلى! الصبى حلو وجميل، وعيناه الخضراوان كزرع طازج، بلله قطر الندى، حين أراد، أن يروى ظمأه!

.. وحديثه هادئ، كصوت الناى، فيه رنة حزينة وأسى.

ثم هو لا يعيش المأساة، فقد سرقوا شعر أبيه، ولحنوه لتغنيه جماهير الناس، ولم يعن بتصحيح الموقف!!

وأين وفاء الابناء للآباء؟

يبدو أنا فى الشرق مختلفون عمن فى الغرب.. وأظهر فرق، هو أن الأحزان عند الشرقيين، أطول عمرا منها فى الغرب!

كما أننا فى الشرق نحن لموتانا، حتى فى أسعد لحظات الأفراح، العيد يقبل، فيذهب الناس يصلون العيد، ولا يعودون إلى دورهم ليعيد كل على أسرته، قبل زيارة قبور الموتى! يذكرونهم، حتى فى الاعياد!

أما فى الغرب، فهذا شئ ينكره الغربيون!

وتسأل ليلى نفسها : أيهما أفضل؟ أن تعيش الذكرى فى القلب، أم أن النسيان هو الحل الأمثل؟

لكن ماذا ننسى؟ ومن ننسى؟

أفتنسى ليلى أباها الموهوب، وما أنتجه من فن رائع؟

أفتنسى أما تترنح، وقد نفذ السهم، فقطع أحشاءها وكبدها، ونفذ الى القلب لتكون نهايتها.

أفتنسى من هى..؟ وأنها ليلى، ولكن أية ليلى؟

إنها ليست ليلى قيس، ترتل شعره مع الناس، وهو يذكرها، ويبكيها!!

وهى كذلك ليست ليلى أى قيس آخر، فقيس رجل!! وأى رجل، يمثل عندها بلوى، فليلى تسمع صوت أمها، وهى تحذرها من الثقة فى أى رجل!

الثقة!! وما دخل الثقة، بين امرأة ورجل، فى علاقات عاطفية بينهما؟

الثقة قد تكون ضرورية عند التعامل فى بيع وشراء؟ ولكن عندما تلح العاطفة على الناس، فهى وحدها .. تكفى؟!

وظهرت ليلى الأخرى. لتقول لليلى : هل لأنك مفتونة بصبى تتسين حقائق ثابتة يا أختاه؟! إن الثقة ضرورية، لاية علاقة، ومن أى الأنواع؟! ومن لا ثقة فيه لا تعامل معه؟ الثقة لا تقوم الا على الامانة يا ليلى.. ومن لا يعرف معنى الأمانة، فهو بطبعة خوان، غدار، يتلاعب بالألفاظ، وينكر اليوم ما أكده بالامس!

تأكيدا يعلنه، ليخدر أعصاب المخدوعين، ويوهمهم أنهم منه، وهو منهم.. أو لهم! ولا يعنى شيئا مما يعلن!.. الصداقة والحب والإخاء، ووفاء بين الناس بغير حدود.. هذا كله وسواه بضاعة يبيعها فى سوق الأخلاق، ثم يتصرف كما يحلو له، وبغير أن يلتزم بشئ يكفيه أن يقول، وأن يسمع له الناس، ولا يهمه منهم أن يصدقوا أو يرتابوا، أو يسدوا آذانهم، فلا تسمع!! ألا يكفيهم، أنه قد قال المطلوب؟.. أفيطلب أحد منه أكثر من هذا؟.. أقواله للسوق، أما أفعاله، فهى له هو، بغير شريك!!

وانتفضت ليلى بالثورة على نفسها!!

ما هذا؟ أجننت؟ لماذا كل ما أبديته من آراء لا تجدى!

فليكن هذا الفتى من يكون!.. فما شأنى، لأدير مناقشة حول الثقة، والأمانة، وكثير من هذا الحوار الغبى؟ أفهذا من أجله؟

إنه يقوم بمهمة ليساعدنى.

وأنا محتاجة لخدماته، فخصومى أكبر منى!

فان تكن له عينان ساحرتان، فهذا شأنه! وإن يكن له وجه صبى، وشعر فتاة، فهذا أيضا لا يزعجنى!

فلماذا تحملين الأشياء، أكثر مما تحتمله يا مجنونة؟

أتحبينه يا ليلى؟ وتتسين يا بنت الناس، أنك لا تبحثين عن الحب، ولكنك تبحثين عن حقيقة، تائهة عنك؟!

وخلال هذا الصراع الصامت، كان الفتى ينظر لها، نظرات لا تخفى معانيها عن أنثى! أفكان هذا اعجابا منه بها؟ أفوقع الفتى فى حب، بغير نتيجة؟! وهل يرضى مثله، وفيه جمال، وأناقة وله إغراء، بحب من طرف واحد؟

ولو قرر الفتى حبا صامتا، لا يعلن عنه. فمن ذا يملك أن يمنعه؟

فان كان هواه يتجه إلى، فهل أمنعه أنا، اذا كنت طرفا فى هذا الحب؟

لكن ليلى عادت تلوم خيالها، فما دام حبه يدور فى صمت، فهو حب أخرس! لا يعرف عنه أحد شيئا!

وتشعر ليلى، بأنه يكفيها أن تعرف! لكن كيف، والحب فى حالتها صموت.. صموت، لا صامت!

وعندما يخطر لها أن الفتى قد يكون له عشيقات تحس الغيرة تأكلها! وتود لو عرفت ذوقة ممن يبادلهن الحب!!

وفجأة تعتدل ليلى فى جلستها، ليدور بينها وبين فتاها حوار سريع ومثير!

- أنت هنا بتكليف..

- طبعا.

- وما هدف هذا التكليف؟

- حمايتك من أعدائك.

- لحساب من؟

- لحساب المركز الدولى للجريمة، وله صفة دولية.

- ومرتكبوها..؟

- نضبطهم بالطبع.

- وتسلمونهم لمن؟

هذا يختلف فى حالة عنه فى حالة أخرى.

- تصنفون المجرمين.. بجرائمهم؟

- لا لا. كنا نتحدث عن مرتكبى الجرائم.. يفرون إلى الخارج مثلا؟

- صحيح.. ماذا تفعلون لهم. قاتل أمى ما تفعلون له؟

ـ لو هرب إلى دولة بينها وبينكم اتفاق بتسليم المجرمين.. فعلنا.

ـ والا، فهم أحرار، بغير مساءلة!!

ـ أبدا.. إنهم يحاكمون كذلك، لو ثبتت جرائمهم بالتحقيق العادل.

ـ أين..؟

ـ أمام المحاكم فى البلد الذى يكونون فيه.

ـ ويدانون؟!

ـ طبعا لو أثبت التحقيق جرائمهم.

ـ والعقوبات..؟!

ـ يحددها القانون، وفقا لكل حالة.

وهزت ليلى رأسها ثم مطت شفتها السفلى من الدهشة بينما كان فتاها، قد أسبل عينيه، من فرط تأثره بجمال فتان، لم ير أبدا مثله، وعجبت ليلى منه!.. أمن أول نظرة؟.. أبعد دقائق معدودة..؟ وهل رجال الشرطة، والأنتربول على هذه الدرجة من العاطفية؟.. ألا يتعاملون مع مجرمين

محترفين، يذرعون الأرض من الشرق الى الغرب، أو من الشمال الى الجنوب؟ أفلا تكسبهم وظيفتهم تلك.. مناعة؟.. نعم مناعة ضد العطف أو الحب أو التأثر من موقف عاطفى فيه إثارة؟

وعاد الحوار فاتصل بينهما.

●●●

ـ.. وبعد؟ لنعد إلى موضوعنا.

ـ خاصة وقد تأخرت هنا!!

ـ أبدا، بالعكس فقد مر بى الوقت، كالبرق الخاطف.

ـ.. لماذا؟! أفأنت كذلك.. مع كل فتاة؟

ـ وهل كل الفتيات كليلى؟

وأمسكت ليلى بالورقة التى تركها لها، وبدأت تقرأ ما فيها، وكانت مكتوبة بالخط العربى. وبلا توقيع فماذا كان فى تلك الورقة؟

كانت تحوى تحذيرا آخر، ممن أعطى نفسه حق التحذير الأول؟

التحذير الذى وصلك فى ميدان الدستور، مصيدة منصوبة لك! احذرى يا ليلى، فقد وقعت أعمالك على رجال عصابات الفن والتاريخ وقع الصاعقة فأخذوا يدبرون لك الشر، وسيمثلون عليك أدوار من لا يهمهم الا مصلحتك ونجاحك فى مهمتك!

وأخذت ليلى تنظر إلى الورقة مرة. والى الفتى مرة، وهى مكتومة الأنفاس من الحيرة!! بأى التحذيرين تأخذ ليلى المسكينة؟ بالتحذير الأول، أو بالتحذير من التحذير؟ وأبت ليلى أن تصبح لعبة يتقاذفها لاعبون محترفون، يؤذون الناس بالأجر، ويهربون الجواهر بالأجر، ويسلبون الناس أعز ما يملكون من التاريخ بالأجر، وما دام الأجر مضمونا، فليكلفهم من يرغب فى شئ بأية مهمة.. وسيقومون بها، برغم أية عقبات تعترض طريقهم، فهم سلطة فى ظلمات الليل، وتحت الارض، وحتى فى الضوء الباهر، ينفذون خططا مطلوبة، ومعهم أسلحة الموت.. خناجر ومسدسات مكتومة الصوت لا تسمع.. ولا يتردد منهم واحد، إذا احتاج الامر لقتل، إراقة الدم عندهم شئ مألوف. اعتادوا عليه، ولم يعد يحرك شعرة. فى رأس محشوة بآمال الثروة والثراء، ليعيشوا فى

النعمة! ويقيموا الحفلات للحسناوات الباهرات، فيتسلون عن الأخطار، بمتاع متخم، ينسيهم أنهم يعيشون على حافة قبر، إذا انزلقت قدم الواحد منهم، صار على الفور، ذكرى!! بينما كان المسكين.. يسعى للذكر والشهرة، لا الذكرى!!

وسألت ليلى :

ـ قرأت الورقة.

قال الفتى :

ـ وهذه خدمة، نقدمها لك، بكل تواضع.

قالت ليلى :

ـ وهل تعرفون من ذا كتب التحذير الأول؟

قال الفتى :

ـ عصابة.. غاظها أنك أفسدت عليهم خططهم. وكشفتهم أمام زبائنهم!

قالت ليلى :

ـ أما التحذير.. هذا..

قال الفتى :

ـ هذا من الأنتربول، وهى هيئة رسمية ودولية.

قالت ليلى وهى تتصنع الجهل بالموقف:

ـ وأين أوراق الهيئة؟

قال الفتى :

ـ تقصدين الورق الذى يحمل اسم الهيئة مطبوعا فى أعلاه؟

قالت ليلى :

ـ ومختوم أيضا بختم الهيئة.

وضحك الفتى وهو يقول :

ـ فإن زيف الشياطين المردة، هذا الورق نفسه.. بالاسم والأختام؟

قالت ليلى :

ـ أو يجرؤ واحد على هذا؟

قال الفتى :

ـ من يجرؤ على تزييف التوقيع على لوحة والدك.. يجرؤ اذن.

قالت ليلى :

ـ على رأيك.. إنه إذن يقدر على تزييف أسهل.

قال الفتى ، والاحلام تداعب جفنيه :

ـ قولى لى يا ليلى. هل تقبلين دعوة منى على العشاء؟

قالت ليلى، وهى تتصنع أن أحلامها هى أيضا تداعبها :

ـ أقبل يا..

قال بسرعة :

ـ سام.. اسمى.

قالت ليلى وهى تتعجب..

ـ ألم تقل أن اسمك آدم؟

قال الفتى وقد بدا عليه الارتباك :

ـ سام هو ما أنادى به..

قالت ليلى وهى تفحصه من رأسه الى قدميه :

ـ التدليل مثلا؟

قال الفتى :

ـ ربما..!!

.. وأصيبت ليلى بالصدمة!

وكانت مضيفتها قد أقبلت من ساعة، أو أقل، أو أكثر.

وعندما لاحظت أن أحد مع ليلى، لم تشأ أن تحرجها. لكنها كذلك لم تشأ أن تتركها. فقد تحتاج لمساعدة منها.

وتخفت المرأة فى منور، تسمع منه أى حديث فى المسكن، ولا شعر أحد بوجودها.

وسمعت ما دار.. وخافت!

إن حديث الفتى لم يخل عليها، فهو لا يمثل الأنتربول، إلا لأن الانتربول يطارده! ليمسك به! فهو مجرم بالفطرة، يستعمل ما وهبه الله من جمال ورشاقة، ليلعب على الفتيات، لعبة حب وشوق ووله! ثم يأخذ منهن كل الأسرار، حين تغيب الواحدة منهن عن نفسها، وهى بين ذراعيه!

وإلا يقع هو فى الشرك، فيذيع الاسرار، وهو سكران من فرط النشوة؟

ولكن السيدة اليونانية تشهد لهذا الفتى بالذات، بأنه يعرف كيف يصون السر ويحتاط، فيشترى من غير ثمن،

وعند الحاجة يقتل ويذبح، ويستعمل الكيماويات فى إذابة جسم ضحيته، فلا تصبح ذات ملامح، تدل عليها.

وبيتت مضيفتها النية، على أن تفعل لليلى شيئا.

ولم تدخل، لتترك الوقت لليلى، فقد تكشف هى مناورته، فان لم تستطع، أو لم ترد أن تستطيع! لتضحك على نفسها، حين توهم نفسها. أنها أقوى من لعبة فتى، تجربته محدودة!

واغراؤه..؟ هل هو محدود أيضا يا ليلى؟

وجمال عينيه..؟ هل هو أيضا غير مؤثر؟

ورشاقة عوده..؟ أفذلك مما ينسى؟

إن سلاح هذا الولد.. هو الحب! ولقد نجح معك، حين مد شباكه نحوك، وتحدث لك كمن يتبعد!!

●●●

ليلى فى خطر يا صحبى.

- ليلى بهرت بصياد الفتيات، ليسهل عن هذا الطريق مهامه.

- وهو فتى محترف. وحرفه تتغير، بتغير نوع الصيد الذى يرسم خطته ليصيده!

- هو مرة عاشق ولهان، يتحدث كمن يهمس!

- ومرة ابن الشاعر الذى مات من صدمة سرقة شعره!

- ومرة فنان مرهف، يسمع.. وينقد ما يسمع!

- ومرة يؤمن بأن العلم يحل مشاكل هذا العالم!

- ومرة.. ومرة.. ومرة.. وما من مرة يقول الحقيقة عن نفسه!!

- إنه يحب، لينهب!

- ويفلسف تصرفات الناس، ليسرق!

- ومع هذا، فهو لا يخطئ ضحاياه لو صوب نحوهم مسدسه الأخرس!

- خطير هذا المحترف النصاب!

- ومسكينة معه.. ليلى!

●●●

وانتهت المناقشة بين السيدة اليونانية، مضيفة ليلى، وبقية صحبتها.

الفارس الذى راقص ليلى فى التافرنة، وزوجته المرحة.

وجيران الفارس من رجال ونساء سمعوا القصة، وبدأوا يعملون لمساعدة ليلى، حتى تنجو.

وكان أول شئ ممكن أنهم حجزوا أمكنة لعشاء الليلة فى نفس الفندق، وكاد الفارس يصيح من الفرحة، عندما قيل له أن حضور عشاء الليلة والسهرة، يحتم أن يبدو الرواد متنكرين، باجراء التغيير الممكن، حتى يتحرروا من شخصيات حبسوا فيها أنفسهم طوال العمر.. وقال الفارس لنفسه :

- هل تعرف ليلى هذا؟ وكيف ستتنكر؟ ولماذا لم يقل لها صاحبها هذا؟

- هل نسى..مثلا؟!

- وهل مثله.. ينسى؟!

- ألم يكن يعرف؟

- ومن ذا يعرف غيره؟

وعاد الفارس الى نفسه يدير الفكرة فى رأسه.. وخطر للفارس اليونانى، أن الأمر خطير، وأن لصوص الفن والتاريخ، قد وضعوا خطة هذا الحفل، ليصطادوا ليلى، إن

هدفـهم واضح.. هو ليلى! لابد اذن من التـخلص من ليلى! فقد هزتهم جرأتها، ولو استمرت تفعل مثلما فعلت، لصاروا فى سوق التزييف مسخا أو نكتة! ويستهين بهم كل من نافسهم أو حاول وقف نشاطهم، فما أفلح، ولا هم سكتوا!!

لكن هل هذا الفندق، هو أكبر فندق فى عاصمة اليونان، شريك فى اللعبة؟

لقد أفسح صدره لليلى، حينما جاءت، وأعطاها جناحا ليغريها بأن تبقى فيه..

.. جناح كامل، وهو دائما محجوز؟!.. لشهور؟!

لماذا حفلات التنكر هذى، ولسنا فى رأس سنة أو عيد، أو مناسبة خاصة؟! إن الامر خطير، وهو محتاج لأن يتنبه من يهمهم انقاذ ليلى مما يدبر لها..

ثم.. كيف فاتك يا مجنون؟ أن الخطة بدأت منذ وصلت ليلى!

لقد حجزوا جناحا فى هذا الفندق، ولابد أنه كان مزودا بأجهزة تصنت وتسجيل، ليعرفوا عن ليلى كل تحرك تقوم به، قبل أن يتم..

بل إن التاكسى الذى نقلها من مطار أثينا الى هذا الفندق، لم يحاسب ليلى، أو يطلب منها أجرا!

هل الشركة التى تملك هذا التاكسى شريكة أيضا فى اللعبة!

وعاد الفارس يسأل نفسه، وهو يكاد يجن من تنظيم عصابات عملها أن تحطم أية قوانين. قوانين العالم مسبوكة، لو التزم بها الناس لعم العدل هذه الدنيا لكن شواذ الناس، لا يريدون العدل، وعدوهم هو القانون، فالقانون لا يسمح لمغامر أن يسرق بنكا، ليصبح فى غمضة عين، صاحب ملايين لا تحصى!! والقانون والعدل، لا يسمح لمهرب بأن يسرق قطعا مختارة، من أية حضارة، ليجرد هذه الحضارة من معناها!!

أما فى غيبة العدل أو القانون، فكل شئ جائز!

العدوان على الناس لا يتم والقانون مطبق!

وسلب الأموال، ونهب الثروات لا يتم والقانون مطبق!

حتى الهوى غير المشروع، وما يعقبة من آثار، لا يتم والقانون يراقب!

وعاد الفارس يسلى نفسه بسؤال هام :

- من ذا نصح هذه الصبية الحلوة ليلى، بأن تترك مصر، الى أثينا؟

هل للعصابات تأثير على ذلك كله؟.. تتصح برقة، وتدبر على مهل. وتضرب ضربتها، فيخر الناس حيارى! ويمضى أفراد العصابات بما سرقوه من مال او ذهب أو ماس، أو خرائط ومعلومات، أغلى آلاف المرات من أموال بنوك الارض جميعا!!

ووصل الفارس الى صحبه، وعرض عليهم كل شئ وجده أو فكر فيه، أو أداره فى رأسه..

وتساءل كل منهم : أفنذهب؟

وقالت واحدة بينهم : وهل تذهب ليلى..

قال الفارس : وهل ننصح ليلى ألا تذهب؟

قال رجل مسن ومجرب : وبأى منطق تخطر ليلى؟ وماذا يكون سبب اعتذارها إن اعتذرت؟

قال الفارس : وهل من المصلحة أن نقول لها كل ما وصل إلينا فى وضوح وصراحة..

.. وكيف علمتم بسر بينى وبين الفتى الرشيق الحالم؟ هذا ما ستصر ليلى على أن تعرفه، فان قلنا : كنا نسمع! فستسخط علينا جميعا، وقد ترتاب فى حقائقنا! وستكون فى هذه معذورة، فإن الطريق الذى مشت عليه، كان مزروعا بالشوك، ومع هذا فقد سارت فيه حافية القدمين، تتحدى!!

واستقر رأى الجماعة على تركها تذهب بالطريقة التى تراها، وسيذهبون هم أيضا، ليكونوا حرسا عليها من تدبير مخيف! بل وليكونوا حرسا عليها من نفسها!

●●●

وذهبت ليلى، ترتدى ملاءة، كأنما هى صبية من بنات بحرى، تحرص على الملاءة اللف، تلفها حول الخصر فتصبح مثيرة.. ومثيرة وبغير حدود! ولم تجد الا اليشمك الابيض تغطى به وجهها من منتصف الأنف حتى أسفل الذقن!

وذهب أصدقاؤها اليونانيون الى الحفلة التنكرية، ليكونوا فى خدمتها!

وعندما دخلت ليلى صالة الفندق، لم يعرفها أحد! فالملاءة اللف شئ لم تألفه أوربا! واليونانيون ممن عاشوا فى

مصر، نسوا كيف تلتف حول الأجسام المشوقة، وخاصة بين بنات بحرى بالاسكندرية الثغر الباسم!

وليلى لم تكتف بملاءتها، ولا باليشمك الإبيض يدارى نصف الوجه، بل لقد عمدت ليلى الى وضع شريط أسود يخفى عينيها، فهى تعلم أن العينين هما مفتاح الشخصية، وأن من حاولوا معها غزلا، قد كانوا أبدا مسحورين بهاتين العينين، وقالوا فيهما أوصافا مختلفة.. وسواء كانت هذه الأوصاف نفاقا أو حقيقة، فالواجب ألا تظهر عيناها، ليكون تنكرها كما تهوى..

وأخذت ليلى تستعرض أنواع التنكر المختلفة، فتجد بعض التنكر غبيا والبعض الآخر ردئ الطعم، كلحم الخنزير!

وفرحت ليلى عندما لم يعرفها أحد..

وفرحت أكثر عندما تبينت أصدقاءها اليونانيين، وقد عاشت معهم، واحتمت بهم طوال اقامتها بأثينا.

وبدأ العشاء الراقص، فلم تهمل دعوة من يدعوها للرقص، لكنها كانت عازمة على ألا تتحدث، فان اضطرت لحديث، فان اليشمك كفيل بتزوير الصوت، فلا يعرفها أحد!.

اليشمك وتزوير الصوت!

.. كعصابة مهمتها تزوير الفن!

وردت ليلى على ليلى، لتقول :

- أبدا هذا ليس بتزوير والتشبيه باطل!

- لكنه تزوير!

- الإنسان لا يزور ما يملكه!

- والصوت إذا غيره اليشمك؟!

- هو صوتك، وأنت صاحبة الحق المطلق فيه..

●●●

ولم تستطع ليلى أن تجلس، على مائدة منفردة اختارتها لتأكل فقد كان الطلب عليها، أكثر مما كانت تتوقع!

وخطر ببالها، الفتى ذو القسمات الحلوة والهمس بتأثيره!

أين هو العاشق من طرف واحد..

أين هو هذا المقسوم أو القاسم؟

وأين لصوص الفن، وهي شاغلهم؟

.. وجدت ليلى على المائدة التى اختارتها، لفرد واحد، ورقة مطوية، ففتحتها لترى فيها أنها لم تخدع كل الناس.. فهذا واحد يؤكد إعجابه ببراعتها، ويطلب منها ألا تخشى شيئا بالمرة..

نحن معك يا ليلى !

هكذا ختم الكاتب كلماته، فذكرت نفس الكلمات التى تلقتها عندما وطأت قدماها أرض اليونان..

وأخذت ليلى تعجب.. من ذا هذا الكاتب؟

أهى خدعة؟ أم هى مصيدة جديدة، تغلق.. لو اقتربت منها!

- لابد أن كاتب الورقة مصرى!

- ألا أنها بالعربية، يصبح كاتبها مصريا؟

- هذا هو احساس المرأة فى ليلى!

●●●

لكن ليلى لم تهتم بالورقة، فقد طلبها للرقص واحد متنكر، وفى الجلسة قال لها من يراقصها :

ـ اسمعى يا ليلى. أنت بارعة وشجاعة، وأغلب الناس هنا من لصوص الفن وتجاره..

وسكتت ليلى، لتسمع باقى القصة. قال زميلها فى الرقص :

ـ لم يعرفك أحد، حتى من وجه لك الدعوة لم يعرفك!

قالت ليلى :

ـ ولا أنا أعرف أين يكون..

قال زميلها فى ثقة :

ـ نحن نعرف.. فقد حشر نفسه فى ملبس جرسون!

وأخذت ليلى تتطلع فى كل زوايا القاعة، لتقع عيناها على هذا الجرسون المتنكر لكن زميلها قال لها فى حزم :

ـ إياك أن تفعلى ما تفعلينه الآن، فإن إلتفاتك قد يكشف حقيقتك، وتصبحين فى خطر.. ونحار نحن معك! فلن نمكن أحدا منك، ولو ضحينا بأعمارنا..

قالت ليلى :

ـ أفأنه القاسم أو المقسوم؟!

قال يمازحها :

- معك أنا مقسوم، لا أعرف نفسى. لكن قاسم هو اسمى..

قالت ليلى تسأل :

- وهل أنت من البوليس المصرى؟

قال لها :

- أنت ذكية وممتازة، ومن العبث أن ألف عليك، نعم أنا من البوليس المصرى، وعملى هو عملك أو بعض من عملك، وأنا أشهد لك بأنك أستاذة فى مواجهة التزوير، وتصحيح الموقف بالنسبة لاسم أبيك الفنان العملاق..

قالت ليلى :

- حيرتمونى يا سادة. حولى خطر يهدد حياتى، وحولى رجال ونساء يحافظون على، لا من أجلى وإنما من أجل ما يرغبون فيه من أعمال أبى. ثم ها أنت ذا تزعم أنك تراقب الطرفين لأنجو منهم. واسرع زميلها ليقول :

- نجاتك منهم شئ هام جدا، إنه مسئوليتنا، لكنا نتمنى أن تنجحى فى كشف عصابات الفن، لتعود إلينا ثروتنا

القومية، أو فى أقل القليل، تحمل أسماء الفنانين المصريين، بدلا من هذا الزيف الردئ القاتل..

قالت ليلى :

- قاتل من.. أفتعنى ليلى؟

قال زميلها فى سرعة :

- بل قاتل شخصية مصر فى سوق الفن، ليجردها مما تملك!

قالت ليلى :

- وما الهدف من هذا كله؟!

قال زميلها، وهو يلف ذراعيه حول العود المشوق فى ليلى :

- إضعاف مصر، وتجريدها مما تعتز به.: وحين يدرك أبناء مصر، أنهم بلا تاريخ..

قالت ليلى مندفعة :

- هذا كله كذب، ومن يزعم هذا لن يخدع إلا نفسه..

قال زميلها :

ـ هذا كله صحيح يا ليلى. لكنهم يريدون أن يصوروا للعالم وللمصريين أنفسهم أن الأمجاد التى تبنى عزتهم وقفت عند العصر الفرعونى، أما الآن فهم مجردون من أى ابتكار ينافسون به العالم المتحضر، ومن هنا يطعنون فى قدرة مصر على الاستقلال وتحمل مسئوليات العصر..

وهزت ليلى رأسها وهى تكاد تصيح بأعلى صوت تملكه :

ـ كذب!. هذا كذب.. وأبى قد قال لأمى، أن التاريخ لا ينفصل عن أرضه وقومه، فمهما حاولت هذه العصابات. فستظل بلادى، هى سيدة التاريخ بغير منافس..

قال زميلها :

ـ عشت يا ليلى لبلادك، ولعظمة أجيال الفنانين ومواهبهم..

وسكت وسكتت ليلى، فلما اقتربا من راقصين آخرين، غمز صاحبها بعينه يشير إلى واحد، ثم دار بها بعيدا لتسأله ليلى :

ـ من..؟

قال لها :

ـ أخطر عقل يدبر لعصابات الفن. وقد قابلك حيث تقيمين يا ليلى. وشهقت ليلى وهى تقول :

ـ أفهذا الوجه الفاتن. يدير بعقله عصابات الفن؟

والحب؟ والهمس الرقيق الحالم؟ وصوت يقطر شهدا؟

والمقدرة على التأثير فى أية أنثى؟ أفهذا رأس من يدبر الشر فى عصابات السرقة. تفعل أى شئ ضد القانون لتربح. تقتل وتعربد، وما من رادع..

قال زميلها :

ـ نحن لهم يا ليلى. المهم أنك عرفت هذا المتنكر. تصرفى فكلك يا ليلى حكمة ودهاء وذكاء بارع..

وتركها رجل البوليس المصرى..!

لكن من قال لك أنه رجل بوليس من مصر؟

كل من قابلتهم. ظهروا أبرياء.. فيهم سذاجة مقصودة..

وبينما ليلى تفكر، وتعطى وتأخذ، أعلن منظمو هذه الحفلة أن الرقصة التالية، مختلفة عما فات!. والأختيار فيها للأنثى. وكل النساء هنا، يخترن زميل الحلبة..

ووقفت النساء تتطلعن. لتختار كل منهن من يعجبها..

.. أما ليلى فقد ذهبت إلى آدم أو إلى سام هذا، تطلبه للرقص..

وعندما وقف يراقصها سحبته فى خفة إلى حديقة الفندق. فهى بالليل قطعة من سحر الساحر..

وخطر لفتاها، أن الفرصة واتت، ليمارس مع زميلته حبا يتناسب مع هذا المكان الساحر..

قال لها :

ـ أفأنت من مصر؟

قالت ليلى وقد زور اليشمك صوتها :

ـ ولماذا تسأل؟

قال لها :

ـ لانى أعشق مصر، وأعشق كل المصريات..

ولم ترد. ليلى لم ترد؟ كانت قد التفتت الى جوانب حديقة الفندق، فوجدت رجل البوليس المصرى، يتبعها ويشجعها على أن تبتعد الى أطراف الحديقة، فهناك باب

جانبى، بلا أبواب، وبلا رقابة، والليل قد أسدل ستارته، ليتيح لأى عمل أن يتم فى غيبة رقبائه..

.. وهناك عند الباب تلكأت ليلى، ثم مالت تصلح حذاءها..

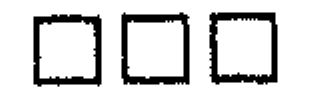
وأقبل رجل البوليس المصرى، فوضع على أنف سام هذا قطعة من قطن، فقد على أثرها وعيه، فسنده رجل البوليس، وحمله الى خارج الحديقة، ثم اختفى به، داخل سيارة..

وتوترت أعصاب ليلى وهى لا تدرىَ ماذا فعلت؟

أفيقتل صاحب هذا الوجه الصبيح الحلو بسببها هى؟

.. وألم تقتل أمك أمام عينيك، دفاعا عن فن أبيك؟

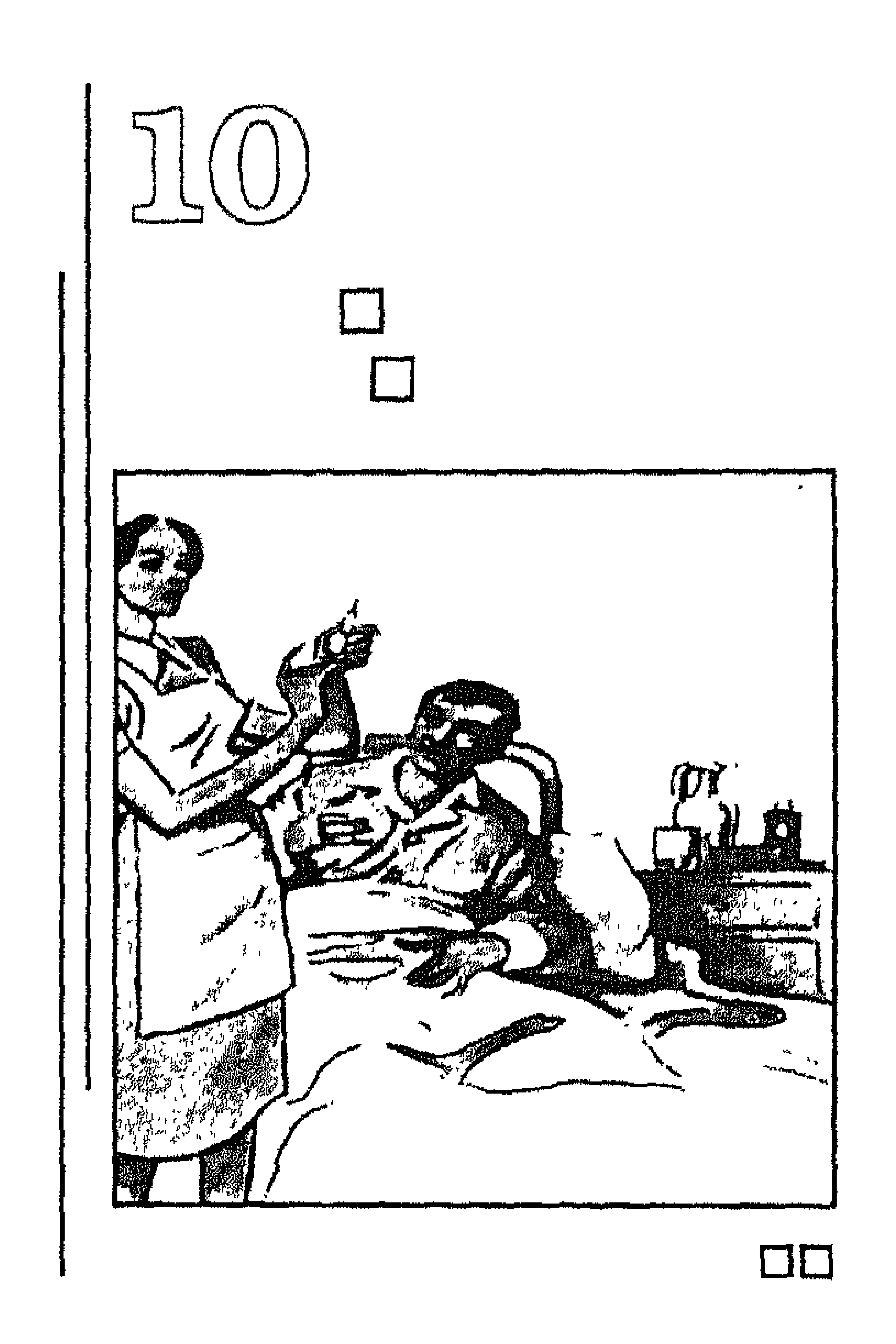
وخرجت ليلى تشم النسيم البارد، لتطفئ به ما فى جوفها من نار..



10

□

□



□□

.. كانت ليلى فى القمة!

بل شعرت ليلى لحظة لمست قدماها تراب الارض، وقد نشأت فيها أنها أعلى من أية قمة يعرفها الناس!! كسحب.. تتموج.. وكأنها فستان أبيض، يلف عروسا حسناء تتهادى أو تتدلل..

ودخلت أذنيها أول كلمة سمعتها وهى تهبط سلم الطائرة النفاثة، فاستقرت داخلها، فى الوجدان، وفى القلب، ولم تنسها لعدة أيام وأسابيع..

كان القائل رجلا، مهيب الطلعة، حلو القسمات، متفائل النظرات، وشعرت ليلى بأنه مسئول.. وقد يكون صاحب مركز..

وقال الرجل لها وهو يصافحها ويضغط على كفها بين كفيه : أفأنت ليلى..؟ لا.. أنت جان دارك بلادك!. هى جنت

بالنصر، وزعمت أن الوحى الغامض يحركها! أما أنت فقد أعدت للشخصية القومية وبلا إدعاء الوحى حركت دوائر العالم لتكون معك.. ولست أعرف فيمن أعرف، ومن وفت دين الوالد، صدقا وعدلا وأمانة! وكذلك وفت دين الأم، بالثأر ممن حرك شيطانا ليقتلها..

قالت ليلى وهى تشد على كفيه بكفيها:

أنا لم أؤد شيئا إلا الواجب، ولو أنى قصرت، لعشت حياتى معذبة، أتعجل موتى لأكفر أمام أبى وأمى عن ذنبى..

ومضت ليلى فى مطار القاهرة كأنها سفيرة جاءت فى مهمة رسمية فما هى إلا ثانية حتى عظمها ضابط الجوازات وهو يبتسم وفى ثانية أخرى تمت اجراءات الجمرك. وبعد ثوان أخرى معدودة كانت تركب سيارة سوداء فاخرة، لتذهب بها إلى مسكنها..

وكان الى جوار السائق شاب فى وسط العمر، لا يتلفت الى الخلف ليزود عينيه من فتنتها! وعجبت ليلى منه، فكل من قابلتهم طوال الرحلة كانوا يوجهون إليها نظرات شرهة وكثيرون حتى القتلة والأفاقون ولصوص الفن والتاريخ كانوا

يبدون الإعجاب بها! فلماذا هذا الفتى يبدو كلوح من ثلج؟!
أفلم ير حسنك وجمالك؟ أم أنه مشغول عنك بمن هى
أجمل؟!

.. يبدو أنه واحد من رجال الامن..

لكن أليس أخطر من رجال الأمن القتلة؟! ممن يسفكون
الدم! ويتضاحكون! كأنما هى نكتة، أن يقتل الواحد منهم،
كمن يتسلى!!

وأخذت ليلى تحدث نفسها، وتسألها : أفتبدأ هى؟

.. أو تنتظرين يا ليلى حتى يبدأ هو..

ولماذا تصر إناث الارض، على أن الرجل، أن يقوم هو
بمبادرة ما، ليعفى الانثى من أن تظهر وكأنما هى التى
تعرض فتنتها!!

تعرض ماذا؟.. وهل كل حديث عابر. يحوى عرضا من
أنثى، إذا بدأته هى؟!

أفهذا هو المنطق.. المذكر وهل فى المنطق ما هو مؤنث أو
ما هو مذكر؟ أو ما هو.. بينهما..

●●●

ولم تنتظر ليلى، حتى لا يطول بها الصبر..

فأدارت حوارا مع حارسها..

ـ القاهرة جميلة بعد الغيبة عنها..

ـ تمام.. يا أفندم!

.. أفندم؟! أنا ليلى، ولست أفندم!! إذن فهذا الصعلوك يفقدنى اسمى! لأصبح رقما لا شخصا، يؤدى وظيفته كمجند!!

وتنهدت ليلى، وهى تدعو الله أن يصبرها على بلوتها!

لكنها لم ترد التسليم أمام هذا الرجل الغامض، فواصلت الحوار معه..

ـ عندما تبعد عن مصر تعرف قيمتها!

ـ عندك حق يا سيدتى..

ـ أتسافر أنت كذلك..

ـ عندما أكلف بالسفر كثيرا؟

ـ أحيانا أعيش سفرا يكاد يكون متصلا..

ـ وأحيانا..

ـ أبقى هنا، أؤدى الواجب..

ـ هل سافرت أثينا.. مثلا..

ـ أثينا ليست سفرا يا سيدتى!

ـ... يا.. لماذا؟

ـ أثينا حى من أحياء القاهرة.. كشبرا مثلا..

ـ واغتاظت ليلى عندما ذكر الرحلة لأثينا.. لكنها لم ترد أبدا أن تستسلم لهذا الشرطى، فظلت تحاوره..

ـ وهل سافرت روما..

ـ... عدة مرات!!

ـ وفينيسيا..؟

ـ وكذلك فينيسيا!

ـ وباريس؟.. قل أيضا عدة مرات..

ـ أنت قلتها عنى يا سيدتى؟

ـ وهل ذهبت إلى لندن؟

ـ... طبعا!

وأخذت ليلى نفسا عميقا وهى تسمع ردود الرجل.. ثم وضعت ساقا فوق ساق!! وفكرت فى أن تثيره، فتدخن سيجارة رغم عنها لترى رد الفعل لديه!

ولم يلتفت الرجل إليها، حتى انتهت السيجارة!!

وأخذت تطالع بعض الصحف التى عادت بها، وتسترق النظرات إليه فلم تر أنه غير موقفه أبدا..

هو لوح من ثلج فى ثلاجة متجمد!

أو جذع شجرة سنط خشنة، شوكها يحميها من الاقتراب منها!

أو تمثال من تماثيل الإغريق، لم يعثروا بعد.. على غير قفاه!

●●●

وأخذت ليلى تعجب!!

ما نوع هذا الرجل، ومن أية سماء هبط إلى أرض الناس؟

.. إنه جامد كتمثال بلا روح! وصلب كجرانيت أسوان!

ألديه تعليمات بألا يظهر بغير مظهره هذا الذى يظهر به؟

وهل تجدى التعليمات اذا اتصلت بسلوك بشر. لا ابتسامة لا كلمة تقال مجاملة..وعلى الأخص للأنثى.. أفيمكن ألا يحيى الواحد واحدة، الا بتعليمات، أفيمكن ألا يضحك أحد لنكتة ظريفة، الا بتعليمات؟! وما هذه التعليمات؟ وكيف تكون؟

وصبرت ليلى، حتى وصلت مسكنها، فوقفت السيارة ونزل السائق والحارس ليساعد كل منهما الفاتنة ليلى فى حمل حقائبها الى الطابق الذى تسكن فيه..

وعندما انتهى السائق من مهمته، ناولته ليلى مكافأة سخية. وأرادت أن تستفز لوح الثلج، فأخرجت له هو الآخر مكافأة قدمتها إليه فاعتذر فى أدب شديد عن قبول المكافأة ولكنه قال لها :

- مكافأتى أن أجلس دقائق معك..

وأسرعت ليلى تقول له :

- تفضل أرجوك..

وجلس الحارس على كنبة فى ركن الصالة، وهو ينظر حواليه، وقد بهرته اللوحات المتعددة الأحجام والألوان والاتجاهات والتعبيرات..

وكانت ليلى قد اختفت، لتعد تحية للزائر على ما درج عليه الناس، فلما عادت بالتحية جلست إلى جواره على الكنبة فابتعد هو إلى آخر طرف فيها، وقبع كالخائف منها!

وبدأت تروى ليلى قصة هذا المحراب وأبطاله وما ضم به والدها الفنان، ليصبح محرابه أعظم محراب فنان على أرض الحضارة والتاريخ..

وقالت ليلى فى اعتزاز وتفاخر :

- وكان أبى يكره أن تباع أعمال الفنان!

- وكان أبى يقول، أن للفن وظيفة أخرى، أهم من الإيحاء للناس بما يرغب فيه الفنان..

- وكان أبى يقول: إن الفن هو اللحظة ذات الأثر الخالد يثبتها الفنان، لتضاف الى عمله، فتكتمل الحضارة فى لحظات النصر أو هفوات الهزيمة، ويصبح التسجيل يغنى عن المجلدات.. وبهذا يصبح أهم ما على الفنان أن يقدمه

للأجيال أن يسجل الهواجس داخل الانسان، وانفعالات الأجيال بما يصادفه الناس من الفشل أو النجاح.

- ولهذا كان يطالب بأن تظل أعمال الفنانين متكاملة الشخصية لتقوم بدور الدليل على ما أنجزه جيل، وفرط فيه جيل آخر. فإذا اضطر الفنان لبيع ما أنتجه من أعمال، فإن الدليل يخلو من صفحة أو صفحات وقد تكون هذه الصفحات هى أهم ما يدل على الأحداث!!

●●●

وظلت ليلى تحكى والرجل يسمع! يسمع بالأذنين! يسمع ولا يتحرك خلجة واحدة فى وجهه لا ابتسام، لا ضحكات! لا أحزان!! لا شئ من هذا كله يدل على أى تأثير.. وتأثر!! وكأنما كل ما قالته ليلى موجه لسواه..

وسكتت ليلى وبعد برهة قالت:

- كنت تريدنى؟

- قال الحارس :

- أرجو أن أعرف منك تفصيلات حياتك.

قالت ليلى :

ـ تفصيلات حياتى!!

قال الحارس :

ـ أعنى متى تستيقظين كل صباح، ومتى تنامين؟ وهل تقضين هنا أوقاتك كلها، أم تخرجين لعمل ثم تعودين؟ وما عساه يكون العمل الذى تخرجين من أجله؟

قالت ليلى ساخرة منه :

ـ كأنما تريد أن تخطبنى.

قال الحارس :

ـ أنا؟ العفو يا سيدتى. أولا أنا لا أليق بك. ثم انى أرفض قيدا على حريتى، ولو من حرير.

قالت ليلى :

ـ إذن فيم تريد هذه التفصيلات..

ـ قال الحارس فى تواضع :

ضرورات الأمن يا آنسة. كل التفصيلات مطلوبة، وما تظنينه تافهاً، قد يكون لأمثالنا هاما.. هاماً للغاية.

قالت ليلى :

ـ لكن هذا تدخل فى خريتى، لا أقبله!

قال الحارس :

ـ يا آنسة.. نحن مسئولون عن أمنك! ثم إنى لم أفرغ بعد من طلباتى.

قالت ليلى :

ـ ومن ذا قال لك أنى أوافق على الشطر الأول من هذه الطلبات لأسمع ما يأتى بعده؟

قال الحارس :

ـ سيدتى. كل منا يؤدى عملا وأنت قمت بعمل رائع فأصبحت مطلب أشرار كثيرين موزعين فى هذا العالم.

قالت ليلى :

ـ أنا كفيلة بهم.

قال الحارس :

ـ وتلقين ما لقيته أمك يا آنسة؟

ـ لن أموت يا هذا..

قال الحارس بنفس الجدية :

ـ اسمى حارس..

قالت ليلى تسخر :

ـ أو محروس! ما الفرق؟

ولم يرد حارس هذا بحرف فعادت ليلى تقول :

ـ كنت أقول أنى لن أموت قبل أن ينتهى عمرى.. أبدا.

قال الحارس :

ـ وكذلك كل واحد. لكن هذا شئ، ومهمة رجل الأمن أو الحراسة شئ آخر!

قالت ليلى :

ـ على كل حال : إن حياتى مكشوفة، بلا أسرار، فان كنت تريد أن تقف على نظام حياتى، فلن يجديك أن تسمع ذلك منى، فأنا لا أقبل أن تكون حريتى ملكا لأحد غيرى!

●●●

ووقفت ليلى ايذانا بنهاية الوقت، الذى أعطته لحارسها.

وكان على الحارس أن ينصرف وقد انبهر بما استطاع أن يلاحظه من محتويات المحراب وكنوز فيه لا تبلى! أبدا لا تبلى.

وظلت ليلى فى جلستها متجمدة من شعور بظلم الناس لها.

وأخذت تسأل نفسها :

ـ هذا الجلف نسى أنى أنثى! افلم يخطر له أن.. يغازلنى مثلا؟ أم أنى لم أعد أثير الرغبة فى أى رجل، حتى هذا.. المحروس!

ـ هو قال اسمه حارس.

ـ أراهن أنه لا يستطيع أن يحرس نفسه!

ـ لكنه حرس نفسه بالفعل؟

ـ من ماذا؟.. ومتى؟

ـ منك يا ليلى.. ومنذ رآك تعودين الى بلدك.

ـ وهل كنت أمثل خطرا على هذا الصعلوك؟

ـ أنت.. من أنت؟ ألست بأنثى؟!

ـ أنثى قفلت أبواب الرغبة فى أى رجل.

ـ كذابة أنت يا ليلى.. كذابة.

ـ بل صادقة.. صادقة بكل مقاييس الصدق!

ـ أية امرأة تتمنى الحب وتنتظره.

ـ لكن الحب أوسع من أن يقتصر على رجل.

هل تسمين حب الوردة.. حبا تبحث عنه بنت مثلك؟

ـ أم أن الحب للوحات الفنية، هو وحده.. الحب؟

ـ أم أبيات من شعر غزال، تغنى بنتا حلوة، عن حب رجل؟

ـ لكنى أكره رجال الارض جميعا ـ! أكرههم..

ـ كيف.. ولماذا ..؟

ـ وصية أمى وأبى.

ـ هل معنى أن رجلا قتل أمك، أن رجال الأرض جميعا قتلة؟

ـ لم أقل هذا.

ـ.. لا تقوليه، لانك سبقت الكلام، بالتنفيذ!

ـ هل ترانى فقدت إغراء الرجال.. بجمالى؟

ـ أو أنك لم تعودى قادرة على الاغراء؟

ـ.. وآدم.. أفلم يذب فى سحرى؟

ـ آدم؟ أهو آدم؟ إن اسمه هو سام؟

ـ غشاش.. والغشاش فى اسمه غشاش فى حبه!

ـ لقد كان يهيم بى، حتى وهو سام..

ـ وكنت أراه مناسبا، لولا ما كشف التحقيق معه عن مجرم محترف ناعم شريرا

ـ غيره...

ـ كثيرون أبدوا الرغبة فى حبى، وكانوا فى الواقع يريدون استغفالى!

ـ وشاع عنك أنك ـ بكل الجمال ـ أنثى تخفى داخلها ذكرا!

ـ ما أقبح أن تبدو امرأة فى غير طبيعتها.

ـ وأقبح من هذا الأقبح أن تأخذ الناس هذه الفكرة عنها، فيخافوا على أنفسهم، ولا يستطيعوا أن يقتربوا منها، ولو خطأ!!

●●●

وغفت ليلى على مقعد تحيط به أحلى لوحات الفن. ورأت فى غفوتها ان أمها قد جاءت لتقبلها.

ـ لكن أين أبى يا أماه؟

ـ فى الجنة..؟

ـ وأنت يا شهيدة وفائك لأبى؟

ـ معه يا بنتى.

ـ وهل يؤذن له أن يرينى وجهه؟ ام ان للأخرة قواعد أخرى؟

ـ الآخرة يا ليلى كالأولى.

ـ أبدا ففى حياة الناس الأولى غدر وغل ونفاق وجريمة.

ـ فى الاخرة، لا مكان لهذا.. أبدا.

ـ فان خلت الدنيا منها..

ـ صارت جنة.

ـ ولماذا لا يتخلص الانسان فى دنياه، مما يلوث صفحته.

ـ... حتى لا يتساوى الاحياء بخطاياهم، بمن ماتوا وصاروا فى الجنة.

ـ وما الضرر لو صار سلوك الناس فى الدنيا، كما هو فى الحياة الاخرى؟

ـ وهل يتساوى الثواب والعقاب يا ليلى؟

ـ صدقت يا أماه! وإلا فإن القتلة يحتلون مقام من قتلوا.. ظلما؟!

ـ.. وينتفى من دنيانا الشر؟! وينتفى معه الواعز!

ـ ويصبح الكيذبان كالصديق!!

ـ وينال الاحمق والمغرور، مكانة سوى النفس والتواضع!

ـ ولا يعمل للتغير أحد.

ـ والثورة تفقد قيمتها أمام العدل المطلق.

ـ السخرة تصبح صفحات فى كتاب التاريخ!

ـ ونهر النيل يتدافق شهدا!

ـ ولا يغرق هذا النهر أيام الفيضان محصولا لأحد!

ـ وتسقط إدارات تتحكم فى الفن ويصبح المدير كالفاعل!

ـ وتقسم الأرزاق على الأعيان والسادة، ورفيق الارض، بلا تفريق!

ـ أفهذا ممكن..؟

ـ هو ممكن.. فى الجنة!

- وما الجنة..؟

- سر لم نصل بعد إليه.

- وقد نعرفه، إذا عرفنا ما هو ضده.

- فان يكن هذا الضد رديئا وخبيثا.. يخب أى رجاء فيه..

- تصبح الجنة هى الحب والصدق والعدل والحرية مضيئة كل طريق رائعة القسمات، كملاك طاهر.

- وليس مكان الملائكة هذه الارض.

- ولا مكان الأشرار.. الجنة!!

●●●

وبينما كانت ليلى مستغرقة فى غفوتها، تحلم لتعيش فى الحلم حياة أخرى، لتضاعف بها قيمة ما تحيا فيه، وتنمو وهى تحلم، بلا عقبة تسد طريق السعد، أو طريق النحس!.. ومن ذا يزعم قدرته على أن يصنع الحياة لنفسه كما يهواها؟ وردية.. أو خضراء.. أو تتداخل فيها الألوان لتزداد حلاوة وجمالا؟!

وشعرت ليلى فى الحلم، انها تعوض العجز، بالسيطرة على هذا العالم! فهى تطير كيمامة تتغنى بالحب، وهى تحلق

فوق الماء أو فوق جبل وهى تستعمل بساط الريح، لترى بلاد اليونان، بغير عصابات تتصارع فوق الارض أو تحت الارض أو فوق سفينة تشق بها موج محيط.. واسع!!

وأحلام ليلى، لا ترتبط بليل أو بنهار.. فهى تستعمل إحدى ضرورات الانسان فتغفو.. ثم تستغرق فى نوم عميق وطويل ولذيذ. تأكل وهى مستغرقة فى النوم، وقد تصحو فتجد أنها شبعت من كثرة ما أكلت وتشرب.. وتشرب ماء وقد تشرب مشروبات أخرى!! محظورة! وكيف تطبق قوانين اليقظى على نيام كالموتى؟!

حذار يا ليلى.. فأحلامك يا بنت الناس تتناول ما تخفين عن الناس جميعا فأنت تحبين فى الحلم.. وتشتاقين لهوى مكتوم فى قلبك!! وتسمحين لمحبيك.. بماذا؟ لا.. أبدا لا قبلات!.. ولا همسات!.. لا رقصات مثيرة!

●●●

أفهذا سام يا ليلى؟

أبدا فقد كرهت فيه الغش والزيف، وقتل الأنفس بغير جريرة! مع ذلك فشبحه يصر على أن يأتيك فى نومك،

فتنسى كل السوءات يا ليلى! وتذكرى فقط همساته فى أذنيك ونعومة صوتهٌ!

وتمضى ليلى فى غفوتها تعيش.. عيشة اخرى. مختلفة تماما عما اخذت نفسها به، فى يقظتها! وكانت غفوتها، ثقيلة! من زحام الأحلام، وكثرتها!

●●●

وأمام باب المسكن، وقف رجال يدقون الجرس برقة..

لكن الرقة لا تفلح فى إيقاظ ليلى.

.وبدأت أجراس الباب تدق، فى سرعة دقات القلب العاشق!

●●●

وتحولت هذه الدقات إلى أجزاء فى الحلم الذى تحيا ليلى فيه فتصورت أن حبيبا يطرق الباب عليها!

ـ سام؟! أهو سام؟

ـ غشاش وجبان وكفاه ملطختان بالدم!

ـ أهو فارسك فى التافرنة؟

ـ كان الفارس زوجا لليلى أخرى!

ـ وهل ذنبه أنه تزوج، بلا حب يا ليلى؟

ـ وما ذنب ليلى، تفتح صفحتها لشواذ الناس؟

●●●

ويزداد الطرق على الباب..

فالجرس كان أرق من أن يوقظ ليلى.

والطريق على الباب تحول فى الحلم إلى نداءات تتصايح بليلى.. العذراء وبحبها هذا العذرى!

ـ ليلى؟.. ياليلاى! يا ليلى كل محب، يبحث عن معشوق!

ـ قيس؟ يا قيس البوادى، تجرى وراء ليلاك! بلا عقل ينظم خطواتك.

ـ ليلى.. قيس!.. قيس.. ليلى..

ـ رددت قيس وليلى الصلوات.. لم تمت ليلى، ولا المجنون مات!!

وضحكت ليلى وهى نائمة، ترتل شعر الشاعر! ولا تلجأ للتزييف لتنسبه لنفسها!!

وكان الجمع خلف الباب قد أفلح فى كسره، وهم خائفون على ليلى، خشية أن يكون قد أصابها سوء!! وأن ليلى مضطجعة فوق كرسى كرسى واسع ووثير، تنظر حواليها، لترى أين هى من هذا الجمع؟. وأين قيس الذى ناداها فى الحلم الجميل الرائع؟ وأية صلوت كتلك التى تغنى بها المجنون؟!

وانتظرت ليلى أن يتحدث معها عاشق أرقه الشوق، فإذا بصوت مأمور الشرطة، الذى زارها من قبل، فى يوم حزين دامع.. إذا هذا المأمور يسألها :

ـ ماذا بك يا بنتى؟ لقد اضطررنا لكسر الباب، فقد خفنا عليك.

ـ قالت ليلى فى تؤدة وهدوء :

ـ.. خفتم على..؟ من ماذا؟

قال المأمور :

ـ من احتمالات كثيرة شريرة.

قالت ليلى :

ـ لقد أصبحت على درجة كافية من المناعة، يا حضرة المأمور.

قال المأمور :

ـ لكنك أنثى وصغيرة.. وأنت هنا وحدك.. وصور الشر كثيرة يا ليلى..

ولم تهتم ليلى كثيرا بما قاله المأمور، ونظرت الى وجه جديد جاء مع هذا الحشد من الناس، فلما طالت نظرتها نحوه، دار بينها وبينه حوار مثير، وسريع!

ـ تعجبين من حضورى؟

ـ طبعا فكل هذه الوجوه أعرفها.. إلا أنت.

ـ لكنى رأيتك حينما سافرت إلى أثينا.

ـ فى مصر أو اليونان؟

ـ هنا وهناك.

ـ لماذا؟

ـ لأنى كلفت بأن أرأس مجموعة تحميك من أى أذى.

ـ وراقبتنى طبعا طوال الرحلة.

ـ وكان معى عدد، من أذكى ضباط الأمن.

ـ وعندما ذهبت إلى روما؟

ـ كنا خلفك خطوة خطوة.

ـ وفينيسيا..؟

ـ وفى باريس ولندن.. لم تغفل أعيننا عنك.

ـ... حتى عدت إلى القاهرة.

ـ وأثمرت رحلتك ما لم يكن أحدنا يحلم به.

ـ يا سيدى!

ـ أنت ضبطت لوحات أبيك فى كل مكان، فأثرت فنانى العالم والنقاد والكتاب.

ـ أعلم.. لكنى أعلم أيضا أن السلطات فى أحيان لا تحب أن تظهر فى صورة من يخضع لقلم يكتب.

ـ فاذا أصر الكاتب على رأيه، وكانت حجته واضحة عنده، رضخت له أية سلطات.

ـ... إ.. يه! "حلنى"!

ـ لقد حدث ما لم نتوقعه، فثارت هيئات دولية، فى وجوه ممثلى دول فتحت أبوابها لعصابات تزييف الفن والتاريخ ومعارف الإنسان.

ـ... قبضنا؟!

ـ فعلا قبضنا يا ليلى، وصدر بيان دولى يدعو الدول إلى مراجعة الأعمال الفنية، لتعيد ما وصل إليها عن طريق السرقة أو الغضب أو الإرهاب.

وفى كل الأحوال فإن على دول الارض جميعا، ألا تسمح بعرض عمل فنى، منسوب إلى غير من أبدعه.. أفهذا لا يكفى؟!

●●●

وبينما هذا الجمع يتلفت ليرى أعمالا باهرة بغير نظير.

.. اذا بشئ يحدث يذهل ليلى، ويكاد يفقدها القدرة على التعبير! ما هذا؟ ومن أنتم؟

ـ أنت.. ألست الشخص الذى أحسن استقبالى فى مطار القاهرة؟

ـ وأنت.. ألست سائق السيارة السوداء؟

ـ وأنت ألست رجل الأمن المكلف بحراستى، وجلست إلى جوار السائق؟

بل وجلست معى هنا؟

- ومن فيكم أيها السادة سهل مهمة استقبالى، فلم أحتج إلا لدقيقة. فى الجوازات، ولدقيقة أخرى فى الجمرك؟

قال المأمور:

- إنه شخص مجهول ادعى لنفسه الصفة الرسمية ليسبك الحيلة حتى على الرسميين!

قالت ليلى منزعجة :

- وهرب..؟

قال المأمور :

- اختفى فى مكان ما .. لكنا، بإذن الله، سنجده.

●●●

مضت ليلى تلطم خديها!! أبهذا التدبير المحكم تتم السرقات؟ ثم تصيح : وفى عقر دارنا، ونحن أصحاب البيت؟! هل نحن يا رجال الشرطة والأمن، نحيا على سطح مكشوف، لا نُستر فيه، حتى عورتنا؟!

قال المأمور لليلى :

ـ لا يا ليلى.. إننا نحيا فى دولة ذات حضارة وتاريخ، وعيوننا لا تغفل عن مراقبة الأشرار.

ـ وفقدت ليلى هدوءها فصاحت فى المأمور :

ـ وذهبت أمى، وعيونكم مفتوحة؟! وقتلت المسكينة هنا.. أقول.. أقول هنا، وأنتم يقظى؟! وأتى إلى لصوص محترفون برغم مراقبة الشرطة؟! يا شرطة بلدى، ابحثى لك عن شرطة!!

قال المأمور فى أدب جم :

ـ ليلى.. إنا نعذرك، فى هذا الهجوم القاسى، نعذرك لكثرة ما تعرضت له من أخطار، نعذرك لكنا نؤكد لك أنا كنا معك، بكل جوارحنا. وكانت ضرورات وظيفتنا الا تعرفى من نحن.. وكفانا أن نشعرك بالاطمئنان، فأعدى أعدائك فى تقدير الأمن، أن تتصرفى وأنت تخافين!

●●●

وفجأة دخل الى المسكن رجل، نسيت ليلى حين رأته أنه من جنس مكروه منها فهو رجل! وهذا يكفى فالرجل فى كل الحالات خصم لا يؤمن جانبه أبدا!! هذه وصية أمى، وسأعمل على تنفيذها.

لكن ليلى نسيت هذا كله، وتهلل وجهها الجاد العابس، وصاحت ترحب به. وتمسك بيديه، وتلف به فى رقصة من رقصات التافرنة، وبلا موسيقى!!

وما إن فرغا، وأفواه الجميع فاغرة من فرط الدهشة! حتى قالت ليلى:

ـ ماذا أتى بك، يا فارس أول ليلة من ليالى الغربة فى أثينا؟ وهل أتيت وحدك.. أم أن زوجتك معك.

قال الرجل بالعربية :

ـ هى معى، لتزور الزجازيج بلدها ومسقط رأسها.

وضحكت ليلى وهى تجرى نحوها عند الباب، لتعانقها وتقول لها :

ـ هل أنت قادمة من الشرقية.. بلدك؟

قالت زوجة فارسها :

ـ لا لا. أنا من الزجازيج!

قالت ليلى :

ـ والزجازيج عاصمة الشرقية.

وسكتت ليلى برهة ثم قالت تداعب زوجة فارسها :

ـ هل كنت ممن عزموا قطار السكة الحديد؟ وقدمتم له فطيرا مشلتتا وقشطة، وهل شاركت أهلك هذه العزومة المعروفة؟

وضحك الجميع. ثم بدأوا يتسلمون من هذا الفارس اليونانى بعض لوحات والد ليلى، وكانت قد سرقت، وزيف التوقيع عليها، فلما كشفت حكومة اليونان هذا الزيف، بادرت بمصادرة اللوحات وأعادتها الى محراب الفنان نفسه! فجاء بها هذا الفارس.

وكانت فرحة ليلى أكبر من الدنيا .. كل الدنيا.

.. لكن الفرحة مع ذلك لم تنته بعد، فقد أخرج الرجل لوحات أخرى كانت فى روما، ونفذت حكومة إيطاليا ما نفذته حكومة لبنان.. وكذلك حمل لوحات هربها رجال العصابات إلى فرنسا وبريطانيا.

وعندما فكروا فى إعادة اللوحات إلى مصر، اختاروا هذا الفارس، فقد دلت مراقبتهم لتحركاته أنه تأثر بليلى ودفاعها عن حق الفنان فى ملكية لوحاته! أما أن يحتاج فيبيع بعض

اللوحات، فإن هذا لا يعنى أنه باع كذلك اسمه. ليبقيه على اللوحة من يبقيه، ويزوره من ينشد الشهرة، على أكتاف المظلومين، من الفنانين.

●●●

كانت ليلى تسير حافية القدمين، متهدلة الشعر، وهى تتحسس اللوحات على الجدران، وفى الطرقات، واللوحات التى أعيدت الى المحراب، وكانت قد سرقت منه، وزيفت لتصبح باسم آخر، ليست له موهبة إلا جمع المال من أى سبيل! ويقولون فى تدبير الجشع البغيض المكروه، أن الجنيه ورقة لا رائحة لها، تدل على مصدرها، فالجنيه الذى يأتى شخصا، أفنى نفسه فيما يعمل، هو كالجنيه المسروق من بيت مشبوه! وتجارة الرقيق الأبيض تدر على التجار جنيهات.. جنيهات كثيرة جدا، بغير حدود وبغير ضرائب ولا رائحة تميزها، وإنما هى كجنيهات العالم الذى أنفق عمره فى معمله يبحث.. ليصل إلى دواء أو مصل، يخف آلام المرضى.

كل جنيه بلا رائحة! تفضح رائحته مصدره كلوحة تنتسب إلي غير أبيها! كالتاريخ حين يزيف. لتصبح القوة من حق

الجنس الأبيض.. لأنه أبيض!! وبياضه.. كجنيه.. لا رائحة له!

ولم تكن ليلى لتنام ليالى متصلة!

وكيف تنام، وستغادر هذا المحراب الجميل خلال بضعة أيام؟.. وستصحو ذات صباح، لتجد جدرانا خالية خاوية جرداء، بعد أن كانت تفتح عينيها على بسمة طفل، أو قفزة حصان عربى من أجود أنواع الخيل فى الدنيا. أو واحدة منكوبة، رأسها بين كفيها، أو فتاة جميلة، تمر بين فروع البستان، وورود كخدود عذارى!

ستصحو لتفتقد ولدا من السنغال، فرح بعيد الأضحى، وجلبابه الأبيض هو أجمل ما يملكه!

لا هذا.. أو ذاك.. أو هذه.. أو تلك ستطل عليه طوال الليل لتحرسك!

وشعرت ليلى أنها تبكى!

- لماذا يا ليلى؟

- لفراق الأحباب.

- من هم؟ أهى اللوحات فى أنحاء البيت وفى المطبخ والحمام؟!

ـ بل أمى وأبى.

ـ لقد ماتا...

ـ لكنهما هنا فى المحراب. فلقد قالت أمى أن أبى كان يقول لأصحابه، أن أثر الفنان أطول من عمره!

ـ لقد كرمت الدولة أباك، فقررت تحويل محرابه هذا الى متحف يحمل اسمه.

ـ وسيحوى المتحف إلى جوار اللوحات، ملابس الفنان الراحل، ومرسمه الفريد، وأدوات الرسم والألوان، وحتى حجرة نومه.

ـ هذا شرف أفخر به. لكنه شرف، كمن شيعوا أباه على مدفع!

ـ وما علاقة هذا بذاك؟

ـ هل يمد المدفع، والمحمول عليه عزيز، عمر أبيه؟ إن هى إلا دقائق، ثم يدفن من فوق المدفع، ويعود المدفع ينتظر فقيدا اخر!

●●●

إن ليلى لم تعد فى وضع المحتاجة، فقد سخاها الفنانون فى تقدير ما يحويه المتحف، ورأى أساتذة الفن، أن تتولى ليلى أمانته إن قبلت، وسيكون معها حراس، واجراءات لحفظ الأمن، وتمكين الزائر من التزود بما ترك الفنان الموهوب للتاريخ.

لكن المتحف.. متحف، وكان على ليلى أن تختار مكانا آخر تسكنه.

لكنها لن تجد مسكنها كهذا المحراب.. أبدا!

- المرء يا ليلى لا يعيش فى متحف.

- والمتحف لا يعيش بلا زوار.

●●●

وبدأت حياة ليلى فى مسكن، يطل على النيل، لترى أجمل منظر فى الدنيا، تعايشه فى صمت. وتؤنس وحشته، كما يؤنس هو الآخر وحشتها.

وعندما وجدت ليلى أنها صارت وحيدة... وحيدة... لا عالم يحيطها بخيال رائع، قررت أن تمارس عملا آخر، فوظيفة الأمينة لمتحف والدها، تربطها بذكريات غائرة فى مدمعها!

لكن ماذا تعمل؟

التحقت بإحدى شركات الطيران مضيفة، وساعدتها اللغات التى تعرفها على التفوق فى عملها.

وأخذت تركب طائرة إلى طوكيو، وتعود عن طريق هونولولو! وتهبط فى باريس، ثم تحط رحالها فى القاهرة:

ولكنها ـ رغم التسلية المغرية هذه ـ كانت تتعرض لأزمات مختلفة.

واحد من الركاب أراد أن يغازلها مرة، فهبت فيه، فانتفض الراكب من الخوف، وسرى الخوف من الراكب إلى طاقم الطائرة نفسه!

وواحد آخر لمس خدها الوردى، فدفعته ليقع على الارض، كذبيحة فى عيد الأضحى!

وأصبحت ليلى معروفة فى الشركة بالشراسة وبالقسوة!

ولم تنصفها الشركة، برحلات كثيرة تقوم بها، ولكنها كانت تفعل ذلك مضطرة.

وفكرت الشركة يوما فى أن تكون ليلى مضيفة أرضية، لا تطير!

لكنهم خافوا منها، فقد أصرت على معرفة الأسباب، فلما صمتوا قالت ليلى بفم ملئ، بالاقتناع بموقفها : أنتم لا تريدون مضيفة، إنكم أحوج إلى جارية من جوارى السلطان! يصفق فتحضر! ويصفق فترقص! ويصفق فتركع تحت أقدام السادة! أفمن ترفض هذا. لا تركب طائرة يا سادة؟!

وحسمت ليلى الموقف بأن استقالت غير آسفة على شئ.

ورأت أن رعاية المرضى أكثر إنسانية، من رعاية ركاب الطائرات، بما فيهم من شعور بالاستعلاء على النّاس! فالراكب قد يسكر فتسليه مضيفته، حتى لا يهرب السكير من الشركة!

وذهبت ليلى إلى مستشفى صغير وأنيق، وأسعاره مرتفعة جدا. فلما بدأت تعمل فى التمريض والإشراف على النظافة العامة فى المستشفى، وجدت نزلاء هذا النوع من المستشفيات هم نفس الركاب فى طائرات فاخرة، تعبر المحيطات ولا تهتز.

وأخذت ليلى تتسلى على المرضى!

واحد مرضه حساسية فى الأعصاب! ودواؤه أن يبتسم ويضحك، ضحكات بلهاء بلا معنى! أما الممرضة فعليها تقع المسئولية إن لم يبتسم ويضحك ويقهقه.

ويستعمل المريض هذا الضحك، سبيلا ليتسلى بممرضات المستشفى!!

- وماذا تخسر ليلى، لو تركت هذا الرجل العجوز والمتصابى يقبلها مثلا؟

- نعم ماذا تخسر.. هل كل القبلات حرام؟

وهبت ليلى تؤدب مرضى الأعصاب!! فنقلوها الى قسم العظام.

وأصطدمت من أول يوم بمريض يمثل عجزا عن الحركة، فكان عليها أن تحمله بين ذراعيها. لتساعده ليقف! ومد المريض شفتيه ليقبلها على شفتيها!.. فتركته يقع كالجردل ورن فى جناح مرضى العظم، كأنما هو انسان آلى، مصنوع من النحاس أو الفضة!

وتركت ليلى التمريض فى المستشفى.

●●●

وفى إحدى السفارات الأجنبية التحقت بعمل، فإذا السفير بعد عدة أيام، يساومها على أن تسلى غربته خارج بلده، فلما رفضت نقل عملها إلى الأرشيف، وفى بدروم معتم ورطب وقذر!

ولم تجد ليلى بديلا عن أن تترك هذا العمل، رغم ما كان يدر عليها من دخل هائل.

ورأت ليلى أن تفتح محلا لزهور، يقدرها من يعرف قيمتها!

ولكن صدمة ليلى أنها وجدت اختلافا كبيرا بين زبائنها القدامى، وزبائن زهر متفتح! لكن برغم الزهر، كان غباء زبائنه!

وجاءها واحد متألق، ليطلب منها أفخم أنواع الزهر لديها، فجمعت مجموعة ممتازة منها، ولفتها فى ورق السوليفان، وتسلمها الرجل ووضع عليها بطاقته ودفع الثمن دون محاولة لمساومة، ثم قال لليلى : هذه هدية منى.. إليك!

بغير أن تتردد ليلى، ألقت بالزهور فى عرض الطريق، ومعها كل ما دفعه الرجل ثمناً لها!!

وصعب عليها أن يموت الزهر من خطر السيارات، فعادت تجمعه لتضعه على رصيف الشارع، فى مكان آمن.. وطوال الوقت كان من اشترى ودفع، يفتح شفتيه، فى غباء مزرٍ!

وقررت ليلى أن تترك هذه الأعمال جميعا، لتعيش لنفسها، لا للناس!

وفى مسكنها الجديد، عاشت وحيدة، لا تؤنسها لوحة من لوحات أبيها!

ولا حلية من حلى الأم المسكينة!

وبدأت ليلى تتردد على المطاعم الفاخرة لتسمع بعض الموسيقى!

وترددت ليلى أيضا على الملاهى الليلية، وكانت تتعمد ألا تختار من أجل مزاج متعفن!

وسبقها صيت القسوة وكأنما هي نمرة، تحتاج لترويض. ومن يدرى ماذا تفعل النمرة خلال فترة الترويض! قد تقتل من يروضها.. وقد تصبح خطرا على نفسها أيضا!

ولكن الناس، من رواد ملاهى الليل، لم يكونوا يبحثون عن المتاعب، لكنهم كانوا يبحثون عن المتعة.. فلماذا التجربة إذن!

وصارت ليلى تتقدم نحو رجل، فيتباعد عنها، وأخذت تصطنع الهدوء، لكن شباب الليل الساهر. تعمد ألا يلتفت إليها! وكتبت تراسل بعض رجال يطلبون أن يجدوا أنثى تراسلهم فلما فعلت ردت عليها أنثى أخرى تقول لها أنها ضبطت خطابها الخليع، فى جيب زوجها الماجن!

وبدأت ليلى تشعر بأن أعصابها اخذت تتوتر.

وتتحدث فى التليفون مع واحد، فما إن يبدأ فى غزل صريح معها، حتى تلقنه درسا لا ينسى!

ويقول لها محدثا :

- فيم إذن طلبتنى؟ فى حين أنى لم أطلبك أبدا؟

وترد ليلى :

- أليس هناك حب عذرى؟

وتسمع الإجابة من الطرف الآخر :

- تقولين "حب عذرى"؟

قالت ليلى :

- نعم هذا ما قلته.

فيرد المتحدث :

- اذا كنت تعرفين الهيروغليفية، فابحثى عن الحب العذرى فى نصوص ما قبل التاريخ.

وتنبهت ليلى الى عمل جديد، قررت أن تقتحمه إنها تعرف لغات مختلفة، وتتحدثها بطلاقة، وعملها بالفنون وبالآثار.. وبالتاريخ مما لا يشك فيه أحد.

لتكن إذن مرشدة للسائحين الزوار.

وبدأت عملها موفقة تنشد فيه سعادتها.

لكنها كانت خاوية من داخلها.

إنها تبحث عن حب، لكن الحب قد خاصمها!

أليست هى ليلى. وأليس لكل ليلى مجنون؟

أين المجنون إذن يا ليلى؟

كانت مع مجموعة من السائحين الإنجليز. وأخذت تشرح لهم آثار الأقصر، وأمسك بذراعها شاب وسيم الوجه من أفراد المجموعة.

وظلت ليلى تشرح للمجموعة، ولا ترفع عينيها عن هذا المتطوع بحبها، ليجن بها.

لكنه ما إن تناول عشاءه، حتى قال لها

- يبدو أنى متعب، وأننا جميعا متعبون.. فهل أصحبك الى حجرتك يا سيدتى؟

وفعلا صحبها إلى حجرتها، وفى الطريق إلى حجرتها أخذت ليلى تتأهب لمعركة معه.. هو يحاول دخول الحجرة،

وهى تمنعه عن أن يدخل. لكن من يدرى، قد يلتصق بها، ويأخذها بين ذراعيه، الى دنيا أخرى!!

وعند الباب، فتحت ليلى، ووقفت تشكر صاحبها، فانحنى لها فى أدب جم، واستدار ليقصد حجرته هو الآخر!!

ومع مجموعة أخرى مختلفة الجنسيات أخذت تطوف وتشرح، وتقترب من سائح إيطالى، دمه يغلى!

لكنه لم يفعل معها أكثر مما فعله الإنجليزى قبله.

وأين المصريون، الذواقون لجمال المرأة؟

هذه مجموعة من أعضاء المهن المختلفة، عهد بهم إلى ليلى لترافقهم وكان كثيرون يبتسمون لها، ويحاولون، أن يلفتوا نظرها إليهم، فلما لانت لعدد منهم.. تركوها فقد عرفوا أنها نمرة، والويل لمن يتلطف معها!!

وعادت ليلى! إلى القاهرة لتنفرد بنفسها تحاسبها.

أنا ليلى! ألست جميلة؟ ألست قادرة على أن أغرى رجلا؟

من ذا يقبلنى؟ وقد صرت ناعمة الملمس، ناعمة الصوت، ناعمة القلب.. أريد أن أجد من يهوانى؟

أتراني أذهب مثلما أتيت وحيدة، من غير رجل؟!

الحب المجهول؟ أأحب المجهول، أأحب المطلق؟!

●●●

ومضت ليلى تجرى فى مسكنها الخالى من خفقة حب متبادل.

وتجرى حافية القدمين، منتهدلة الشعر ودموعها تسابقها على خديها وتصيح ليلى، بصوت شرخته الأزمة :

ـ ... هأنذى يا قيس... ليلى.. ليلى تنتظرك!

أنا ليلاك يا مجنون! فلكل مجنون.. ليلى!

أأصبح ليلى.. ليلى.. ولا مجنون سواى؟

أفهذا عدل يا ربى؟!!

سبحانك أنت الرزاق، ترزق واحدة، بعدد من مجانين الحب، وتحرم ليلى، من مجنون واحد؟

●●●

وارتمت ليل على الأرض جريحة وجرحها غائر!!

وتصـورت ليلى أن المسكن قـد يصـبح قـبـرا.. وأنهـا قـد تواجـه نهـايتـهـا، وهـى ليلى.. ليلى.. بلا مـجنون.. يذكـرها ويبكيها!!

□□□

تمـــت

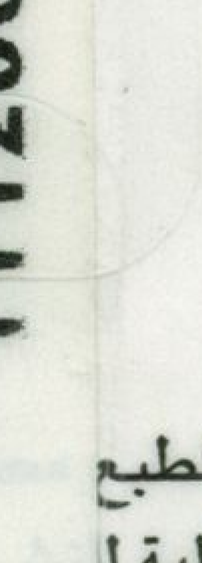
رقم الإيداع : ٢٢٣١٥ / ٢٠٠٦.



عبد المنعم الصاوي في سطور

- ولد في محافظة البحيرة يوم ٢٠ فبراير ١٩١٨.
- حاصل على ليسانس الآداب قسم اللغة العربية من جامعة القاهرة.
- عمل بالصحافة وتولى العديد من مناصبها القيادية واختير دورتين متتاليتين نقيبًا للصحفيين المصريين.
- أسس أول وكالة أنباء عربية (وكالة أنباء مصر).
- أسس اتحاد الصحفيين الأفارقة وتولى رئاسته حتى رحيله.
- تولى رئاسة مركز مطبوعات اليونسكو.
- أضاف للمكتبة العربية العديد من المؤلفات الروائية والفكرية وفي مقدمتها واحدة من أطول الروايات العربية خماسية الساقية (الضحية - الرحيل - النصيب - التوبة - الحساب الذي لم يمد الله عمره لإكماله).
- تم انتخابه عضوًا بمجلس الشعب عن دائرة الأزبكية والظاهر، ثم وكيلاً للمجلس عن نفس الدورة.
- تولى العديد من المناصب القيادية بوزارة الثقافة.
- تولى وزارتي الثقافة والإعلام معًا في حكومة السيد ممدوح سالم وفي عهد الرئيس السادات يرحمهم الله جميعًا.
- تم تعيينه عضوًا بمجلس الشورى في أول دوراته.
- تولى رئاسة اتحاد سباحة المسافات الطويلة وساهم بشكل كبير في دعم الرياضة المصرية على كافة المستويات.
- ظل يناضل من أجل القضايا العربية وفي مقدمتها قضية فلسطين التي ألقى آخر خطبه دفاعًا عنها في بغداد يوم السابع من ديسمبر عام ١٩٨٤ حين توفاه الله تعالى.

٥ جنيه



الناشر: شركة عالمية ل
محمد عبد المنعم الصا
تليفون: ٧٣٥٩٠٨٧ فاكس: ٧٣٨٠٠٢٥
بريد إلكتروني: sawy@alamia.net
طبعة عام ٢٠٠٧

عالمية
للنشر والإعلان